C. S. Lewis.

المسيحية المجرّدة

سي أس لويس

من المعرض الدولي للكتاب
٢٠١٠

المسيحية المجرّدة

كان كلايف ستيبلز لويس (١٨٩٨-١٩٦٣) أحد عمالقة الفكر في القرن العشرين وأحد أكثر كُتّاب عصره تأثيراً. عمِل مدرساً للأدب الإنكليزي في جامعة أكسفورد حتى عام ١٩٥٤حين اختير في جامعة كامبريدج بالتزكية لمنصب الأستاذية في الأدب الأنكليزي في فترتي العصور الوسطى وعصر النهضة، وهو منصب شغله حتى تقاعُده. كتب لويس أكثر من ثلاثين كتاباً، واصلاً بها إلى عددٍ كبير من القراء، وما تزال أعماله تجد ألوفاً جدداً من القراء سنوياً. أهم أعماله هي روايات «عالم نارنيا» (وهي متوفرة في العربية من «أوفير للطباعة المتخصصة والنشر»)، و«الثلاثية الكونية» (The Cosmic Trilogy)، و«أنواع المحبة الأربعة» (The Four Loves) و«المسيحية المُجرَّدة».

سي أس لِويس

المسيحية المجرّدة

ترجمة: سعيد ف. باز

أوفير
للطباعة المتخصصة والنشر

Originally published in the U.K. under the title: Mere Christianity

Published by Jongbloed Ophir under license from the CS Lewis Company Ltd

المسيحية المجردة
الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٦

أوفير للطباعة و النشر
ص.ب.٣٠٦٢ ,١١١٨١ عمان, الاردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+ فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٢/٣٢٧٩
ISBN: 90-5950-041-5

المحتويات

الباب الرابع، أسمى من الشخصيّة، أو خطوات أولى في عقيدة الثالوث

تمهيد

إنَّ محتويات هذا الكتاب أُذيعت أوّلاً عبر الأثير، ثُمَّ نُشرت في ثلاثة أجزاء متفرِّقة تحت العناوين التالية: «أحاديث إذاعيّة» (١٩٤٢) «السلوك المسيحيّ» (١٩٤٣)، «أسمى من الشخصيّة» (١٩٤٤). وقد زدتُ في النُسَخ المطبوعة قليلاً ممّا لم أقُله أمام المذياع، إلاّ أنّني أبقيتُ النصَّ كما هو إلى أبعد حدّ. فأنا أعتقد أن «الحديث» الإذاعيَّ ينبغي أن يبدو شبيهاً بالحديث العاديِّ قدر الإمكان، ولا يكون له وقعُ مقالةٍ تُقرأ بصوتٍ عالٍ. ولذلك استخدمتُ في أحاديثي الاختصار والتعابير الدارجة التي أستخدمها في المحادثة عادةً، الأمرُ الذي أجريتُ عليه تعديلات طفيفة في النُسَخ المطبوعة، كما استخدمت الأحرف البارزة للتشديد. وأكاد الآنَ أعتبر ذلك غلطةً، إذ حاولتُ التوفيق بين فنِّ الكلام وفنِّ الكتابة بطريقة التهجين غير المستحبّة. فعلى المتكلّم أن يعمد إلى تغيير نبرة صوته للتشديد لأنَّ وسيلة التبليغ تفرض ذلك بطريقة طبيعيّة. غير أنَّ الكاتب لا ينبغي له أن يستخدم الأحرف البارزة للغرض عينه. إذ إنَّه يملك وسيلته الخاصّة المختلفة بإبراز الكلمات الرئيسة، وينبغي له أن يستخدمها. كما أضفتُ أو حذفتُ حيثُ تصوَّرتُ أنَّني فهمتُ جزء موضوعي المعني الآن أفضل من فهمي له قبل عشر سنين، أو حيث تبيَّن لي أنَّ النصَّ الأصليَّ قد أساء بعضُهم فهمه.

ولا بدَّ للقارئ من أن يعلم أنّني لا أُقدِّم أيَّ عون لأيِّ شخص يتردَّد بين «مذهبين» مسيحيَّين. فلن تعلم منّي هل ينبغي لك أن تصير أنغليكانيّاً أو ميثوديّاً أو مشيخيّاً أو كاثوليكيّاً. وقد تعمَّدتُ إغفال ذلك (حتّى المذاهب التي ذكرتُها أوردتُها كما خطر في بالي دون مفاضلة). وليس من لغزٍ يُحيط بموقعي وموقفي الشخصيَّين. فأنا رجلٌ عاديٌّ من العامّة في كنيسة إنكلترا، لا صاحب منزلة «رفيعة» ولا صاحب مكانة «وضيعة» على نحوٍ مخصوص، ولا شيئاً غير ذلك أيضاً.

إلاَّ أنّني في هذا الكتاب لا أسعى إلى اكتساب أيِّ شخص إلى موقفي الخاصّ. فمنذ أن صرتُ مسيحيّاً حقيقيّاً، بتُّ أعتقد أنَّ الخدمة الفُضلى، وربّما الوحيدة، التي يمكنني أن أؤدّيها لإخواني غير المؤمنين هي أن أشرح وأصون العقيدة التي ما زالَتْ مشتركةً تقريباً بين جميع المؤمنين بالمسيح في كلّ زمان. ولتفكيري هذا أكثر من سبب واحد. وفي الطليعة أنَّ المسائل التي تفرِّق المسيحيّين بعضهم عن بعض غالباً ما تشتمل على نقاط لاهوتيَّة معقَّدة، أو حتَّى على نقاط متعلِّقة بالتاريخ الكنسيّ، ممّا لا ينبغي أن ينظر فيه إلاَّ الخبراء الحقيقيُّون. ومن شأني أن أكون في ذلك كمن يسبح في مياهٍ أعمق من قدرته، فأكون أكثر احتياجاً إلى المعونة ممّا أنا قادر على إعانة غيري. أمّا الأمر الثاني فهو أنّني أعتقد أنّه يجب علينا أن نعترف بأنَّ المباحثة في نقاط النزاع المعهودة لا تنطوي أبداً على إمكانيَّة اجتذاب أيِّ غريب إلى رعيَّة المسيح. وما دمنا نكتب ونتحدَّث عن تلك النقاط، فالأرجح جدّاً أننا سننفِّر الغريب من الانضمام إلى أيَّة جماعة مسيحيَّة، ناهيك باجتذابه إلى جماعتنا. فلا ينبغي أبداً أن نبحث في انقساماتنا، إلاَّ في حضور أولئك الذين باتوا يؤمنون بوجود إله واحد وبأنَّ يسوع المسيح هو ابنه الوحيد. أمّا الأمر الأخير، فهو أنَّ لديَّ انطباعاً بأنَّ كُتّاباً موهوبين أكثر من سواهم قد خاضوا بالفعل غمار النقاش في مسائل خلافيَّة من هذا النوع، وعددُهم يفوق بكثير أولئك المتجنِّدين للدفاع عمّا يدعوه باكستر «المسيحيَّة المجرَّدة». فجزء الخيط الذي حسبتُ أنّني قادرٌ على الإمساك به جيّداً كان أيضاً الجزء الذي بدا أنّه الأوهى. وإليه توجّهتُ على نحوٍ طبيعيّ!

تلك كانت دوافعي الوحيدة، على حدِّ علمي. ويسرُّني إلاَّ يستنتج الناس من سكوتي عن مسائل خلافيَّة معيَّنة استنتاجاتٍ وهميَّةً غريبة.

وهذا السكوت، مثلاً، لا يعني بالضرورة أنّني واقفٌ على الحياد. أحياناً أكون كذلك. فبين المسيحيين مسائلُ تحت البحث لا أظنُّ أنّنا قد أُطلعنا على حلولها. وبعضٌ من تلك المسائل ربّما لا أعرف الجواب عنها أبداً. فإذا طرحتُها، ولو في عالم أفضل، فلعلّني (رغم كلّ ما أعرفه) أتلقّى الجواب الذي تلقّاه مرّةً سائلٌ أعظم منّي بكثير: «ماذا لك؟ اتبعني أنت!» (يوحنّا ٢١: ٢٢). ولكنَّ ثمّة مسائل لي منها موقفٌ محدَّد ومع ذلك أسكتُ عنها تماماً. فأنا لا أكتب دفاعاً عن شيءٍ يمكنني أن أدعوه «دیانتي»، بل أكتب لأشرح وأصون المسيحيَّة «المجرَّدة» التي هي ما هي عليه

وما كانت عليه قبل ولادتي بزمانٍ طويل، سواءٌ أعجبتني أم لم تعجبني.

ولا تستطيع أيضاً أن تستنتج من سكوتي عن مَواطِن النزاع إمَّا أنّني أعتبرها مهمَّة وإمَّا أنّني أعتبرها عديمة الأهميَّة. فهذا الأمر في ذاته واحدٌ من مَواطِن الخلاف. إذ إنَّ واحداً من الأمور التي يختلف المسيحيُّون فيها هو أهميَّة خلافاتهم. فما يعتبره أحدهم قضية مهمة، قد يعتبره غيره قضية جوهرية جداً.

إنما كان الخطر بوضوح هو أن أقدِّم شيئاً على أنه مسيحية عامة تقتصر خصوصيته على كنيسة إنكلترا أو على نفسي (وهذا أسوأ). وقد حاولتُ الاحتراس من ذلك بإرسال المخطوطة الأصليَّة لِما بات الآن كتاباً إلى أربعةٍ من رجال الدين (أنغليكانيّ وميثوديّ ومَشيَخيّ وكاثوليكيّ) طالباً إليهم إبداء ملاحظاتهم النقديَّة بشأنها. فكان رأي الميثوديّ أنّني لم أقُل ما فيه الكفاية عن الإيمان، فيما كان رأي الكاثوليكيّ أنّني قلَّلْتُ كثيراً مِن الأهميَّة النسبيَّة للنظريَّات في تفسير موضوع الكفَّارة. وفي غير ذلك اتَّفقنا جميعاً نحن الخمسة.

وبقدْر ما يمكنني أن أستنتج من المراجعات ومن الرسائل التي تلقَّيتُها، فإنَّ الكتاب، مهما كان على شطط في نواحٍ أخرى، وُفِّق فعلاً إلى عرض مسيحيّة مُتَّفقٍ عليها، أو مشتركة، أو مركزيَّة، أو «مجرَّدة». ومن هذه الناحية ربَّما يكون على الأرجح نافعاً بعض الشيء في إفحام الرأي القائل بأنَّنا إن أسقطنا نقاط الخلاف فلا يبقى لدينا إلاَّ جامعٌ مشتركٌ غامضٌ وعديم الحياة. ويتبيَّن أنَّ هذا الجامع المشترك ليس فقط أمراً ثابتاً بل هو دقيق وواضح أيضاً، تفصله عن جميع المعتقدات غير المسيحيَّة هوَّة أعظم بكثير من أسوأ الانقسامات داخل الدائرة المسيحيَّة. وإن لم أكن قد خدمتُ مباشرةً قضيَّة جمع الشمل، فربَّما أكون قد أوضحتُ دواعيَ وجوب اجتماع شملنا. ولا شكَّ أنّني تلقَّيتُ بعض الاتِّهام بحيازة معتقداتٍ لاهوتيَّة مَعيبة مُلفَّقة من قِبَل أتباع مقتنعين ينتمون لانتماءاتٍ تختلف عنِ انتمائي. إلاَّ أنَّ الخصومة جاءتني من أناس لم يحسموا انتماءهم، سواءٌ داخل كنيسة إنكلترا أو خارجها، أُناس لا يتبعون أيَّة جماعة على نحوٍ جليّ. ولي في هذا الواقع عزاءٌ غير مألوف. فكلُّ جماعة، في مركزها، حيث يتواجد أبناؤها الأوفر إخلاصاً، هي بالحقيقة أقربُ ما يمكن إلى أيَّة جماعةٍ أُخرى، بالروح إن لم يكن بالعقيدة. وهذا الأمر يوحي أنَّ في مركز كلِّ جماعة شيئاً ما، أو شخصاً ما، يتكلَّم بالصوت نفسه

رغم كلّ انقسام في المعتقدات وكلّ فرقٍ في الحساسيّات، وكلّ ذكرى من ذكريات الاضطهاد المتبادَل.

أكتفي بهذا القدْر من الحديث عمّا أسقطتُه في ما يتعلّق بالعقيدة. وفي الباب الثالث كذلك، وهو يتناول الأخلاق، جاوزتُ أيضاً بعض المسائل في صمت، إنّما لسببٍ مختلف. فمنذ خدمتُ بصفة جنديٍّ مشاة في الحرب العالميّة الأولى، ما برح لديَّ مقتٌ شديد لأولئك الذين يُصدِرون الأوامر إلى خائضي الحرب في الجبهة الأماميّة وهم أنفسهم ينعمون في الرفاهية والأمان. ومن جرّاء ذلك أتردّد في أن أقول الكثير عن تجارب لست معرَّضاً لها شخصيّاً. فما من إنسان، على ما أعتقد، يتعرَّض للتجربة من جميع الخطايا بالمقدار عينه. فالواقع مثلاً أنّ الحافز الذي يدفع بعض الناس إلى المقامرة غيرُ موجود في تركيبتي. وعليه، فأنا دون شكٍّ أدفع ثمن ذلك بافتقاري إلى شيءٍ من الحفز الإيجابيّ في ما أراه مُجاوِزاً الحدَّ أو خروجاً عن سواء السبيل. ومن ثَمَّ لا أُحِسُّ نفسي مؤهَّلاً لتقديم مشورة بشأن المقامرة المسموح بها وتلك غير المسموح بها، إن كان من مقامرة مسموح بها! لأنّني لا أدَّعي أنّني أعرف ذلك أيَضاً. كذلك لم أقل أيَّ شيء أيضاً عن تحديد النسل. فلستُ امرأةً، ولا حتّى رجُلاً متزوّجاً، كما أنّني لستُ رجل دين. ولم أحسبه أنّه من حقي أن أقف موقفاً حازماً من آلامٍ وأخطار وأثمان أنا في مأمنٍ منها، وليست لي وظيفة راعويّة تضطرُّني إلى ذلك.

وأرجو ألاّ يحسب أيُّ قارئ أنّ المسيحيّة «المجرَّدة» معروضة هنا بديلاً من قوانين الإيمان لدى الكنائس الموجودة حاليّاً، كما لو كان في وسع المرء أن يعتنقها تفضيلاً لها على الكنائس ذات النظام الجمهوري أو الأرثوذكسيّة الشرقيّة أو غيرها. فإن قدرتُ أن أُحضِركَ إلى الرُّدهة، فقد نجحتُ في محاوَلتي. فما أشبه الأمر بردهةٍ تنفتح منها أبوابٌ تؤدّي إلى بضع غُرف! ولكنْ في الغرف: لا في الردهة، مواقد وكراسيُّ وموائد. والردهة مكانٌ للانتظار، مكانٌ تُجرِّب منه مختلف الأبواب، لا مكانٌ تُقيم فيه. فلأجل غرض الإقامة، كما أعتقد، تُفضِّل حتّى الغُرفة الأسوأ (كائنًة ما كانت). صحيحٌ أنّ بعض الناس قد يرون أنّ عليهم الانتظار في الردهة وقتاً طويلاً، فيما آخرون يتأكّدون في الحال أيَّ بابٍ ينبغي أن يقرعوا. ولستُ أدري لماذا هذا الاختلاف في الرأي، ولكنّني على يقين بأنّ الله لن يُبقيَ أحداً

منتظِراً إلاَّ إذا رأى الله تعالى أنَّ الانتظار خيرٌ له. وحين تدخل غرفتك، يتبيَّن لك أنَّ الانتظار الطويل آتاك شيئاً من الخير لم يكن ممكناً أن تناله بغير ذلك. ولكنَّ عليك أن تعتبره انتظاراً، لا تخييماً. إذ ينبغي لك أن تظلَّ عاكفاً على الصلاة طلباً للنور، كما أنَّ عليك بالطبع، ولو كنتَ ما تزال في الردهة، أن تباشر محاولة إطاعة القوانين المشتركة في البيت كلِّه. وفوق كلِّ شيء، ينبغي لك أن تكون سائلاً أيُّ بابٍ هو البابُ الصحيح، لا ذاك الذي يُرضيك أكثر من سواه بطلائه أو كسائه. بصريح العبارة، لا ينبغي أبداً أن يكون السؤال: «هل يروقني نوع تلك الخدمة؟» بل «أهذه العقائد سليمة؟ هل القداسة متوافرة هنا؟ هلِ يحرِّكني ضميري باتِّجاه هذا الباب؟ أيعود تردُّدي في قرعه إلى كبريائي، أو ذوقي الصِّرف، أو عدم استلطافي لهذا البوّاب بعينه؟»

وبعد أن تبلغ غرفتك الخاصَّة، عامِل باللطف أولئك الذين اختاروا أبواباً مختلفة، وأولئك الذين ما زالوا في الردهة. وإن كانوا على خطأ، فهم يحتاجون بالأحرى إلى صلواتك. حتَّى لو كانوا أعداءك، فأنت مُوصى بأن تصلِّي لأجلهم. وهذا واحدٌ من القوانين المشتركة للبيت كلِّه!

تقديم

هذا كتاب يقتضي أن ننظر إليه في إطاره التاريخيّ، على أنّه فعلٌ جريء من رواية القصص وعَمَل الشفاء في عالم جنَّ جنونه. ففي العام ١٩٤٢، بعد أربع وعشرين سنة فقط من نهاية حرب وحشيَّة حرمت بريطانيا العُظمى جيلاً كاملاً من شبّانها، ألفتِ البلاد نفسها تخوض حرباً أُخرى وبات المواطنون العاديُّون آنذاك هم من يُعانون، إذ تعرَّض وطنهم المؤلِّف من جزيرة صغيرة نسبيّاً لقصف جويّ قامت به أربع مئة طائرة في ليلةٍ ليلاء، في الغارات الجويَّة الخاطفة السيّئة الذِّكر والتي غيَّرت وجه الحرب، محوِّلةً المدنيِّين ومدنهم إلى جبهات قتال أماميَّة.

كان سي أس لِويس في شبابه قد خدم في الخنادق المروِّعة إبّان الحرب العالميَّة الأولى. ولمَّا بدأ قصف بريطانيا سنة ١٩٤٠، التحق بالخدمة مراقباً للغارات الجويَّة، ودأب في إلقاء أحاديث على أفراد القوّات الجويَّة الملكيَّة وهُم يعلمون أنّه بعد ثلاث عشرة مهمَّة قصف فحسب سيُعلَن عن معظمهم أنّهم قُتلوا أو فُقدوا. وقد حفَّز وضعُهم لِويس على التكلُّم عن مسائل المعاناة والألم والشرّ، الأمر الذي أسفر عن دعوة هيئة الإذاعة البريطانيَّة له لتقديم سلسلة أحاديث إذاعيَّة في زمن الحرب عن الإيمان المسيحيّ. وبعد إذاعة تلك الأحاديث على موجات الأثير من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤، جُمعت أخيراً في الكتاب الذي نعرفه اليوم باسم «المسيحيَّة المجرَّدة».

فهذا الكتاب إذاً لا يتكوَّن من تأمُّلات فلسفيَّة أكاديميَّة، بل هو بالحريّ أثر أدبيٌّ شفهيّ وجِّهت مادَّته أصلاً إلى قوم عصفت بهم الحرب. ولا بدَّ أنّه كان أمراً بالغ الغرابة أن يُشغِّل المرء جهاز الرّاديو الذي يأتي كلَّ يوم بأخبار الموت والدمار الهائل فيسمعَ رجلاً يتحدَّث بلهجةٍ تتميَّز بالذكاء وروح الدعابة والتعمُّق عن السلوك اللائق والخيِّر، وعن العدل والإنصاف، وأهميَّة التمييز بين الصواب والخطأ. وإذ طلبت هيئة الإذاعة البريطانيَّة من سي أس لِويس أن يشرح لمواطنيه

ما يؤمن به المسيحيُّون، أقدم على هذه المهمّة وكأنّها الأمر الأهوَن في الدنيا، والأمرُ الأهمُّ أيضاً.

وليس لنا إلاّ أن نُعجَب من الصُوَر البيانيَّة التي عنتِ الكثير لجمهور سامعي الكتاب أصلاً، لاشتمالها على استعاراتٍ تصوِّر عالمنا كأرضٍ احتلّها العدوُّ واجتاحتها شرورٌ عاتية عاكفة على تدمير كلّ ما هو صالح وخيِّر، وما تزال تبدو اليوم صُوَراً ذات صلة شديدة بالواقع. فجميع نظريّاتنا في العصرانيَّة والحداثة والرقيّ، وكلّ تقدُّمنا في المجال التكنولوجيّ العمليّ، لم تضع للحرب نهايةً. وإعلانُنا أنّ مفهوم الخطيَّة بات بائداً لم يُخفِّفِ المعاناة البشريَّة. ثمّ إنّ الأجوبة السهلة، من قبيل لوم التكنولوجيا، أو دياناتِ العالم، في ما يتعلّق بهذه المسألة لم تحلَّ المشكلة قطّ. فالمشكلة، كما يؤكِّد سي أَس لِويس، إنّما هي نحن. والجيل الشرِّير والمُلتوي الذي تحدَّث عنه ناظمو المزامير والأنبياءُ قبل آلاف السنين هو جيلنا نحن، متى استسلمنا للشرور الشاملة والفرديَّة وكأنَّ القيام بذلك هو خِيارنا الوحيد.

كان سي أس لويس، وقد وصفه أحد أصدقائه مرَّةً بأنّه مولع بالتخيُّل، يعتقد أنّ القبول الراضي للأمر الواقع يعكس ما يتعدّى فقدان رباطة الجأش. ففي «المسيحيَّة المجرَّدة»، كما في آثاره الأكثر خياليَّةً، حكاياتِ نارنيا وروايات الخيال العلميّ، ينمُّ عن إيمانٍ عميق بقدرة الخيال البشريّ على كشف الحقيقة المتعلِّقة بحالتنا وعلى فتح باب الرجاء أمامنا. إذ إنَّ الأساس المنطقيّ للخرافات الرمزيَّة وللإيمان على السواء هو أنَّ «أطول طريقٍ دائريّ هو أقصر طريق إلى البيت».

وفيما تكلَّم لِويس بسلطان الاختبار دون سواه، وهو مؤمنٌ من العامَّة كان مُلحِداً في ما مضى، قال لسامعيه إنَّه انتُدب لمهمَّة وصف المسيحيَّة لجيلٍ جديد على نحوٍ دقيق لأنّه ليس واحداً من ذوي الاختصاص بل «هاوٍ ومبتدئ، لا خبير متمِّرس». وقد قال لأصدقائه إنّه قبل المهمَّة لأنّه يعتقد أنّ إنكلترا، بعدما باتت تعدّ نفسها جزءاً من عالَم «ما بعدَ المسيحية»، لم يبلِّغها أحدٌ قطُّ في الواقع وبعباراتٍ أساسيَّة ما هو محور الدِّين. وهكذا، فإنّ لِويس، على غرار سورين كيركيغارد قبلَه وديتريتش بونهوفر مُعاصِره، يسعى في «المسيحيَّة المجرَّدة» إلى مساعدتنا على رؤية الدِّين بعينٍ جديدة، باعتباره إيماناً ثوريّاً يمكن تشبيه أتباعه بجماعة سرِّيَّة تجتمع في منطقة حربٍ، في مكانٍ يبدو أنّ للشرِّ فيه اليدَ العُليا، لتُصغي إلى رسائل الرجاء

الآتية من الجهة الأُخرى.

إنَّ مسيحيَّة سي أس لِويس «المجرَّدة» ليست فلسفةً من الفلسفات، ولا حتَّى وجهة نظر لاهوتيَّة، يمكن النظر فيها ومناقشتها ثمَّ الاحتفاظ بها في كتاب على الرفّ. ولكنَّها نمط حياة يستنهض همَّتنا دائماً كي نتذكَّر، كما قال لِويس ذات مرَّة، أنْ «ليس هنالك أُناسٌ عاديُّون» وأنَّ «أولئك الذين نُمازحهم، ونُزامِلهم في العمل، ونصاهرهم بالزواج، وَنستخفُّ بِهِمْ ونستغلُّهم، إنَّما هم خالدون». ويعتقد لِويس أنَّه ما إن نُدَوزِن أنفسنا بمقتضى هذه الحقيقة، حتَّى نُشرِّع أبواب نفوسنا لتغيير حياتنا على نحو خياليّ بطريقةٍ تجعل الشرَّ يتقلَّص والخير يسود. ذلك هو ما طلبَه المسيح منّا باتِّخاذه طبيعتنا البشريَّة وتطهيره لأجسادنا وطلبِه منَّا في المقابل أن نعلن الله بعضُنا لبعض.

ولئن جعل العالمُ هذا الأمر يبدو مهمَّةً متعذِّرة، فإنَّ لِويس يُصِرُّ على أنَّها ليست كذلك. حتَّى امرؤٌ يتصوَّره «مُفسَداً من جرّاء تربية بائسة في بيتٍ ملؤه المحاسدات المبتذلة والمخاصمات العقيمة» يمكنه أن يتيقَّن بأنَّ الله عليمٌ «أيَّةُ آلة رديئة تحاول أن تقودها»، ويطلب فقط أن «تُواصِل السعي، باذلاً قصارى جهدك». فالمسيحيَّة التي يُناصِرها لِويس إنسانيَّة، غير أنَّها ليست سهلة، إذ هِي تطلب منَّا أن ندرك أنَّ الكفاح الدينيَّ العظيم لا نخوضه في ساحةِ معركة مشهديَّة عظيمة، بل داخل القلب البشريّ العاديّ، حين نستيقظ كلَّ صباح ونُحِسُّ ضغوط يومنا مزدحمةً علينا وينبغي لنا أن نُقرِّر أيَّ نوع من الخالدين نرغب أن نكون. ولربَّما أعاننا، كما أعان يقيناً الشعبَ البريطانيَّ الذي أنهكته الحربُ والذي أصغى أوَّلاً إلى هذه الأحاديث، أن نتذكَّر أنَّ الله بالمرصاد حقّاً لأولئك الذين يسعَون في إثر السلطة والقوَّة مهما كان الثمن. فكما يذكِّرنا لِويس، بظرفه المعهود ودعابته المألوفة: «كم كان جميع الطُغاة والغُزاة متشابِهين على نحوٍ رتيب، وكم يختلف القدِّيسون على نحوٍ مجيد!»

كاثلين نُورِّس

المسيحية المجرّدة

الباب الأول

مفهوم الصواب والخطإ مفتاحا لفهم معنى الكون

I

قانون الطبيعة الإنسانيّة

لا شكَّ أنّنا كلّنا سمعنا ناساً يتخاصمون. وأحياناً يبدو ذلك سخيفاً، وفي أحيان أُخرى مُزعِجاً جداً. ولكنْ كيفما بدا الأمر، أعتقد أنّنا نتعلَّم شيئاً بالغ الأهميَّة من الإصغاء إلى الأمور التي يقولونها. فهم يقولون أقوالاً كهذه: «ماذا يكون وقْع الأمر عليك لو عاملك أيُّ إنسان بالمثل؟» «دعه وشأنه، إنَّه لا يسبِّب لك أيَّ أذى!» «لماذا ينبغي لك أن تندفع للجلوس قبل غيرك؟» «أعطِني جزءاً من برتقالتك، فأنا أعطيتك جزءاً من برتقالتي!» «هيَّا، فأنت وعدتَ بهذا!» إنَّ الناس يقولون أقوالاً كهذه كلَّ يوم، سواءٌ كانوا متعلِّمين أو أُمِّيِّين، كباراً أو صغاراً.

ولكنّ ما يعنيني بشأن هذه الأقوال هو أنّ الشخص الذي يقولها لا يعني فقط أنَّ تصرُّف الشخص الآخر لا يرضيه فعلاً، بل ينطلق أيضاً من معيارٍ للسلوك يتوقَّع من الآخر أن يعلم به. ثمَّ إنَّ الشخص الآخر نادراً جدّاً ما يُجيب: «تبّاً لمعيارك!» بل إنَّه في كلِّ حين تقريباً يحاول أن يُبيِّن أنَّ ما كان يفعله لا يخالف المعيار حقاً، أو إذا خالفه فلعذرٍ خاص. فهو يزعم أنَّ في هذه الحالة المعيَّنة سبباً خاصّاً يضطرُّ مَن احتلَّ المقعد أوَّلاً إلى التخلِّي عنه، أو أنَّ الأمور كانت مختلفة تماماً لمَّا أُعطي جزءاً من البرتقالة، أو أنَّ أمراً طارئاً يحول دون وفائه بوعده. وبالحقيقة، يبدو على أكثر ترجيح كما لو كان في ذهن كِلا الطرفين قانونٌ ما، أو قاعدة إنصافٍ أو سلوك لائق أو مفهوم أخلاقيّ، أو ما شئتَ أن تسمِّيه، توافقا عليه فعلاً. وهما توافقا بالفعل، ولو كان غير ذلك، لتقاتلا كالوحوش، إنَّما لم يكن في إمكانهما أن يتخاصما، بالمعنى البشري للكلمة. فالخصام معناه محاولة إثباتك أنَّ الشخص الآخر على خطأ. ولن يكون لذلك أيُّ معنى إلاَّ إذا كنتما، أنت وهو، على توافُقٍ ما بشأنِ ماهيَّة الصواب

والخطأ؛ تماماً كما لا يكون أيُّ معنىً لقولك إنَّ لاعب كرة القدم قد ارتكب خطأً، إلاَّ إذا تواجد توافُقٌ ما على قواعد لعبة كرة القدم.

وقد درج الناس على تسمية ذلك القانون أو تلك القاعدة بشأن الصواب والخطأ «قانون الطبيعة». أمَّا اليوم، فعندما نتكلَّم عن «قوانين الطبيعة» نعني عادةً أموراً مثل الجاذبيَّة أو الوراثة أو قوانين الكيمياء. ولكنْ لمَّا دعا المفكِّرون الأقدمون الصواب والخطأ «قانون الطبيعة»، فإنَّما قصدوا في الحقيقة قانون الطبيعة الإنسانيَّة. وكانت الفكرة أنَّه كما يتحكَّم قانون الجاذبيَّة بجميع الأجسام، والقوانينُ البيولوجيَّة بالكائنات الحيَّة، فكذلك تماماً للمخلوق المسمَّى إنساناً قانونُه الخاصّ؛ ما عدا هذا الفرق الأساسيّ: أنَّ الجسم لا يستطيع أن يختار خضوعه لقانون الجاذبيَّة أو عدم خضوعه له، ولكنَّ الإنسان يستطيع أن يختار إمَّا الخضوع لقانون الطبيعة الإنسانيَّة وإمَّا عدم الخضوع له.

وفي وسعنا التعبير عن ذلك بطريقة أخرى. إنَّ كلّ إنسان، في كلّ لحظة، مُخضَعٌ لبضعة قوانين مختلفة، ولكنَّ بين هذه القوانين واحداً فقط له الحرِّيَّة بألاَّ يخضع له. فمن حيث كونه جسماً، هو مُخضَع للجاذبيَّة ولا يستطيع ألاَّ يخضع لها: فإن تركتَه بلا سندٍ في قلب الهواء، لا يكون له أيُّ خيار في أمر السقوط، مَثَلُه مَثَلُ الحجر تماماً. ومن حيث كونُه كائناً حيّاً، هو مُخضَعٌ لقوانين بيولوجيَّة شتَّى لا يمكنه ألاَّ يخضع لها، مَثَلُه مثل الحيوان تماماً. ذلك أنَّه لا يستطيع أن يخالف تلك القوانين التي يتشارك فيها مع سائر الأشياء؛ غير أنَّ القانون المقتصر على طبيعته الإنسانيّة، القانون الذي لا يتشارك فيه مع الحيوان أو النبات أو الأشياء غير العُضويَّة، هو القانون الذي يستطيع عدم الخضوع له إذا أراد.

وقد دُعي ذلك القانونُ «قانونَ الطبيعة» لأنَّ الناس اعتقدوا أنَّ كلّ امرئ يعرفه بالطبيعة ولا داعيَ لتعليمه إيّاه. وهم لم يقصدوا بالطبع أنَّه لا يمكن أن تجد فرداً غريباً هنا أو هناك لا يعرف ذلك القانون، تماماً كما تجد قلَّةً من الناس مصابين بعمى الألوان أو غير قادرين على التمييز بين الألحان. ولكنْ بالنظر إلى الجنس البشريّ عموماً، اعتقدوا أنَّ الفكرة البشريَّة بشأن السلوك اللائق بديهيَّةٌ لدى الجميع. وفي يقيني أنَّهم كانوا على حقّ. ولو لم يكونوا، فعندئذٍ يكون كلُّ ما قلناه عن الحرب عديمَ المعنى. فأيُّ معنىً يكون للقول إنَّ العدوَّ على خطأ إلاَّ إذا كان الصواب أمراً

حقيقيّاً يعرفه النازيّون جوهريّاً كما نعرفه نحنُ البريطانيّين تماماً، وكان ينبغي أن يعملوا به؟ ولو لم يكن لديهم أدنى فكرة عمّا نعنيه نحنُ بالصواب لَما كنّا نلومهم على سلوكهم أكثر من لومنا لهم على لون شعرهم، مع أنّنا ربّما اضطُرِرنا لمحاربتهم على كلّ حال.

في علمي أنّ بعض الناس يقولون إنّ فكرةَ قانون الطبيعة أو السلوك اللائق، تلك المعروفةَ عند جميع البشر، ليست سليمة. وذلك لأنّ الحضارات المختلفة والعصور المختلفة كانت لديها نُظُم أخلاقيّة مختلفة.

ولكنّ ذلك غير صحيح. فلطالما وَجِدت اختلافات بين أخلاقيات البشر، ولكنّها لم تبلغ حدَّ الاختلاف الكلّيّ قَطّ. فإذا تكلّف امرؤ مشقّة المقارنة بين التعاليم الأخلاقيّة، مثلاً، عند قُدامى المصريّين والبابليّين والهندوسيّين والصينيّين واليونانيّين والرومانيّين، فإنّ ما يستوقفه حقّاً هو كيفيّةُ مشابهة تلك الأخلاقيّات بعضها لبعض ولأخلاقيّاتنا نحن. وقد أشرتُ في مُلحَق كتاب آخر عنوانُه «إبطال الإنسان» (The Abolition of Man) إلى جملةٍ من البيّنات المؤكّدة لهذا الواقع، إلاّ أنّني هُنا اكتفي بأن أطلب من القارئ التفكيرَ بما قد يعنيه نظامٌ أخلاقيٌّ مختلف كليّاً: فكّرْ في بلدٍ يُمتدح فيه الناس لفرارهم من ساحة المعركة، أو يشعر المرء فيه بالفخر والخُيلاء لخيانته جميع الذين عاملوه ألطف معاملة. ولك كذلك أيضاً أن تُفكّر في بلدٍ يكون فيه حاصل جمع اثنين مع اثنين خمسة. فقد اختلف الناس في تحديد مَن ينبغي لك أن تعاملهم معاملةً غير أنانيّة: عائلتك الخاصّة أو إخوانك المواطنون أو الناس أجمعون. غير أنّهم توافقوا دائماً على أنّه ينبغي لك ألاّ تضع نفسك في المقام الأوّل. فالأنانيّة لم تُمتدَح يوماً. وكذلك اختلف الناس في ما يخصّ كم زوجةً ينبغي أن يتزوّج الرجل، واحدةً أو أكثر. غير أنّهم توافقوا دائماً على أنّه لا ينبغي للمرء أن يحوز أيّة امرأةٍ جذبه إليها هواه.

غير أنّ الأمر اللافت للنظر حقّاً هو هذا: كلّما وجدتَ إنساناً يقول إنّه لا يؤمن بصوابٍ وخطإٍ حقيقيّين، فستجد ذلك الإنسان نفسه يتراجع عن هذا بعد هُنيهة. فهو قد ينقض وعده لك، ولكنْ إذا حاولتَ نقض وعدٍ وعدتَه به فإنّه سيتشكّى قائلاً: «ليس هذا من العدل والإنصاف!» قبل أن يُتاح لك قول كلمةٍ واحدة. وقد يقول أهل بلدٍ ما إنّ المعاهدات لا تهمّ، إنّما لا تكاد تمضي دقيقتان حتّى يُفسِدوا

دعواهم وحديثهم بقولهم إنَّ المعاهدة المعيَّنة التي يريدون نقضها معاهدةٌ غير عادلة. ولكنْ إذا كانت المعاهدات لا تهمّ، وإذا لم يكن من شيءٍ مثل الصواب والخطأ، وبعبارةٍ أخرى: إذا كان قانون الطبيعة غير موجود، فما الفرق بين معاهدة عادلة وأخرى غير عادلة؟ ألم يكشفوا حقيقة أمرهم ويُثبتوا أنَّهم مهما قالوا فهم يعرفون قانون الطبيعة، مَثَلُهم مَثَلُ غيرهم تماماً؟

يبدو إذاً أنَّنا مُرغَمون على الإيمان بوجود معيار حقيقيّ للصواب والخطأ. وقد يكون الناس أحياناً مخطئين بشأنهما تماماً كما يغلط بعضُهم في حساب الجمع. غير أنَّهما ليسا مجرَّد مسألة ذوق ورأي، مثلهما مثل جدول الضرب.

وإن كنَّا قد اتَّفقنا على هذه النقطة، أنتقل الآن إلى النقطة التالية، وهي هذه: ليس أحدٌ منَّا يعمل حقّاً بقانون الطبيعة. فإذا كان بينكم أيَّةُ استثناءات، فإنَّني أعتذر إليهم. وخيرٌ لهم أن يقرأوا أيَّ كتابٍ آخر، لأنَّ أيَّ شيءٍ ممّا سأقوله لا يعنيهم. فها أنا الآن أتوجَّه إلى الكائنات البشريَّة العاديَّة أي إلى الباقين جميعاً:

أرجو ألاَّ تُسيئوا فهم ما سأقوله. إنَّني لستُ أعظ، ويشهد الله أنَّني لا أتظاهر بكوني أفضل من أيِّ شخصٍ غيري فأنا إنَّما أحاول لفت أنظاركم إلى حقيقة واقعة، وهي أنَّنا، هذه السنة أو هذا الشهر أو على الأرجح هذا اليوم، قد أخفقنا نحن أنفسُنا في ممارسة نوع السلوك الذي نطلبه من غيرنا. وربَّما يتوافر لدينا كلُّ نوع من الأعذار. ففي تلك المرَّة التي فيها قسوتِ على أولادكِ كنتِ مُرهَقة ومُنهكة. وتلك العمليَّة شبه المشبوهة التي أجريتَها في مجال العمل والمال، تلك التي كدتَ تنساها، حصلَت حين كنتَ في ضائقة مالية خانقة. وما وعدتَ بأن تفعله للعجوز الفلانيّ ولكنّك لم تفعله قطّ، ما كنتَ لِتَعِد به قطعاً لو علمتَ كم سيكون انشغالك رهيباً. أمَّا تصرُّفك مع زوجتك (أو تصرُّفكِ مع زوجك) أو أُختِك (أو أخيكِ)، فما كنتُ لأَعجب منه لو علمتُ أيَّ درجةٍ من الاستفزاز قد يبلغون، وعلى كلّ حال، مَن أنا يا تُرى؟ أليس مَثَلي مثَلكم تماماً؟ أعني أنَّني لا أنجح إلى التمام في مراعاة قانون الطبيعة. وحالما يقول لي أحد إنَّني لا أراعيه، يجول في ذهني خيطٌ من الأعذار بطول ذراع! والسؤال حاليّاً ليس عن كونها أعذاراً جيِّدة، بل بيتُ القصيد أنَّها برهانٌ آخر على مدى العمق الذي به نؤمن بقانون الطبيعة، أحببنا ذلك أم كرهناه. فإذا لم نكن نؤمن بالسلوك اللائق، فلماذا نهتمُّ كثيراً

بتقديم الأعذار عن سوء تصرُّفنا؟ إنَّما الحقُّ أنَّنا نؤمن بالاستقامة كثيراً، ونحسُّ حُكم القانون يلحُّ علينا كثيراً، حتَّى لا نُطيق مواجهة حقيقة كوننا مخالفين له، فنحاول تالياً إزاحة المسؤوليَّة بعيداً عنّا. فأنتم تلاحظون أنَّنا من أجل سلوكنا السيِّئ وحده نقدِّم تلك التفسيرات كلَّها. وطبعُنا السيِّئُ فقط هو ما نسوِّغه ونبرِّره بكوننا مُتعَبين أو قلِقين أو جائعين؛ أمَّا طبعنا الحسن فنُبقيه لأنفسنا.

هاكم إذاً النقطتين اللتين أردتُ تأكيدهما. الأُولى أنَّ لدى الكائنات البشريَّة، في أنحاء الأرض كلِّها، تلك الفكرةَ الفريدة بأنَّ عليهم أن يتصرَّفوا بطريقة معيَّنة، وليس في وسعهم حقّاً التخلُّص من هذه الفكرة. والثانية أنَّهم بالحقيقة لا يتصرَّفون بتلك الطريقة. فهم يعرفون قانون الطبيعة، ويخالفونه. هاتان الحقيقتان هما أساس كلِّ تفكير جليّ واضح في أنفسنا وفي العالم الذي نعيش فيه.

٢

بضعة اعتراضات

ما دامت تانك الحقيقتان هما الأساس، فخيرٌ لي أن أتمهَّل قليلاً لترسيخ هذا الأساس قبل متابعة الموضوع. فإنَّ بعض الرسائل التي تلقَّيتُها تُبيِّن أنَّ عدداً كبيراً من الناس يستصعبون فهمَ ماهيَّة قانون الطبيعة البشريَّة هذا، أو القانون الخُلقيّ، أو قانون السلوك اللائق، فهماً صحيحاً.

مثلاً، كتب بعضُهم إليَّ قائلين: «أليس ما تدعوه القانون الخُلقيَّ هو الغريزةَ التي تدعونا للانخراط في جماعةٍ ما؟ أولم تتطوَّر غريزتنا هذه كغيرها من غرائزنا الأخرى تماماً؟» إنَّني لا أنكر أنَّه قد تكون لدينا غريزةٌ اجتماعيَّة. ولكنَّها ليست ما أقصده بالقانون الخُلقيّ. فنحن جميعاً نعرف حقيقة الشعور بحفز الغريزة: محبَّة الأُم، أو الغريزة الجنسيَّة، أو غريزة طلب الطعام. فمعنى ذلك أننا نشعر برغبةٍ أو ميلٍ شديدَين للتصرُّف بطريقة معيَّنة. وبالطبع أنَّنا نشعر أحياناً شعوراً قويّاً بذلك النوع من الرغبة في مساعدة شخص آخر؛ وما من شكٍّ في أنَّ تلك الرغبة ناشئة من الغريزة الاجتماعيَّة. غير أنَّ الشعور برغبةٍ في المساعدة يختلف عن الشعور بوجوب المساعدة، سواءٌ أردتَ أم لم تُرِد. افترض أنَّك سمعت استغاثةً من انسانٍ في خطر. فمن المحتمل أنْ تشعر برغبتين: إحداهما الرغبة في المساعدة (بدافع من الغريزة الاجتماعية)، والأخرىَ رغبةٌ في الابتعاد عن الخطر (بدافع من غريزة حماية الذات). إلاَّ أنَّك ستجد في داخلك، فضلاً عن هذين الحافِزين، شيئاً ثالثاً يقول لك إنَّ عليك تلبية الرغبة في المساعدة وتنحية الرغبة في التهرُّب. فهذا الشيء الذي يحكم بين غريزتين والذي يقرِّر أيُّهما يجب أن يُشجَّع، لا يمكن هو ذاته أن يكون أيّاً منهما. وفي وسعك أيضاً أن تقول إنَّ ورقة اللحن التي تقول لك في لحظةٍ

محدَّدة أن تعزف نغمة معيَّنة على البيانو دون غيرها هي نفسُها إحدى النغمات على لوحة المفاتيح. فالقانون الخلقيُّ يقول لنا أيَّ نغم نعزف. أمَّا غرائزنا فلا تعدو كونها المفاتيح.

وهاك طريقةً أُخرى للتيقُّن بأنَّ القانون الخُلقيَّ ليس مجرَّد واحدةٍ من غرائزنا. إذا تضاربت غريزتان، ولم يكن في ذهن المخلوق أيُّ شيء سوى هاتين الغريزتين، فبديهيٌّ أنَّ الغريزة الأقوى بين الاثنتين يجب أن تسود. ولكنْ في تلك اللحظات التي فيها نكون أكثَر وعياً للقانون الخُلقيّ، يبدو عادةً أنَّه يُملي علينا مسايرة أضعف الحافِزَين. فمن المحتمل أنَّك ترغب في السلامة أكثر بكثير من الراغبة في مساعدة مَن يكاد يغرق، إلاَّ أنَّ القانون الخُلقيَّ يقول لك إنَّ عليك أن تساعده رغم ذلك. ومن المؤكَّد أنَّه غالباً ما يقول لنا أن نحاول جعْل الحافز الصحيح أقوى ممَّا هو بطبيعة الحال! أعني أنَّنا غالباً ما نشعر بأنَّ من واجبنا حفز الغريزة الاجتماعية، بإيقاظ تخيُّلاتنا وحثِّ إشفاقنا وما إلى ذلك، بحيث يكون لدينا وقودٌ كافٍ للقيام بالأمر الصائب. ولكن من الواضح أنَّنا لا نتصرَّف بدافع الغريزة حين نُصمِّم أن نجعل غريزةً ما أقوى ممَّا هي فعلاً. فالشيء الذي يقول لك: «إنَّ غريزتك الاجتماعيَّة في سُبات، فأيقظها!» لا يمكن أن يكون هو بعينه الغريزة الاجتماعيَّة. كما أنَّ الشيء الذي يقول لك أيُّ نغمٍ في البيانو يجب أن يُعزف أعلى لا يمكن أن يكون هو نفسه ذلك النغم.

وإليك طريقةً ثالثة لإدراك الأمر. لو كان القانون الخُلقيُّ واحدةً من غرائزنا، لكان ينبغي لنا أن نكون قادرين على الإشارة إلى حافزٍ ما في داخلنا يبقى دائماً ما ندعوه «الخير» أو «الصواب» متناغماً كلَّ حين مع قاعدة السلوك السويّ. ولكنَّنا غير قادرين على ذلك. فليس بين غرائزنا واحدةٌ لا يمكن للقانون الخُلقيِّ أحياناً أن يطلب منَّا قمعها، ولا واحدةٌ لا يمكن له أحياناً أن يطلب منَّا تنشيطها. وإنَّها لَغلطةٌ أن نعتقد أنَّ بعضاً من حوافزنا، كمحبَّة الأمِّ أو حُبِّ الوطن مثلاً، صالحة، وبعضاً منها، كغريزة الجنس أو الدِّفاع عن النفس، سيِّئة. فكلُّ ما نعنيه هو أنَّ المناسبات التي فيها ينبغي كبحُ غريزة الدفاع أو القتال، أو الغريزة الجنسيَّة، هي بالأحرى أكثر تواتُراً وتكراراً من تلك المناسبات الداعية إلى كَبح محبَّة الأم أو حُبِّ الوطن. غير أنَّ هنالك أوضاعاً يكون فيها من واجب الرجل المتزوِّج أن ينشِّط حافِزَه

الجنسيّ، ومن واجب الجنديّ أن يحفز غريزته القتاليّة. وهنالك أيضاً مناسبات فيها ينبغي كبحُ جماح محبّة الأمّ لأولادها، أو محبّة الإنسان لوطنه، وإلاّ أدّتا إلى الإجحاف بحقّ أولاد الآخرين أو أوطانهم. فبالمعنى الحصريّ، ليس هنالك حوافز صالحة أو سيّئة بصورةٍ ثابتة. ولنفكّر مرّةً أخرى في البيانو. فليس فيه نوعان من النغمات، «صالحة» و «سيّئة»، بل إنّ كلّ نغمة بمفردها تكون صائبة مرّة وخاطئة مرّةً أخرى. وليس القانون الخُلقيّ غريزةً واحدة أو مجموعة غرائز بل هو شيءٌ يُوجِد نوعاً من النغم (النغم الذي ندعوه الخير أو السلوك السَليم) بواسطة توجيه الغرائز توجيهاً صحيحاً.

وعلى فكرة، هذه النقطة ذاتُ نتائج عمليّة عظيمة. فأخطر شيءٍ قد تفعله هو أن تأخذ أيّ حافزٍ من حوافز طبيعتك الخاصّة وتُقيمه على أنّه الأمر الذي ينبغي أن تخضع له وتتبعه مهما كان الثمن. فليس بين غرائزنا أيّةُ غريزة واحدة لن تُحيلَنا شياطين إذا نصّبناها على أنّها مرشدتنا المطلقة. ولعلّك تحسب أنّ حبَّ الإنسانيّة مأمونٌ على وجه العموم، غير أنّه ليس كذلك. فإذا أسقطتَ العدل والإنصاف، فستُلفي نفسك حتماً ناقضاً للاتفاقيّات ومزوّراً للبيّنات في المُحاكمات «حُبّاً بالإنسانيّة»، وتصير في نهاية المطاف إنساناً قاسياً وغادراً.

وقد كتب إليّ آخرون يقولون: «أليس ما تدعوه القانون الخُلقيّ مجرّد عُرفٍ اجتماعيّ، شيئاً نكتسبه من طريق التربية؟» فأظنّ أنّ ها هنا سوءَ فهم. إذ إنّ أولئك الذين يطرحون هذا السؤال يُسلّمون بداهةً في العادة بأنّه إذا تعلّمنا أمراً من أهلنا ومعلّمينا فلا بدّ إذاً أن يكون ذلك الأمر مجرّد اختراع بشريّ. إلاّ أنّ واقع الحال هو خلافُ هذا طبعاً. فجميعنا تعلّمنا جدول الضرب في المدارس. والولد الذي نشأ وحده في جزيرة مقفرة لن يعرفه. ولكنّ المؤكّد أنّه لا يترتّب على ذلك أنّ جدول الضّرب مجرّدُ عُرفٍ بشريّ، شيءٌ اصطنعه البشر لأنفسهم وكان يمكن أن يجعلوه مختلفاً لو شاؤوا! فأنا أوافق تماماً على أنّنا نتعلّم قواعد السلوك السويّ من الوالدين والمعلّمين، والأصدقاء والكتب، مثلما نتعلّم أيّ أمرٍ آخر. ولكنّ بعض الأمور التي نتعلّمها هي مجرّد أعراف أو اصطلاحات كان يمكن أن تكون مختلفة (فكثيرون مثلاً يتعلّمون التزام الجهة اليُمنى من الطريق، ولكنْ كان يمكن أيضاً أن تكون القاعدة التزام الجهة اليُسرى كما في بعض البلدان) في حين أنّ بعض الأمور

الأخرى التي نتعلَّمها، كالحساب أو الرياضيَّات، هي حقائق. إنَّما المسألة هي: إلى أيَّة فئة ينتمي قانون الطبيعة الإنسانيَّة؟

لدينا سببان للقول إنَّه ينتمي إلى الفئة التي تنتمي إليها الرياضيات. أمَّا أوَّل السببين، كما قلتُ في الفصل الأوَّل، فهو وجود اختلافات بين المفاهيم الأخلاقيَّة في زمانٍ ما وبلدٍ ما وتلك التي في زمان وبلد آخَرين، إنَّما الفوارق ليست كبيرة بالحقيقة (أو على الأقلّ ليست كبيرة كما يتصوَّر معظم الناس)، ويمكنك أن تميِّز القانون عينه سارياً بينها جميعاً؛ في حين أنَّ الأعراف أو الاصطلاحات المجرَّدة، كقانون السَّير وصنف الثياب التي يلبسها الناس، قد تختلف إلى أيِّ حدّ. وأمَّا السبب الثاني، فهو هذا: عندما تفكِّر في هذه الاختلافات بين أخلاقيَّات شعب وأخلاقيَّات شعب آخر، فهل تحسب أنَّ أخلاقيَّات شعب بعينه أفضل أو أسوأ من أخلاقيَّات شعب آخر؟ أولم يكن أيٌّ من التغييرات تحسيناً؟ إن كان لا، فلا يمكن عندئذٍ طبعاً حصول أيِّ ترَقٍّ خُلقيّ. فالترقّي لا يعني مجرَّد التغيير، بل التغيير نحو الأفضل. ولو لم تكن مجموعةٌ من المفاهيم الخُلقيَّة أصحَّ أو أحسن من أيَّة مجموعة سواها، ما كان معنىً لتفضيل أخلاقيَّات التمدُّن على أخلاقيَّات التوحُّش، أو الأخلاقيَّات المسيحيَّة على الأخلاقيَّات النازيَّة. وفي الحقيقة طبعاً أنَّنا جميعاً نؤمن أنَّ بعض الأخلاقيَّات أفضل من غيرها. ونحن نعتقد حقّاً أنَّ بعض الأشخاص الذين حاولوا تغيير المفاهيم الخُلقيَّة في عصرهم كانوا ما يمكن أن ندعوه مُصلحين أو روَّاداً، أشخاصاً فهموا النظام الخُلقيَّ بشكلٍ أفضل ممَّا فهمه مُعاصِروهم. حسنٌ جدّاً إذاً، فحالما تقول إنَّ مجموعةً من المفاهيم الخُلقيَّة يمكن أن تكون أفضل من أخرى، تكون في الواقع مُخضِعاً كلتيهما لمعيارٍ ما، وقائلاً إنَّ إحداهما توافق ذلك المعيار على نحوٍ أقرب ممَّا توافقه الأخرى. غير أنَّ المعيار الذي به يُقاس شيئان هو شيءٌ مختلف عن كلتا المجموعتين. فأنت إنَّما تقارن المجموعتين كلتيهما في الواقع بنظام خُلقيٍّ حقيقيٍّ مُقِرّاً بأنَّ هنالك ما هو صوابٌ حقيقيٌّ بصرف النظر عمَّا يعتقده الناس، وأنَّ بعضاً من مفاهيم الناس أقرب من سواها إلى ذلك الصواب الحقيقيّ. أو لنُعبِّر عن ذلك بهذه الطريقة: إذا كان ممكناً أن تكون مفاهيمك الخُلقيَّة أصحّ، ومفاهيمُ النازيِّين الخلقيَّة أقلَّ صحَّةً، فلا بدَّ من وجود شيءٍ ما، نظام خُلقيٍّ من نوع ما، حتَّى تُقارَن صحَّتهما به. فالسبب الذي من أجله يمكن أن تكون فكرتك عن

نيويورك أصحّ أو أقلّ صحّةً من فكرتي عنها إنّما هو وجود نيويورك في مكانٍ فعليّ، قائمةً بمعزلٍ عمّا يفكّر فيه كلانا تماماً. وإذا كان ما يعنيه كلانا حين يقول «نيويورك» مجرّد «المدينة التي أتصوّرها في ذهني الخاصّ»، فكيف يُعقَل أن يكون واحدٌ منّا حائزاً أفكاراً أصحّ من أفكار الأخر؟ عندئذٍ لا تقوم أبداً مسألةُ الحقّ أو الباطل. وعلى المنوال عينه، إذا كان قانون السلوك السليم يعني ببساطة «أيَّ أمر يصدف أن تقرّه كلُّ أمّة»، فلا يكون أيُّ معنىً للقول إنَّ أُمّةً بعينها كانت أقرب إلى الصحّة في ما تُقِرّه من أيّة أمةٍ أخرى، ولا يكون كذلك أيضاً أيُّ معنىً للقول إنّه يمكن للعالم على الإطلاق أن يصير أفضل أو أسوأ على الصعيد الأخلاقيّ.

وهكذا أخلص إلى القول إنّه وإن كان الاختلاف بين مفاهيم الناس في ما يتعلّق بالسلوك اللائق يحملك غالباً على الظنّ بعدم وجود قانونِ سلوكٍ طبيعيّ حقيقيّ إطلاقاً، فإنَّ الأمور التي لا بدَّ لنا من التفكير فيها من جهة تلك الفروقات تُثبت العكس تماماً رغم كلّ شيء. إنّما أقول كلمة واحدة قبل الختام. لقد قابلتُ أشخاصاً يُضخّمون الفروقات، لأنّهم لم يميّزوا بين فوارق الأخلاقيّات وفوارق الاعتقادات بشأن الحقائق. فإنَّ رجلاً قال لي، مثلاً: «قبل ثلاث مئة سنة كان الناس في إنكلترا يُعدِمون الساحرات، فهل كان ذلك ما تدعوه قانون الطبيعة الإنسانيّة أو السلوك السويّ؟» ولكنَّ المؤكّد أنَّ سبب عدم إعدامنا نحن للساحرات هو كوننا لا نعتقد وجود ساحرات فعلاً. ولو كنّا نعتقد ذلك، لو كنّا حقّاً نحسب أنَّ هنالك قوماً طوّافين قد باعوا أنفسهم لإبليس فأتاهم قوّاتٍ خارقةً مقابل ذلك فمضَوا يقتلون جيرانهم أو يدفعونهم إلى الجنون أو يتسبّبون بسوء الأحوال الجوّيّة، لاتّفقنا كلّنا حتماً على أنَّ أولئك الدجّالين الأردياء يستحقّون عقوبة الإعدام، إن كان ثمّة مَن يستحقّها! وليس ها هنا اختلاف في المبدإ الخُلقيّ، بل إنّما الاختلاف هو حول واقع الحال. ولربّما كان في عدم تصديق وجود الساحرات تقدُّمٌ عظيم في مجال المعرفة. إنّما ليس من تقدُّم خُلقيّ في عدم إعدامهنّ عندما تعتقد فعلاً أنهنَّ موجودات. فأنت لا تدعو إنساناً «رقيق القلب» لأنّه كفَّ عن نصب أفخاخٍ للفئران إذا كان قد فعل ذلك لأنّه كان يعتقد جازماً أنْ ليس في بيته فئران!

٣

حقيقة القانون

أعود الآن إلى ما قلتُه في ختام الفصل الأوّل، من أنَّ الجنس البشريَّ ينفرد بأمرين غريبين. أوّلهما أنَّ البشر تنتابهم الفكرة المختصَّة بنوع من السلوك ينبغي لهم أن يمارسوه، وهو ما يمكنك أن تُسمِّيَه العدل أو الإنصاف، أو سلامة التصرُّف، أو الأخلاقيَّات، أو قانون الطبيعة. والثاني أنَّهم في الواقع لا يعملون بمقتضى ذلك. وربَّما يتساءل بعضٌ منكم عن سبب نعت هذين الأمرين بأنَّهما غريبان. فقد يبدو ذلك لكم أنَّه الأمر الأكثر طبعيَّةً في الدنيا. وربَّما خُيِّل إليكم على الخصوص أنَّني كنت أَمْيلُ إلى القسوة في حكمي على الجنس البشريّ. ثُمَّ إنكم قد تقولون إنَّ ما أدعوه نقضاً لقانون الطبيعة بشأن الصواب والخطأ لا يعني سوى أنَّ الناس غير كاملين. ولأيِّ سبب في الدنيا ينبغي لي أن أتوقَّع منهم أن يكونوا كاملين؟ كان من شأن ذلك أن يكون ردّاً جيِّداً لو أنَّ ما كنتُ أسعى للقيام به كان تعيين المقدار الصحيح من اللَّوم الواجب علينا لعدم تصرُّفنا كما نتوقَّع من الغير أن يتصرَّفوا. ولكنْ ليس هذا شأني على الإطلاق. فأنا غير مَعنيٍّ الآن باللوم؛ بل إنَّما أسعى لتبيُّن الحقّ. ومن وجهة النظر هذه، فإنَّ فكرة كون أمرٍ ما غير كامل، أي عدم كونه كما ينبغي أن يكون، فكرةٌ تترتَّب عليها بحدِّ ذاتها عواقب معيَّنة.

فإذا أخذتَ مثلاً شيئاً مثل الحجر أو الشجرة، تجد أنَّه هو ما هو، ولا يبدو أيُّ معنىً لقولك إنَّه كان ينبغي أن يكون غير ذلك. يمكنك طبعاً أن تقول عن حجرٍ ما إنَّه «ذو شكلٍ غير صحيح» إذا أردتَ أن تستخدمه لسدِّ ثغرة معيَّنة؛ أو عن شجرةٍ ما إنَّها رديئةٌ لأنَّها لا تُعطيك مقدار الظلِّ الذي تَنشده. ولكنَّ كلَّ ما تعنيه أنَّ ذلك الحجر أو تلك الشجرة لا يصدف أنَّهما ملائمان لغرضٍ ما من أغراضك. فأنت

لا تلومهما على ذلك، إلاّ إذا كنتَ مازحاً. وفي علمك حقّاً أنَّ الشجرة، بوجود الطقس والتربة عينهما، ما كان ممكناً أن تكون مختلفة قطعاً. فتلك التي ندعوها نحن شجرة «رديئة» من وجهة نظرنا، إنّما هي خاضعة لقوانين طبيعتها، شأنُها شأن الشجرة «الجيِّدة» تماماً.

والآن، هل لاحظتَ ما يترتَّب على ذلك؟ يترتَّب عليه أنَّ ما ندعوه عادةً قوانين الطبيعة، كطريقة تأثير الطقس في شجرةٍ مثلاً، ربّما لا يكون قوانين بالمعنى الحصريّ، بل بمعنىً مجازيّ فقط. وعندما تقول إنَّ الحجارة الساقطة تخضع دائماً لقانون الجاذبيَّة، أفلا يكونُ هذا شبيهاً إلى حدٍّ بعيد بقولك إنَّ ذلك القانون يعني فقط «ما تفعله الحجارة دائماً»؟ فأنتَ لا تعتقد فعلاً أنَّ الحجر عند إفلاتنا له يتذكَّر فجأةً أنَّه تحتَ أوامر بأن يسقط إلى الأرض. ولكنَّك إنّما تعني بالحقيقة أنّه يسقط فعلاً. بعبارةٍ أُخرى، لا يمكنك أن تتيقَّن بوجود شيءٍ ما، فضلاً عن الحقائق الواقعة ذاتها، قانونٍ ما بشأن ما ينبغي أن يحدث، بمعزلٍ عمّا يحدث فعلاً. فقوانين الطبيعة، كما تنطبق على الحجارة أو الشجر، قد تعني فقط «ما تفعله الطبيعة في الواقع». ولكنْ عندما تتوجَّه إلى قانون الطبيعة الإنسانيَّة، قانون السلوك الحميد، تجده قضيَّة مختلفة. فذلك القانون، بكلِّ يقين، لا يعني «ما تفعله الكائنات البشريَّة فعلاً»؛ لأنَّه كما سبق أن قلتُ: إن كثيرين من البشر لا يخضعون لهذا القانون أبداً، وليس أحدٌ منهم يخضع له خضوعاً كلّيّاً. إنَّ قانون الجاذبيَّة يُفيدك بما تفعله الحجارة إذا أسقطتَها. ولكنَّ قانون الطبيعة الإنسانية يقول لك ما ينبغي للبشر أن يفعلوه، إلاّ أنَّهم لا يفعلونه. بكلماتٍ أخرى، عندما تكون بصدد التعامُل مع كائناتٍ بشريَّة، يتدخَّل شيءٌ آخر فضلاً عن الحقائق الواقعة وبمعزل عنها. فلديك الوقائع (كيف يتصرَّف الناس فعلاً)، ولديك أيضاً شيءٌ آخر (كيف كان ينبغي لهم أن يتصرَّفوا). وفي باقي الكون كلِّه، لا داعيَ لوجود ما يتعدّى الوقائع. فالإلكترونات والجُزَيئات تتصرَّف بطريقة معيَّنة، وتترتَّب على ذلك نتائج معيَّنة، وقد تكون تلك هي القصَّةَ كلَّها. (لا أعتقد أن تلك هي القصة كلها، كما سترى لاحقاً. أعني أنّه في ما يتعلَّق بموضوعنا، كما برهنّا إلى الآن، يمكن أن تكون.) غير أنَّ البشر يتصرَّفون بطريقةٍ معيَّنة؛ إنّما ليست هذه هي القصَّة كلَّها، لأنَّك كلَّ حين تعلم أنّه ينبغي أن يتصرَّفوا بطريقة أُخرى.

وفي الواقع أنَّ هذا الأمر غريبٌ للغاية بحيث يُغرى المرءُ بأن يحاول تفسيره في سبيل التخلُّص منه. فقد نحاول مثلاً أن نبيِّن أنَّك عندما تقول عن إنسان إنَّه كان ينبغي له ألاَّ يتصرَّف مثلما يتصرَّف فإنَّما تعني ما تعنيه تماماً حين تقول عن حجر إنَّه ذو شكلٍ غَلَط، أي أنَّ ما يفعله ذلك الإنسان يصدف أن يكون غير ملائم لك. غير أنَّ ذلك غيرُ صحيح تماماً. فإنَّ رجلاً يحتلُّ المقعد القريب من النافذة في القطار لأنَّه وصل إليه قبلي، ورجلاً انسلَّ إليه فيما أنا دائرٌ ظهري وأزاح حقيبتي ولكنني منعته، كلاهما يتصرَّفان تصرُّفاً لا يلائمني على السواء. إلاَّ أنَّني ألوم الرجل الثاني ولا ألوم الأوَّل. فأنا لا أغضب على رجل يُزاحِمني بالصدفة... إلاَّ هُنيهةً على الأرجح قبل أن يعود إليَّ رُشدي. ولكنَّني أغضب على رجُلٍ يحاول أن يزاحمني متعمِّداً حتى لو لم يوفَّق. غير أنَّ الأوَّل آذاني، على خلاف الثاني. وأحياناً لا يكون التصرُّف الذي أدعوه سيِّئاً مزعجاً لي إطلاقاً، بل على العكس تماماً. ففي الحرب، قد يجني كِلا الجانبيَن نفعاً جزيلاً من وجود خائنٍ في الجانب الآخر. ولكنْ رُغم استخدامهما له وإعطائه أُجرته، يعدَّانِه آفةً بشريَّة. وهكذا لا يمكنك أن تقول إنَّ ما ندعوه سلوكاً شريفاً لدى الآخرين هو ببساطةٍ ذلك الذي يصدف أن يكون نافعاً لنا. وفي ما خصَّ السلوك الشريف لدينا نحن، أظنُّ من الواضح تماماً أنَّه لا يعني السلوك المُجدي أو المُجزي. إنَّه يعني أمُوراً مثل القناعة بجنيهٍ واحد حين يمكنك أن تُحصِّل خمسة، وتأدية امتحانك المدرسيَّ باستقامة حين يسهل عليك أن تغشّ، وترك امرأةٍ وشأنها حين يتيسَّر لك أن تُواقِعها بالحرام، والبقاء في أمكنة خطرة حين يُتاح لك الذهاب إلى مكانٍ آمن، والوفاء بوعودٍ تؤثِر ألاَّ تفيَ بها، وقول الحقِّ حين يجعلك تبدو مغفَّلاً.

يقول بعض الناس إنَّه رغم كون السلوك اللائق لا يعني ما ينفع كلَّ شخص بمفرده في لحظة معيَّنة، فهو يعني ما ينفع الجنس البشريَّ ككُل، وإنَّه تالياً لا يحيط به أيُّ لغز أو غموض. وبعد، أفليس لدى الكائنات البشريَّة حسٌّ ما، إذ إنَّهم يدركون أنَّك لا تستطيع أن تحوز أيَّة سلامة أو سعادة حقيقيَّة إلاَّ في مجتمع يتصرَّف فيه الجميع بإنصاف، ولأنَّهم يدركون ذلك فهم يحاولون ان يسلكوا بلياقة؟ والآن، صحيحٌ بالطبع أنَّ السلامة والسعادة لا يمكن أن تأتيا إلاَّ من أفرادٍ وفئاتٍ وأُمَم يُعامِل بعضُها بعضاً بالاستقامة والعدل والمودَّة. فهذه حقيقةٌ من أهمِّ الحقائق في

العالم. ولكنَّها كتفسيرٍ لسبب شعورنا المألوف من جهة الصواب والخطأ لا تُصيب الهدف. فإذا سألنا: «لماذا ينبغي لي أن أكون غير أنانيّ؟» وأجبتم: «لأنَّ هذا خيرٌ للمجتمع»، يمكن عندئذٍ أن نسأل: «ولماذا ينبغي أن يَعنيني ما هو خير للمجتمع إلاَّ حين يصدف أنَّه ينفعني أنا شخصياً؟» وعندئذٍ تُضطرُّون إلى القول: «لأنَّه ينبغي لك أن تكون غير أنانيّ!» وهذا إنَّما يُرجِعنا إلى النقطة التي منها انطلقنا. إنّكم تقولون ما هو صحيح، ولكنّكم لا تتقدَّمون إلى أبعدَ من ذلك أبداً. فإذا سأل سائل عن الغرض من لعب كرة القدم، لا يكون كثيرٌ من الصحَّة في القول: «لأجل تسجيل أهداف،» لأنَّ محاولة تسجيل الأهداف هي اللعبة بعينها وليست عِلَّة اللعبة، ويكون مؤدَّى قولك بالحقيقة أنَّ كرة القدم هي كرة القدم: وهذا أمرٌ صحيح، إلاَّ أنَّه لا يستحقُّ أن يُقال. وبالطريقة عينها، إذا سأل سائلٌ عن مغزى السلوك بلياقة، فغير مُفيدٍ أن تُجيب: «في سبيل منفعة المجتمع،» لأنَّ محاولة نفع المجتمع (أي الناس الآخرين) هي أحد مقوِّمات السلوك القويم. فيكون كلُّ ما أنت قائلُه بالحقيقة أنَّ السلوك القويم هو السلوك القويم. وهذا يعادِل العبارة: «ينبغي للناس أن يكونوا غير أنانيّين.»

وهنا أنا أتوقَّف فعلاً. ينبغي للناس أن يكونوا غير أنانيّين، وأن يكونوا مُنصِفين. ليس أنَّ الناس غير أنانيّين، ولا أنَّهم يحبُّون أن يكونوا غير أنانيّين، بل أنَّه ينبغي لهم أن يكونوا كذلك. فالقانون الخُلقيّ، أو قانون الطبيعة الإنسانيَّة، ليس مجرَّد حقيقة واقعة بشأن السلوك البشريّ، مثله مثل قانون الجاذبيَّة، أو ربَّما مجرَّد حقيقة تخصُّ كيفيَّة تصرُّف الأشياء الثقيلة. ومن جهةٍ أخرى، ليس هو مجرّد تخيُّل، لأنّنا لا نستطيع التخلُّص من هذا المفهوم. ولو تخلَّصنا منه، لتقلَّص معظم ما نقوله ونفكِّر فيه بشأن الناس وصار عديم المعنى. وليس هو مجرَّد تعبير عن الكيفيَّة التي ينبغي لنا أن نريد من الناس التصرُّف بها لأجل خيرنا وملاءَمتنا، لأنَّ السلوك الذي ندعوه سيّئاً أو مُجحِفاً ليس هو تماماً السلوك الذي نجده غير ملائم، بل إنَّه قد يكون عكس ذلك أيضاً. وتالياً، فإنَّ قاعدة الصواب والخطإ هذه، أو قانون الطبيعة الإنسانيَّة، أو ما شئتَ أن تسمِّيه، لا بدَّ أن يكون، بطريقةٍ أو بأُخرى، شيئاً حقيقيّاً: شيئاً موجوداً بالفعل، لا شيئاً صنعناه نحنُ أنفسُنا. ومع ذلك فليس هو حقيقة واقعة بمعنى الكلمة المألوف، أي مثلما سلوكُنا الفعليُّ حقيقة واقعة. ويكاد يبدو

كما لو أنّنا سنُضطرُّ إلى الاعتراف بوجود أكثر من نوعٍ حقيقةٍ واحد، وأنَّه في هذه الحالة بعينها يوجد شيءٌ ما، فضلاً عن الوقائع المعهودَة في ما يتعلّق بسلوك البشر وبمعزلٍ عنها، إلاَّ أنَّه مع ذلك حقيقيٌّ بكلّ تأكيد، ألا وهو قانونٌ حقيقيٌّ لم يصنعه أيٌّ منّا ولكنّنا نجده مُلِحّاً علينا.

٤

ما يكمن وراء القانون

لنُلخِّص ما قد توصَّلنا إليه حتّى الآن. في حالة الأحجار والأشجار وما يشابهها، ربَّما لا يكون ما ندعوه قوانين الطبيعة مجرَّد أسلوب في الكلام. فعندما نقول إنَّ الطبيعة تحكمها قوانينُ معيَّنة فقد لا يعني ذلك سوى أنَّ الطبيعة تتصرَّف فعلاً، في الواقع، بطريقة معيَّنة. وعليه، فما ندعوه قوانين ربَّما لا يكون أمراً حقيقيّاً، أو أمراً مستقلاً عن الحقائق الفعليَّة التي نلاحظها وقائماً بذاته. لكننا رأينا أن هذا لا ينطبق على الإنسان. فلا بدَّ أن يكون قانون الطبيعة الإنسانيَّة، أو قانون الصواب والخطأ، شيئاً مختلفاً ومستقلاً عن الحقائق الفعليَّة المتعلِّقة بالسلوك البشريّ. وفي هذه الحالة، فضلاً عن الحقائق الواقعة، لدينا شيءٌ آخر: قانونٌ حقيقيٌّ لم نخترعه نحن، ونعلم أنَّ علينا الخضوعَ له.

والآن أُريد أن ننظر في ما يقوله ذلك لنا عن العالم الذي نعيش فيه. فمنذ صار البشر قادرين أن يفكروا، استمروا يتساءلون ماهية هذا الكون حقّاً وكيف خرَجَ إلى الوجود. وقد انقسم الناس كلُّهم تقريباً بين رأيين اعتنقوهما. فأوّلاً، هنالك ما يُسمَّى الرأي المادّيّ. ويعتقد معتنقو هذا الرأي أنَّ المادَّة والفضاء انوجدا صدفةً فحسْب، وأنَّهما تواجدا دائماً، ولا أحد يعرف لماذا؛ وأنَّ المادَّة إذ تصرَّفت بطرقٍ معيَّنة ثابتة، اتَّفق أنَّها بنوع من المصادفة أنتجت مخلوقاتٍ نظيرنا نحن قادرة على التفكير. فبمصادفةٍ واحدةٍ من ألف، ضرب شيءٌ ما شمسنا وجعلها تُنتج الكواكب. وبمصادفةٍ أُخرى من ألف، صدف أن وُجدت على واحدٍ من تلك الكواكب الموادُّ الكيماويَّة الضروريَّة للحياة والحرارةُ المُلائمة، وهكذا دبَّتِ الحياة في بعض المادَّة على هذه الأرض. ثمَّ بسلسة طويلة جدّاً من المصادفات تطوَّرت

الكائنات الحيَّة إلى مخلوقات مثلنا. أمّا الرأيُ الآخر فهو الرأي الدينيّ، وبحسَبه أنَّ ما هو وراء الكون إنَّما هو أشبه بعقلٍ منه بأيِّ شيءٍ آخر نعرفه. معنى ذلك أنّه كائنٌ مدرك واعٍ، وله مقاصد، ويُفضِّل أمراً على أمر. وعلى أساس هذه الرؤية، صنع هو الكونَ، جزئيّاً لأغراضٍ لا نعرفها، ولكنْ جزئيّاً، على أيّة حال، كي يُنتج خلائق تشبهه، أعني أنّها تشبهه من حيث حيازتُها عقولاً. رجاءً، لا تحسبْ أنَّ واحداً من هذين الرأيينِ تمَّ اعتناقُه منذ زمانٍ طويل ثُمَّ حلَّ الآخر محلّه تدريجيّاً. فحيثما تواجد ناسٌ مفكّرون، كان كِلا الرأيين مَوجودين. ولاحظْ أيضاً هذا: أنّك لا تستطيع أن تتبيَّن أيَّ الرأيين هو الصائب بواسطة العِلم بمعناه المألوف. فالعلم يشتغل بالاختبارات، وهو يراقب الأشياء كيف تتصرَّف. وكلُّ تصريح علميّ، في نهاية المطاف، مهما بدا معقّداً، يعني بالحقيقة شيئاً مثل هذا: «لقد وجَّهت التِلسكوب نحو الجزء كذا وكذا من الفضاء، في الساعة الثانية والثلث بعد نصف الليل، في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير، ورأيتُ كذا وكذا،» أو «وضعتُ قليلاً من هذه المادَّة في إناء، وغلَيتُه حتّى درجة الحرارة كذا وكذا ففعل كذا وكذا.» لا تظنُّوا أنّي أقول أيَّ شيءٍ ضدَّ العلم، فأنا إنَّما أقول ما هي وظيفة العلم. وكلَّما ازداد المرءُ علماً، قَوِيت في اعتقادي موافقتُه لي على أنَّ هذه هي وظيفة العلم، وهي فعلاً وظيفة نافعة كثيراً وضروريّة جدّاً. أمّا لماذا يخرج إلى الوجود أيُّ شيء من الموجودات، وهل يوجد وراء الأشياء التي يلاحظها العلم شيء، شيءٌ ما من نوع مختلف، فليس هذا سؤالاً علميّاً. وإن كان وراءَ الكون «كائنٌ ما»، فعندئذٍ ينبغي إمَّا أن يبقى مجهولاً لدى الإنسان كلّيّاً وإمَّا أن يُعلِن ذاته بطريقةٍ من الطرق مختلفة. ثمَّ إنَّ التصريح بأنَّ كائناً كهذا موجود، والتصريح بأنَّ كائناً كهذا غير موجود، كلاهما ليس تصريحاً يمكن أن يُصدِره العلم. والعلماء الحقيقيُّون عادةً لا تصدر عنهم تصريحات من هذا النوع. إنَّما هم الصحافيُّون وكُتّاب الروايات الشعبيُّون الذينَ عادةً مَن يلتقطون نثريّاتٍ قليلةً من العلم غير المدروس مِن بطون الكتب ثُمَّ يبادرون إلى إطلاق تصريحاتٍ كهذه. وبعد، أفليست هذه مسألةَ فِطرةٍ سليمة؟ وعلى فرْضِ أنَّ العلم صار ذات يوم كاملاً بحيث بات يعلم كلَّ أمرٍ بمفرده من أمور الكون كلّه، أفليس واضحاً تماماً أنّه لن يطرأ أيُّ تغيير البتَّة على هذه الأسئلة: «لماذا الكون موجود؟»، «لماذا يدوم على حاله؟»، «ألَهُ أيُّ معنىً؟»

وكان من شأن الوضع أن يكون موئساً تماماً لولا هذا الأمر: أنَّ في الكون بكامله شيئاً واحداً فقط لا غير نعرف عنه أكثر ممّا يمكننا أن نتعلّمه من الملاحظة الخارجيّة، وذلك الشيء الواحد هو الإنسان. ونحن لا نلاحظ البشر فحسْب، بل إنّنا بشر أيضاً. ففي هذه الحالة لدينا معلوماتٌ داخليّة، إذا جاز التعبير، لكوننا في قلب المعرفة. وبسبب ذلك نعلم أنَّ البشر يجدون أنفسهم تحت قانونٍ خُلقيٍّ أو أدبيّ، لم يصنعوه هم، ولا يمكنهم نسيانه تماماً حتّى حين يحاولون ذلك، ويعلمون أنّه ينبغي لهم أن يخضعوا له. ولنلاحظِ النقطة التالية: إنَّ أيَّ شخصٍ يدرس الإنسان من خارج، مثلما ندرس الكهرباء أو الملفوف، وهو لا يعرف لغتنا ولا يقدر تالياً أن يحصل منّا على أيّة معرفة داخليّة، بل يلاحظ فقط ما نقوم به، لن يحصل البتّة على أدنى بيّنة على وجود هذا القانون الخُلقيّ لدينا. وأنّى له ذلك فيما تُبيِّن له ملاحظاتُه ما نفعله فقط، والقانونُ الخُلقيّ يدور حول ما ينبغي لنا أن نفعله؟ وعلى المنوال عينه، لو كان في حال الحجارة أو الطقس أيُّ شيءٍ مستقلٌّ عن الحقائق الملحوظة أو وراءها، لما كان في وسعنا قطعاً أن نرجو اكتشافه بدراسة تلك الأشياء من خارج.

من ثمَّ كان لبُّ المسألة شبيهاً بهذا: أنّنا نريد أن نعرف عن الكون أهو موجودٌ بالمصادفة على ما هو عليه فحسب، أم وراءه قوّةٌ تجعله على ما هو عليه؟ وبما أنَّ تلك القوّة، في حال وجودها، لن تكون واحدةً من الوقائع الملحوظة بل حقيقة توجِد تلك الوقائع، فلا يمكن عموماً لمجرّدِ الملاحظة أن تهتديَ إليها. ولكنَّ ثمّة حالةً واحدة فقط يمكننا فيها أن نعرف بوجود شيءٍ إضافيٍّ أو بعدم وجوده، ألا وهي حالتنا نحن البشر. وفي هذه الحالة يتبيَّن لنا وجود شيءٍ نظير ذلك. أو لنعبِّر عنِ القضيّة بأسلوبٍ معاكِس: إذا كان خارجَ الكون قوّةٌ ضابطة، فلا يمكن أن تُظهِر لنا ذاتها كواحدةٍ من الحقائق الواقعة داخلَ الكون، كما لا يقدر مهندسُ منزلٍ ما أن يكون في الواقع جداراً أو دَرَجاً أو موقداً في ذلك المنزل. فالطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن نتوقّع من تلك القوّة إظهار ذاتها ستكون داخلَ أنفسنا، بصورةِ سُلطة مؤثّرة أو وصيّة ثابتة تحاول أن تحملنا على التصرُّف بطريقة معيَّنة. وذلك تماماً هو ما نجده داخل أنفسنا. أفليس مؤكّداً أنَّ هذا الأمر ينبغي أن يُثير تساؤلاتنا؟ في الحالة الوحيدة التي فيها يمكننا أن نحصل على جواب يتبيَّن أنَّ الجواب هو «بلى». أمّا

في الحالات الأُخرى، حيث لا تحصل على جواب، فتدرك سبب عدم حصولك عليه. هبْ شخصاً سألني عندما أرى رجلاً لابساً زيّاً أزرق يسير في الشارع ويترك عند باب كلّ بيت ظرفَ ورقٍ صغيراً: «لماذا تفترِض أنَّ تلك الظروف تحتوي على رسائل؟» فيكون جوابي: «لأنَّه عندما يترك لي هذا الرجل ظرفاً صغيراً مشابهاً، يكون محتوياً على رسالة بالفعل!» وإذا اعترض بعدئذٍ قائلاً: «ولكنّك لم ترَ قطُّ كلَّ تلك الرسائل التي تحسب أنَّ الناس يتلقَّونها»، فلا بدَّ أن أقول له: «طبعاً لم أرَها، ولكنْ لا ينبغي لي أن أتوقَّع رؤيتها، لأنَّها غير موجَّهة إليَّ. فأنا أُفسِّر الظروف التي لا يحقُّ لي أن أفتحها من خلال تلك التي يحقُّ لي فتحُها.» والأمر نفسه ينطبق على هذه المسألة. فالظَّرف الوحيد المسموح لي بأن أفتحه هو الإنسان. وحين أفعل ذلك، ولا سيَّما حين أفتح ذلك الإنسان المخصوص المدعوَّ أنا، أجد أنَّني غير موجود مستقلاً بذاتي، وأنَّني تحت قانونٍ ما، وأنَّ شخصاً ما أو شيئاً ما يريد منّي أن أتصرَّف بطريقة معيَّنة. ولستُ أحسب بالطبع أنّي إذا استطعتُ بلوغَ داخلِ حجر أو شجرة فسأجد الأمر عينه تماماً، مثلما لا أحسب أنَّ جميع الناس الآخرين في الشارع يتلقَّون الرسائل عينها التي أتلقّاها أنا. ينبغي لي مثلاً أن أتوقَّع الاهتداء إلى أنَّ على الحجر أن يخضع لقانون الجاذبيَّة، وأنَّه بينما يكتفي باعثُ الرسائل بأن يطلب منّي إطاعة قانون طبيعتي الإنسانيَّة، يُجبِر الحجر على إطاعة قوانين طبيعته الحجريَّة. ولكنْ ينبغي لي أن أتوقَّع الاهتداءَ إلى أنَّ وراء الحقائق الواقعة، إن صحَّ التعبير، مُرسِلاً للرسائل في كِلتا الحالتين: قوَّةً أو مُدبِّراً أو مُرشِداً.

لا تتصوَّرْ أنَّني أسيرُ أسرعَ ممّا أنا سائرٌ فعلاً. فأنا لم أصل بعدُ إلى نطاق مئة ميل بالقرب من إله اللاهوت المسيحيّ، بل كلُّ ما وصلتُ إليه الآن شيءٌ ما يُدبِّر الكون ويظهر فيَّ بصورة قانون يحثُّني على فعل الصواب ويجعلني أشعر بالمسؤوليَّة والقلق حين أفعل الخطأ. وأعتقد أنَّ علينا أن نفترض أنَّه أشبه بعقلٍ منه بأيِّ شيءٍ آخر نعرفه: لأنَّ الأمر الوحيد الآخر الذي نعرفه، رغم كلِّ شيء، إنَّما هو المادَّة، وأنت لا تكاد تتصوَّر قطعةً من المادَّة مُصدِرةً للتوجيهات! ولكنْ بالطبع لا داعيَ لأن يكون ذلك الشيء كثير الشبه بعقل، ولا ضئيل الشبه بشخص. وسنرى في الفصل التالي هل يمكننا أن نهتدي إلى المزيد بشأنه. إنَّما لا بدَّ من كلمة تحذير. لقد حفلت المئة سنة الأخيرة بمقدارٍ كبير من كلام المداهنة أو الاسترضاء

عن الله. فليس هذا مما أُقدِّمه في هذا الكتاب. وفي وسعك أن تصرف نظرك عن ذلك كلّه.

ملاحظة: توخّياً لإبقاء هذا الجزء قصيراً على نحوٍ كافٍ عند إذاعته على الهواء، لم أذكر سوى الرأي المادّيّ والرأي الدينيّ. ولكنْ تكميلاً للموضوع، ينبغي لي أن أذكر الرأي الوسيط المدعوّ فلسفة قوّة الحياة (Lif-Force Philosophy)، أو التطوُّر الخلاّق (Creative Evolution)، أو التطوُّر الطبيعي (Emergent Evolution). وأذكى الشروح لهذا الرأي وردت في آثار برنارد شو (Bernard Shotw)؛ أمّا أعمقها فقد تضمّنتها آثار برغسون (Bergson). ويقول معتنقو هذا الرأي إنّ التحوُّلات الصغيرة التي بها «تطوَّرت» الحياة على كوكبنا هذا من أدنى أشكالها إلى الإنسان لم تكن من جرّاء الصدفة، بل بفعل «كفاح» قوّةِ الحياة أو «غائيتها». فحين يقول قوم هذا القول، يجب أن نسألهم: أيقصدون بقوّة الحياة شيئاً ذا عقل، أم لا؟ فإذا كان جوابهم «نعم»، فعندئذ يكون «العقل الموجد للحياة والموجِّه لها إلى الكمال» إلهاً بالحقيقة، ويكون رأيُهم من هذا القبيل موافقاً للرأي الدينيّ تماماً. وإذا كان جوابهم «لا»، فأيُّ معنىً عندئذٍ للقول إنّ شيئاً بلا عقل «يكافح» أو «تكون له غاية»؟ يبدو لي أنّ هذه ضربة قاضية لرأيهم. ومن الأسباب الكامنة وراء اعتبار كثيرين من الناس «التطوُّر الخلاّق» جذّاباً جدّاً أنّه يؤتي المرء كثيراً من الراحة العاطفيّة المقترنة بالإيمان بالله دون أيّة عاقبة من العواقب الأقلّ استساغةً. فعندما تشعر بأنّك في أحسنِ حال وتكون الشمس مشرقة، ولا تريد أن تصدّق أنّ الكون كلّه مجرّد رقصٍ آليّ للذرّات، يحسن بك أن تتمكّن من التفكير في هذه القوّة الغامضة العظيمة وهي تجري عبر العصور حاملةً إيّاك على متنها. أمّا إذا أردتَ أن تفعل شيئاً أقرب إلى الخفّة، فإنّ قوّة الحياة، لكونها مجرّد قوّة عمياء بلا أخلاق ولا عقل، لن تتدخّل في شؤونك أبداً على غرار ذلك الإله «المزعج» الذي تعلّمنا عنه لمّا كنّا صغاراً. إنّ قوّة الحياة أشبه بإلهٍ أليف: يمكنك أن تُشغّلها عندما تريد، ولكنّها لن تُزعِجك. وهكذا تحصل على مباهج الدِّين كلّها بغير أن تدفع شيئاً من الثمن! أتكون قوّة الحياة أعظم إنجاز شهده العالم حتّى الآن في مجال التفكير الرغبيّ، أو التفكير الذي تُمليه الأماني؟

٥

قلقنا مبرر

ختمتُ الفصل السابق بفكرةٍ مؤدّاها أنَّ القانون الخُلقيَّ يستدعي وجود شخصٍ ما أو شيءٍ ما خارجَ العالم المادّيّ يستهدفنا فعلاً. وتوقُّعي أنَّ بعضاً منكم، عند بلوغي تلك النقطة، شعروا بشيءٍ من الانزعاج. حتّى إنَّك ربَّما ظننتَ أنَّني لجأتُ إلى خُدعة تمويهيَّة: إذ حرصتُ على إلباس ثوب الفلسفة لِما تبيَّن أخيراً أنَّه «حديثٌ دينـيٌّ» آخر. ولعلَّك شعرت بأنَّك مستعدٌّ للإصغاء إليَّ ما دمتَ تعتقد أنَّ لديَّ شيئاً جديداً أقوله؛ ولكنْ إذا تبيَّن أنَّ ذلك لا يعدو كونَه بحثاً دينيّاً، حسناً، فإنَّ العالم سبق أن جرَّب ذلك، وليس في وسعك إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء. فإنْ كان هذا شعور أحدٍ منكم، أودُّ أن أقول له ثلاثة أمور.

أمَّا الأمر الأوَّل، فهو يخصُّ إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء. هل تظنُّ أنَّني أمزح إذا قلتُ إنَّ في وسعك تأخير الساعة فعلاً، وإنَّ ذلك غالباً ما يكون أحكم عمل تقوم به إذا كانت الساعة قد سبقت الوقت الصحيح؟ إلاَّ أنني أوثِر بالحريّ أن أتحوَّل عن فكرة الساعات برمَّتها. فجميعنا نريد التقدُّم. ولكنَّ التقدُّم يعني الاقتراب أكثرَ إلى المكان الذي تريد بلوغه. وإذا كنتَ قد سلكت مُنعطفاً خطأً، فإنَّ مُضيَّك قُدماً لا يُقرِّبك إلى مقصدك بتاتاً. وإن كنتَ على الطريق الخطأ، فالتقدُّم يعني أن تسلك مُنعطفاً معاكساً والعودة إلى الطريق الصحيح؛ وفي تلك الحالة يكون الإنسان الذي يعود راجعاً في أبكرِ وقتٍ هو الإنسان الأكثر تقدُّماً. ونحن جميعاً لمسنا ذلك عند إجراء العمليَّات الحسابيَّة. فعندما أكون قد باشرتُ عمليَّة جمْع بطريقة خاطئة، فكلَّما أسرعتُ في الاعتراف بالخطإ وفي الرجوع إلى الوراء لمباشرة العمليَّة من جديد، يكون تقدُّمي أسرع. وليس من تقدُّميَّة في المعاندة

ورفض الإقرار بالخطأ. وأعتقد أنّك إذا نظرتٍ إلى حالة العالم الراهنة، يتّضح لك إلى حدٍّ بعيد أنَّ البشريَّة ما زالت ترتكب خطأً كبيراً من نوعٍ ما. فنحن على الطريق الخطأ. وما دام هذا واقعَ الحال، فيجب علينا الرجوع عنه. وهكذا يكون الرجوع أسرع طريقة للمُضيّ إلى الأمام.

وأمّا الأمر الثاني، فهو أنّه لم يتبيّن بعدُ أنَّ كلامي قد تحوّل إلى «حديث دينيّ» تماماً. فنحن لم نصل بعدُ إلى الحديث عن إله أيِّ دينٍ فعليّ، ناهيك بإله الديانة المخصوصة المسمّاة «المسيحيَّة»، بل وصلنا فقط إلى تلمُّس شخصٍ ما، أو شيءٍ ما، يكمُنُ وراء القانون الخُلقيّ. ولسنا آخِذين هنا أيَّ شيء من الكتاب المقدَّس أو الكنائس، بل نحاول أن نرى ما يمكننا الاهتداء إليه عن هذا الشخص بسعينا الذاتيّ. وأريد أن أوضِح تماماً أنَّ ما نجده بسعينا الذاتيّ لَهو شيءٌ يسبّب لنا صدمة. والحقُّ أنَّ لدينا اثنتين من البيّنات بشأن ذلك الشخص، إحداهما الكون الذي صنعه. وإذا استخدمنا الكون بوصفه مفتاحنا الوحيد، فأعتقد أنّه ينبغي لنا عندئذٍ أن نستنتج أنّه فنّان عظيم (لأنَّ الكون مكان جميل جدّاً)، ولكنْ أيضاً أنّه عديم الرحمة تماماً وغير محبٍّ للإنسان (لأنَّ الكون مكان خطر جدّاً ومُروِّع كثيراً). أمّا البيّنة الثانية، فهي القانون الخُلقيّ الذي قد وضعه في أذهاننا. وهذه البيّنة أفضل من سابقتها، لأنّها معلوماتٌ داخليَّة. فأنت تستنتج عن الله من القانون الخُلقيّ أكثر ممّا تستنتجه عنه من الكون عموماً، تماماً كما تكتشف عن إنسانٍ ما بالإصغاء إلى حديثه أكثر ممّا تكتشفه عنه بالنظر إلى بيتٍ بناه. والآن، من هذه البيّنة الثانية نستنتج أن الكائن في ما وراء الكون مَعنيٌّ على نحو شديد بالسلوك الصائب: بالعدل والإنصاف واللاّأنانيّة والشجاعة والأمانة والاستقامة والصدق. ومن هذه الناحية، ينبغي لنا أن نقبل التوصيف الذي تفيدنا به المسيحيَّة وبعض الأديان الأُخرى من أنَّ الله «صالح». إنّما لا نُسرِعْ كثيراً هنا! فالقانون الخُلقيُّ لا يزوّدنا بأيّ أُسسٍ للاعتقاد أن الله «صالح» بمعنى كونه متساهلاً أو ليّناً أو مُسايراً. إذ ليس في القانون الخُلقيّ تساهُل من أيّ نوع، بل هو صُلبٌ كالصَّخر. فهو يقول لك أن تفعل ما هو مستقيم، ولا يبدو أنّه يهمُّه كم يكون ذلك مؤلماً أو خَطِراً أو عَسِراً. وإذا كان الله مثل القانون الخُلقيّ، فهو ليس ليّناً. وليس من نفع، في هذه المرحلة، أن تقول إن ما نعنيه بكون الله صالحاً (أو طيّباً) هو أنّه إلهٌ قادرٌ أن يغفر. فأنت تسير بسرعة زائدة.

إنَّ الشخص وحده قادرٌ أن يغفر. ونحن لم نصل بعدُ إلى الحديث عن إلهٍ ذي شخصيَّة، بل كلُّ ما وصلنا إليه هو تأكيد وجود قوَّةٍ ما، وراء القانون الخُلقيّ، أشبهَ بعقلٍ منها بأيِّ شيءٍ آخر. ولكن قد تكون ما تزال غير شبيهة بشخص إلى حدٍّ بعيد. فإذا كانت عقلاً محضاً لاشخصياً، فربَّما لا يكون أيُّ معنىً لطلبك منها أن تلتمس لك أعذاراً أو تعفو عنك، تماماً كما لا يكون أيُّ معنىً لطلبك من جدول الضرب أن يعفو عنك حين تغلط في حاصل العمليّات. فإنْ أخطأت في حاصل العمليات، فلا بدَّ لك من الحصول على الجواب الخطأ. وليس من جدوى أيضاً في قولك إنَّه إذا كان موجوداً إلهٌ من هذا النوع، صلاحٌ مُطلقٌ لاشخصيّ، فإنّك عندئذ لا تحبُّه ولن تزعج نفسك بشأنه: لأنَّ المشكلة هي أنَّ جزءاً منك هو في صفِّه وموافقٌ حقّاً على عدم رضاه بالجشع والاحتيال والاستغلال الموجودة عند البشر. قد تريد منه أن يُجريَ استثناءً في ما يتعلَّق بحالتك، أو أن يعفو عنك هذه المرَّة الواحدة، ولكنَّك تعلم في قرارة نفسك أنَّ مصدر تلك القوَّة الكامن وراء الكون لا يمكن أن يكون صالحاً إلاَّ إذا مقتَ، حقّاً ودون تغيير، ذلك النوع من السلوك السيِّئ. ومن الناحيـة الأُخرى، نعلم أنَّه إذا كان صلاحٌ مُطلقٌ موجوداً فلا بدَّ أن يكره مُعظمَ ما نفعله. هذه هي الورطة الرهيبة التي نحن فيها. وإن لم يكن صلاحٌ مُطلق متحكِّماً بالكون، فعندئذٍ تكون جميع مجهوداتنا معدومة الرجاء في نهاية المطاف. ولكنْ إذا كانت الحال عكس ذلك، فعندئذٍ نكون جاعلين أنفسنا أعداءً لذلك الصلاح كلَّ يوم، ومن غير المحتمل أبداً أن يكون وضعنا أفضل غداً، وهكذا تكون حالتنا عديمة الرجاء أيضاً. فلا يمكننا أن نستغني عن ذلك الصلاح، كما لا يمكننا أن نفيَ بما يقتضيه. من هنا كان الله عزاءنا الوحيد، كما أنَّه أيضاً مصدر قلقنا الأخطر: الأمرُ الذي نحتاج إليه أشدَّ الاحتياج، والأمرُ الذي نرغب في الاختباء منه أشدَّ الرغبة. فهو حليفُنا المحتَمل الوحيد، ونحن قد جعلنا أنفسنا أعداءً له. ويتحدَّث بعض الناس كما لو كان الوفاء بمطالب الصلاح المُطلق نُزهةً ممتعة. فعلى هؤلاء أن يُعيدوا النظر في موقفهم هذا. إنَّهم ما زالوا يلعبون بالدِّين لعباً. غير أنَّ الصلاح هو إمَّا مصدر أماننا العظيم وإمَّا مصدر خطرنا العظيم، تبعاً لطريقة استجابتنا له. ولطالما استجبنا له بالطريقة الخاطئة.

والآن حان دور الأمر الثالث. عندما آثرتُ بلوغ موضوعي الفعليِّ بهذه

الطريقة غير المباشرة، لم أكُن أحاول خداعكم بأيَّة خُدعة، بل كان لديَّ سببٌ آخر. وسببي هذا أنَّ المسيحيَّة تكون معقولةً ما لم تواجهوا نوع الحقائق التي دأبتُ في وصفها. فالمسيحيَّة تطلب من الناس أن يتوبوا وتَعِدهم بالغفران. وعليه، فهي لا تملك ما تقوله (على حدّ علمي) لأولئك الذين لا يعلمون أنَّهم قد فعلوا ما ينبغي أن يتوبوا عنه والذين لا يشعرون بأنهم يحتاجون إلى أيّ غفران. إنَّما بعد أن تكون قد أدركتَ وجودَ قانون خُلقيّ حقيقيّ، وقوَّةٍ عاقلةٍ وراء ذلك القانون، وأنَّك قد خالفتَ ذلك القانون ووضعتَ نفسك في موقع الخطأ تجاه تلك القوَّة، بعد هذا كلّه، وليس قبله ولو بلحظةٍ واحدة، تبدأ المسيحيَّة تتكلَّم إليك. فعندما تدرك أنَّك مريض، تُصغي فعلاً إلى الطبيب. وعندما تدرك جيِّداً أنَّ وضعنا مُوئسٌ إلى أبعد حدّ، فستبدأ بفهم ما يتحدَّث المسيحيُّون عنه. فهم يقدِّمون تفسيراً يُبيِّن كيف تورَّطنا في حالتنا الراهنة، حيث نكره الصلاح ونحبُّه في آنٍ معاً؛ كما يقدِّمون تفسيراً يُبيِّن كيف يُعقَل أن يكون الله هو ذلك العقلَ اللاشخصيَّ وراء القانون الخُلقيّ، ومع ذلك يكون شخصاً أيضاً. إنَّهم يقولون لك كيف تمَّ الوفاء بمطالب هذا القانون نيابةً عنَّا، فيما لا نقدر أنا وأنتم، أن نفيَ بها: كيف صار الله نفسُه إنساناً كي يُنقِذ الإنسان من عدم رضى الله. هذا خبر قديم، وإنْ شئت أن تغوص فيه فلا بدَّ أن تستشير أشخاصاً لديهم أكثر ممّا لديَّ من سلطةٍ تُخوِّلهم التكلُّم عنه. إنَّما كلُّ ما أنا فاعلُه هو حثُّ الناس على مواجهة الحقائق الواقعة، وفهم الأسئلة التي تقول المسيحيَّة بأنَّها تجيب عنها. وإنَّها لحقائق مروِّعة جدّاً. وأودُّ لو كان ممكناً أن أقول ما هو أكثر مقبوليَّةً أو استساغةً. غير أنَّه ينبغي لي أن أقول ما أعتقده صحيحاً. إنَّني بالطبع أُوافِق تماماً على أنَّ الديانة المسيحيَّة، في نهاية المطاف، هي أمرٌ ينطوي على عزاءٍ يفوق الوصف. إلاَّ أنَّها لا تبدأ بالعزاء والإراحة، بل تبدأ بالخيبة الهائلة التي ما زلتُ أصفها؛ ولا نفع البتَّة في محاولة التقدُّم إلى ذلك العزاء بغير معاناة تلك الخيبة أوّلاً. ففي الدِّين، كما في الحرب وكلّ شيء غيرها، تكون الراحة هي الأمر الذي لا يمكنك الحصول عليه بالتطلّع إليه. وإن تطلَّعتَ إلى الحقّ، فقد تجد الراحة في النهاية. ولكنْ إذا تطلَّعتَ إلى الراحة، فلن تجد لا الراحة ولا الحقّ، بل مجرَّد كلام معسول وتفكير رغبيّ في البداية، ويأساً رهيباً في النهاية. وفي الواقع أن معظمنا قد تعافَوا من التفكير الرغبيّ السابق للحرب الكبرى في ما يتعلّق

بالسياسة الدُوَليَّة. وقد آن الأوان لأنْ نتغلَّب أيضاً على التفكير الذي تُمليه الأماني في ما يتعلَّق بأمور الدين.

الباب الثاني

ما يؤمن به المسيحيون

I

المفاهيم المتزاحمة عن الله

لقد طُلب إليّ أن أُخبِركم بما يؤمن به المسيحيُّون. وسأبدأ بأن أُخبِركم بأمر لا ينبغي للمسيحيِّين أن يؤمنوا به: إذا كنتَ مسيحياً حقيقيّاً فلستَ مُضطرّاً لأنّ تؤمن بأنّ جميع الديانات الأُخرى هي على خطإ في كلّ شيء. أمّا إذا كنتَ مُلحداً، فينبغي لك فعلاً أن تؤمن بأنّ النقطة الجوهريّة في جميع ديانات العالم قاطبةً هي مجرَّد غلطة كُبرى. وإذا كنت مسيحيّاً بالحقّ، فلك أن تعتقد أنّ تلك الديانات كلّها، حتّى أكثرهنّ غرابةً، تتضمّن على الأقلّ أثراً من آثار الحقّ. فلمّا كنتُ ملحداً، كان عليّ أن أُحاوِل إقناع نفسي بأنّ معظم الجنس البشريّ طالما كانوا على خطإ في المسألة التي تعنيهم أكثر من سواها. ولكنْ لمّا صرتُ مسيحيّاً حقيقيّاً، تمكّنتُ من اعتناق رأيٍ أكثر تحرُّراً. غير أنّ كون المرء مسيحيّاً بالطبع، يعني فعلاً الظنّ بأنّه حيث تختلف المسيحيّة عن الديانات الأُخرى تكون هي على حقّ والأُخَر على خطأ. وكما في علم الحساب، فإنّ لكلّ حاصلٍ جواباً صحيحاً واحداً فقط، أمّا جميع الأجوبة الأُخرى فهي خطأ؛ ولكنّ بعضاً من الأجوبة الخاطئة أقربُ بكثيرٍ من سواها إلى الصواب.

إنّ أوّل انقسام كبير في البشرية هو توزُّعها بين أكثريّةٍ يؤمنون بإلهٍ أو آلهة من نوعٍ ما وأقليّةٍ لا يؤمنون. من هذه الناحية، تقف المسيحيّة في صفّ الأكثريّة، حيث اليونانيُّون والرومانيُّون القُدامى والبدائيُّون العصريُّون والرواقيُّون والأفلاطونيُّون والهندوس وغيرهم، على طرف نقيضٍ من الماديَّة الأوروبيَّة الغربيَّة الحديثة.

والآن أنتقلُ إلى ثاني انقسامٍ كبير. فأولئك الذين يؤمنون بالله يمكن أن يُقسَموا تبعاً لنوع الإله الذي يؤمنون به. وفي هذا الموضوع فكرتان مختلفتان جدّاً. إحداهما

هي الفكرة القائلة بأنّ الله خارج نطاق الخير والشّر. فنحن البشر ندعو شيئاً خيراً وشيئاً آخر شرّاً. ولكنّ بعض الناس يذهبون إلى أنّ هذه ما هي إلاّ وجهة نظرنا البشريَّة. ومن شأن هؤلاء أن يقولوا إنّك كلّما صرتَ أكثر حكمةً قلَّ نزوعك إلى تسمية شيءٍ ما خيراً أو شرّاً، وازددتَ إدراكاً أنّ كلَّ شيءٍ هو صالحٌ بطريقة ما ورديءٌ بطريقةٍ أخرى، وأنّ لا شيء يمكِن أن يكون مختلفاً. وبناءً على ذلك، يعتقد هؤلاء أنّه قبلَ أن تصل إلى أيّة نقطة قريبة من وجهة النظر الإلهيَّة يكون التمييز قد تلاشى كليّاً. فنحن نصف سرطاناً بأنّه رديء، كما يقولون، لأنّه يقتل إنساناً؛ ولكنْ لعلّك أيضاً تصف جرّاحاً بارعاً بأنّه رديء لأنّه «يقتل» السرطان! إنّ الأمر بمجمله يتوقّف على وجهة النظر. أمّا الفكرة الأخرى والمعاكسة فهي أنّ الله «صالح» و «بارّ» بكلّ تأكيد، إلهٌ له مواقف محدَّدة، يحبُّ المحبَّة ويكره الكراهية، ويريد منّا أن نتصرَّف بطريقةٍ معيَّنة وليس بطريقةٍ أُخرى. وأُولى هاتين الفكرتين (تلك التي تقول بأنّ الله خارج نطاق الخير والشرّ) تُدعى «وحدة الوجود» (Pantheism). وقدِ اعتنقها الفيلسوف البروسيُّ الكبير هيغل، والهندوس على حدّ فهمي لهم. أمّا الفكرة الأُخرى فيعتنقها اليهود والمسيحيون والمُسلِمون.

وإلى جانب هذا الفارق الكبير بين وحدة الوجود والفكرة المسيحيَّة عن الله، يسير عادةً فارقٌ آخر. فالقائلون بوحدة الوجود يعتقدون عادةً أنّ الله، إذا جاز التعبير، يُحيي الكون كما تُحيي أنت جسدك: أنّ الكون هو الله تقريباً، بحيث إنّه إذا لم يوجد الأوّل فلن يوجد الثاني، وكلُّ ما نجده في الكون هو جزءٌ من الله. أمّا فكرة الإيمان المسيحيّ فمختلفةٌ تماماً. فالمسيحيُّون يعتقدون أنّ الله أبدع الكون وصنعه، مثلما يرسم الإنسان لوحةً أو يؤلّف لحناً. والرسام ليس لوحة، ولا يموت إذا أُتلفت لوحته. لك أن تقول إنّه «وضع فيها كثيراً من ذاته»، ولكنّك إنّما تعني أنّ كلَّ ما فيها من جمال وفائدة قد نبع من رأسه. وليست مهارته في اللوحة تماماً مثلما هي في رأسه، ولا حتّى في يديه. ورجائي أنّك ترى كيف أنّ هذا الفارق بين القائلين بوحدة الوجود والمسيحيّين يترابط مع الفارق الآخر. فإن لم تنظر إلى الفرق والتفريق بين الخير والشرّ بمنتهى الجِدِّيَّة، فعندئذٍ يسهل القول إنّ أيَّ شيءٍ تجده في هذا العالم يكون جزءاً من الله. ولكنْ بالطبع إذا كنتَ تحسب أنّ بعضَ الأشياء سيّئةٌ فعلاً، وأنّ الله صالحٌ حقّاً، فعندئذٍ لا يمكنك أن تقول مثل ذلك

القول. ويجب عليك أن تؤمن بأنَّ الله منفصل عن العالم وأنَّ بعض الأُمور التي نراها فيه مُناقِضة لمشيئته. فإذ يواجه القائلُ بوحدة الوجود سرطاناً أو فقراً مدقعاً، يمكنه أن يقول: «لو تسنَّى لك فقط أن ترى ذلك من وجهة النظر الإلهيَّة، لأدركتَ أنَّ هذا أيضاً الله.» أمَّا المسيحيُّ فيُجيبه: «لا تتكلَّمْ بهراء سخيف يجعلك عرضةً لدينونة الله.» وذلك لأنَّ المسيحيَّة ديانةُ كفاح. فهي ترى أنَّ الله صنع العالم، وأنَّ المكان والزمان، والحرَّ والبرْد، وجميع الألوان والطعوم، وكلَّ حيوانٍ ونبات، هي أمورٌ «أبدعها الله من عقله» مثلما يؤلِّف المرءُ قصَّةً من القصص. ولكنَّ المسيحيَّة تعتقد أيضاً أنَّ أموراً عديدة كثيرة ممَّا صنعه الله في العالم قد فسدت، وأنَّ الله يُصِرُّ إصراراً مؤكَّداً مشدَّداً على أن نضع تلك الأُمور في نصابها من جديد.

ثُمَّ إنَّ ذلك يُثير سؤالاً كبيراً جدّاً: إذا كان إلهٌ صالح قد صنع العالم، فلماذا فسد هذا العالم؟ ومرَّت سنون كثيرة وأنا بكلِّ بساطة أرفض الإصغاء إلى أجوبة المسيحيِّين عن هذا السؤال، لأنَّني طالما أصررتُ على الشعور بهذا: «مهما كان ما تقولونه، ومهما كانت حججكم بارعة، أفليس أبسطَ وأسهلَ بكثيرٍ أن نقول إنَّ العالم لم تصنعه قوَّةٌ عاقلة من أيِّ نوع؟ أوليست جميع حججكم مجرَّد محاولة معقَّدة لتفادي ما ليس بحاجة إلى برهان؟» غير أنَّ ذلك أوقعني من جديد في صعوبةٍ أُخرى!

وقد كانت حجَّتي ضدَّ الله أنَّ العالم بدا في منتهى القساوة والظلم ولكنْ كيف حصلتُ على مفهوم الظُّلم والعدل هذا؟ إنَّ المرء لا يصف خطّاً بأنَّه غير مستقيم إلاَّ إذا كانت لديه فكرةٌ ما عن ماهيَّة الخطِّ المستقيم. فبماذا كنتُ أُقارن هذا العالم لمَّا دعوتُه غيرَ عادل؟ وإذا كان العرضُ كلُّه سيِّئاً وتافِهاً من الألف إلى الياء، إذا جاز التعبير، فلماذا ألفيتُ أنا نفسي في ردَّة فعلٍ عنيفةٍ هكذا تُجاهَه، مع أنَّ من المفترض أن أكون جزءاً من العرض؟ إنَّ الإنسان يشعر بالبَلَل عندما يسقط في الماء، لأنَّه ليس حيواناً مائيّاً؛ أما السمكة فما كانت لتشعر بالبَلَل. وكان من شأني طبعاً أن أتخلَّى عن مفهومي للعدل بمجمله بقولي إنَّه ليس شيئاً سوى فكرةٍ خاصَّة من بنات أفكاري. ولكنْ لو فعلتُ ذلك، لانهارت أيضاً حجَّتي ضدَّ الله، لأنَّ رُكن تلك الحجَّة كان القول بأنَّ العالم غيرُ عادل فعلاً، وليس فقط أنَّه لم يصدف أن يُرضيَ ميولي. وهكذا، ففي محاولتي إثبات عدم وجود الله تبيَّن لي في ذلك الفعل

ذاته حقيقة وجوده. لأن الإنسان بإنكاره وجود العدل، في فعلٍ ما، يُرغَم على التسليم بوجودٍ مفهوم للعدالة. وبناءً على ذلك يتبيَّن أنَّ الإلحادَ ساذجٌ جدّاً. ولو كان الكون كلُّه عديم المعنى، لَمَا كان قد تبيَّن لنا إطلاقاً أنَّه عديمُ المعنى. فالوضع شبيهٌ تماماً بهذا: لو لم يكُن في العالَم نور، ولم تكن في العالم مخلوقاتٌ لها أعيُن، لَمَا كنَّا نعرف قطعاً أنَّ الظلمة مسيطرة، ولكانت الظلمة كلمةً عديمة المعنى!

٢

الاجتياح

حقّاً إنَّ الإلحادَ ساذجٌ جدّاً. وسأُطلِعكم أيضاً على رأي آخر هو ساذج جدّاً كذلك، ألا وهو الرأي الذي أدعوه «المسيحيَّة الهيِّنة»- ذلك الرأي الذي يقول بكلّ بساطة إنَّ في السماء إلهاً طيِّباً وإنَّ كلَّ شيء بخير، تاركاً جميع العقائد الصعبة والرهيبة المتعلِّقة بالخطيَّة وجهنَّم وإبليس، وعنِ الفداء. فهاتان كلتاهما من الفلسفات الصبيانيَّة.

ليس من خيرٍ في طلبِ ديانةٍ بسيطة. وبعد إمعان النظر، ليست الأشياء الحقيقيَّة بسيطة. إنَّها تبدو بسيطة، ولكنَّها ليست كذلك. فالطاولة التي أنا جالسٌ إليها تبدو بسيطة. ولكنِ اسأل عالِماً أن يُبيِّن لك ممّا هي مصنوعةٌ فعلاً (كلّ ما يتعلّق بالذرّات وكيف ترتدُّ عنها الأمواج الضوئيَّة وتقع في عيني، وما تفعله بالعصب البصريّ، وما يفعله ذلك بدماغي) فتجدَ بالطبع أنَّ ما ندعوه «رؤية طاولة» يُدخِلك في ألغاز وتعقيدات لا تكاد تبلغ آخِرها. قولٌ طفولي الادعاء بأنَّ صلاة الولد تبدو بسيطة، وإذا قنعتَ بالتوقُّف هنا، فخيرٌ وحسن. أمَّا إذا لم تقنع بذلك، والعالمُ الحديث لا يقنع عادةً، وإذا أردتَ ان تمضي قُدماً وتسأل عمَّا يحدث فعلاً، فعليك عندئذٍ أن تكون على استعدادٍ لمواجهة أمرٍ صعب. وإن طلبنا شيئاً يتعدّى البساطة، يكون من السخف إذ ذاك أن نتشكّى من كون ذلك الشيء غيرَ بسيط.

غير أنّه غالباً ما ينتهج هذا النهجَ الساذجَ أشخاصٌ غيرُ سُذَّج، ولكنَّهم، بوعي أو بلا وعي، يريدون تدمير المسيحيَّة. هؤلاء القوم يقدِّمون صورةً من المسيحيَّة تناسب ابن ستِّ سنين، ويجعلون تلك الصورة المصطنعة غرضاً لهجومهم. فإذا حاولتَ أن تُفسِّر العقيدة المسيحيَّة كما يعتنقها حقّاً راشدٌ مُتنوِّر، يتذمَّرون عندئذٍ

من كونك تُدوِّخ رؤوسهم ومن كون الموضوع بجملته معقَّداً جدّاً، زاعمين أنّه إن كان الله موجوداً فهم متيقّنون بأنّه لا بدَّ أن يجعل «الدِّين» بسيطاً، لأنَّ البساطة جميلة، إلخ. إنَّما عليك أن تكون محترساً من هؤلاء القوم لأنّهم سيُبدِّلون مواقعهم كلَّ دقيقة ويضيِّعون وقتك فحسْب. وتنبَّهْ أيضاً إلى فكرتهم القائلة بأنْ لا بدَّ لله أن يجعل الدين بسيطاً، كما لو كان الدين شيئاً اخترعه الله، وليس إعلاناً منه لنا لحقائق معيَّنة راسخة تتعلَّق بطبيعته تعالى.

لكنَّ الحقيقة، فضلاً عن كونها معقَّدة، تبدو في العادة غريبةً، حسب خبرتي. فهي ليست مصقولة، ولا بديهيَّة، ولا هي ما تتوقَّعه أنت. مثلاً، لمَّا أدركتَ أنَّ الأرض والكواكب الأخرى تدور كلُّها حول الشمس، كان ينبغي لك على نحوٍ طبيعيٍّ أن تتوقَّع أنَّ جميع الكواكب صُنِعت بحيث تكون متماثلة: كأن تكون كلُّها على مسافاتٍ متساوية في ما بينها، أو على مسافاتٍ تتزايد باطِّراد، أو تكون كلُّها ذات حجم واحد، وإلاَّ فهي تكبر أو تصغر كلَّما ابتعدتَ عن الشمس. ولكنّك بالحقيقة لاَ تجد نسقاً أو منطقاً (يمكننا أن نراه) في ما يتعلَّق بحجم الكواكب أو بالمسافات بينها. ثمَّ إنَّ لبعضها قمراً واحداً، ولأحدها أربعةُ أقمار، ولآخر قمران، وليس لبعضها أيُّ قمر، ولواحدٍ منها حلقة حواليه.

ففي الواقع أنَّ الحقيقة شيءٌ ما كان ممكناً أن تحزره. وهنا سببٌ من الأسباب التي تدفعني إلى الإيمان بالمسيحيَّة. فهي ديانة لم يكن ممكناً أن تحزرها. ولو أنّها قدَّمت إلينا تماماً ذلك الكون الذي طالما توقَّعنا نوعه، لانبغى لي أن أشعر بأنَّها من اختراعنا. ولكنَّها بالحقيقة ليست ذلك الشيءَ الذي كان من شأن أيِّ امرىءٍ أن يخترع مثله. إنها تمتلك تماماً تلك الأطوار الغريبة التي تتميَّز بها الأمورُ الحقيقيَّة. فلنتخلَّ إذاً عن تلك الفلسفات الصبيانيَّة كلِّها، تلك الأجوبة ذات التبسيط المفرط. إذ إنَّ المسألة ليست سهلة، والإجابة لن تكون بسيطةً أيضاً.

وما هي المسألة؟ إنَّها عالَمٌ يحتوي على كثيرٍ ممّا هو رديءٌ بشكلٍ واضح وعديمُ المعنى ظاهريّاً، ولكنَّه يحتوي على مخلوقاتٍ نظيرنا تعرف أنّه رديءٌ وعديم المعنى. وثمَّة فقط وجهتا نظر تواجهان الحقائق كلَّها. إحداهما وجهة النظر المسيحيَّة القائلة بأنَّ هذا عالمٌ قد فسد، إلاَّ أنّه ما يزال محتفظاً بذكرى ما كان ينبغي أن يكونه. أمَّا الأخرى، فهي وجهة النظر المعروفة بالثُّنائيَّة (Dualism). وتعني الثُّنائيَّة اعتقادَ

وجود قوّتين متساويتين ومستقلّتين وراء كلّ شيء، إحداهما خيِّرة والأُخرى شرِّيرة، وكون هذا العالم ساحةَ المعركة التي فيها تخوضان حرباً لا نهاية لها. وأعتقد شخصياً أنَّ الثُنائيَّة، بعد المسيحيَّة، هي أشرفُ العقائد وأكثرُها معقوليَّةً بين كلِّ ما هو قيدُ التداوُل. غير أنَّ فيها شَرَكاً.

من المفترض أن تكون القوّتان، أوِ الروحان أو الإلهان (الخير والشر) مستقلّتين تماماً. وكلتاهما موجودتان منذ الأزل. ولم تصنع أيَّة واحدة منهما الأخرى، وليس لأيَّة واحدة منهما حقٌّ يفوق حقَّ الأُخرى في أن تدعو ذاتها الله. ويُفترَض أنَّ كلتيهما تحسب أنَّها صالحة فيما تحسب أنَّ الأخرى طالحة. وإحداهما تحبُّ البغضاء والقساوة، فيما تحبُّ الأُخرى المحبَّة والرحمة، وكلتاهما تدعم رأيها الخاصّ. فالآن، ماذا نعني حين ندعو إحداهما القوّة الصالحة، والأُخرى القوَّة السيِّئة؟ إن كل ما تقوله هو إنَّه يصدف أن نُفضِّل الواحدة على الأُخرى، كتفضيل البيرة على العصير، أو إنَّه مهما كان رأي القوَّتين في الأمر، وأيَّةً منهما يصدف أن نحبَّ نحن البشرَ الآن، فإحداهما طالحة، بل على خطإ بالفعل، في حسبان ذاتها صالحة. أمَّا إن كان كل ما نعنيه هو أنَّه يتَّفق أن نُفضِّل الأولى، فعندئذٍ يجب أن نكفَّ عن التحدُّث عنِ الصلاح والطلاح تماماً. وذلك لأنَّ صفة الصلاح تعني ما ينبغي لك أن تُفضِّله بصرف النظر عمَّا يصدف أن تحبَّه في أيِّ وقتٍ محدَّد. فإذا كان معنى كون الشيء صالحاً أن تقف في الصفّ الذي يصدف أنَّك تميل إليه، لغير سبب وجيه، فإنَّ الصالح عندئذٍ لن يستحقَّ أن يُدعى صالحاً. وعليه، يجب أن نعني أنَّ إحدى القوَّتين خاطئة فعلاً وأنَّ الأُخرى صائبة حقّاً.

ولكنّك لحظةَ تقول ذلك، تُدخِل إلى الكون شيئاً ثالثاً، فضلاً عن القوَّتين المذكورتين: قانوناً أو معياراً أو قاعدةً للصواب تؤيِّدها إحدى القوَّتين فيما تتنافى وتتنافر الأُخرى معها. ولكن بما أنَّ القوَّتين خاضعتان لحُكم ذلك المِعيار، فإنَّ هذا المعيار أوِ الكائنَ الذي صنع هذا المعيار، أبعدُ واسمى بكثير من كلتا القوَّتين، وسيكون هو الإلهَ الحقيقيّ. وبالحقيقة أنَّ ما عنيناه بدعوة إحداهما صالحةً والأُخرى طالحة يتبيَّن أنه يُفيد أنَّ إحداهما على علاقة صحيحة بالإله الأسمى الحقيقيّ، أمَّا الأُخرى فعلى علاقةٍ خاطئةٍ به.

هذا، ويمكننا إيضاح النقطة عينها بطريقة أُخرى. إذا كانت الثُنائيَّة صحيحة،

فلا بدَّ أن تكون القوّة الطالحة كائناً يحبُّ الطلاح لأجل ذاته. ولكنْ ليس لدينا في الواقع أيُّ اختبار لأيِّ شخصٍ يحبُّ الطلاح لأجل الصلاح فحسب. وأقرب ما يمكننا أن نصل إليه هنا هو في مجال القساوة. غير أنَّ الناس، في واقع الحياة، يكونون قُساة لواحدٍ من سببين: إمّا لأنَّهم ساديُّون (أي لأنَّ لديهم انحرافاً جنسيّاً معيَّناً يجعل القساوة باعثاً للمتعة الجنسيَّة الشهوانية عندهم)، وإمّا من أجل شيءٍ سيجنُونه منها: كالمالِ أو السلطة أو السلامة. غير أنَّ المتعة والمال والسلطة والسلامة، في ذاتها، كلُّها أُمور صالحة. إنّما يكمن الطلاح في نشدانها بالأسلوب الخطأ، أو في الطريق الباطلِ، أو بإفراط وإسراف. ولستُ أعني بالطبع أنَّ الذين يفعلون ذلك ليسوا أشراراً جدّاً، إنّما أعني أنَّ الشرَّ، عندما تتفحَّصه، يتبيَّن أنَّه نشدان خيرٍ ما بالطريقة الخاطئة. ففي وسعك أن تكون خيِّراً لأجل الخير المحض. إنّما ليس في وسعك أن تكون شريراً لأجل الشرِّ المحض. إذ يمكنك أن تؤدِّيَ فعلَ لطف حينما لا تكون ميّالاً إلى اللطف، وحينما لا يؤتيك أيَّة متعة، لمجرَّد كون اللطف صالحاً. ولكنَّ أحداً لم يرتكب قطُّ فعلَ قساوة، فقط لأنَّ القساوة طالحة، بل فقط لأنَّ القساوة كانت مُمتِعة أو نافعة له. بعبارةٍ أخرى، لا يمكن أن ينجح الطلاح، ولو في كونه طالحاً، بالطريقة نفسها التي بها يكون الصلاح صالحاً. فالصلاح، إذا جاز التعبير، هو ذاتُه. أمّا الطلاح فهو صلاحٌ مُفسَد. ولا بدَّ أن يكون هنالك شيءٌ صالح أوّلاً قبل أن يمكن إفساده. فنحن دعونا الساديَّة انحرافاً جنسيّاً؛ ولكنْ لا بدَّ أوّلاً من حيازتك لمفهوم السلوك الجنسيِّ السويّ قبل أن تتمكَّن من التحدُّث عن كونه منحرفاً. وفي وسعك أن ترى أيَّ سلوك هو الانحراف لأنَّك تستطيع أن تفسِّر المنحرف على أساس السويّ، ولا يمكنك أن تُفسِّر السويَّ على أساس المنحرف. ويترتَّب على ذلك أنَّ هذه القوّة الطالحة، المفترَض أنَّها على قدم المساواة مع القوّة الصالحة وأنَّها تحبُّ الطلاح مثلما تحبُّ القوّةُ الصالحة الصلاح، هي مجرَّد بعبع. ولكي تكون هذه القوّة طالحة، ينبغي أن يكون لديها أمور صالحة تريدها ثمَّ تنشدها بالطريقة الخاطئة: ينبغي أن تكون لديها حوافز كانت في الأصل صالحة كي تتمكَّن من جعلها منحرفة. ولكنْ إذا كانت القوّة طالحة، فلا يمكنها أن تزوِّد ذاتها بأمورٍ صالحة ترغب فيها، ولا بحوافز صالحة تجعلها منحرفة. فلا بدَّ لهذه القوّة من أن تستمدَّ كِلا النوعين من القوّة الصالحة. وإن كانت الحال على هذا المنوال،

فهي ليست مستقلَّة، بل هي جزءٌ من عالم القوَّة الصالحة: وقد صنعتها إمَّا القوَّةُ الصالحة وإمَّا قوَّةٌ مَا فوقهما كلتيهما.

ولنعبِّرْ عن هذا المفهوم بطريقة أبسطَ بعدُ. لكي تكون تلك القوَّة طالحة، ينبغي أن تنوجد ويكون لها عقل وإرادة. ولكنَّ الانوجاد والعقل والإرادة هي أمورٌ صالحة في ذاتها. ولذلك ينبغي لها أن تستمدَّهنَّ من القوَّة الصالحة: حتَّى إنَّها لكي تكون طالحة يجبُ أن تقترض أو تسرق من مُناوئتها. هل بدأتَ الآن تدرك لماذا قالت المسيحيَّة دائماً إنَّ إبليس هو ملاك ساقط؟ فليست هذه مجرَّد قصَّة من القصص المكتوبة للصغار بلِ اعترافٌ حقيقيٌّ بحقيقة كون الشرّ طُفيليّاً، لا شيئاً أصليّاً. فالقوى التي تمكِّن الشرَّ من الاستمرار هي قوىً حصل عليها من الخير وجميع الصفات التي تمكِّن الإنسان الطالح من أن يكون رديئاً على نحوٍ فعّال هي بحدِّ ذاتها أمور صالحة: العزم، والذكاء، وحُسن المنظر، والوجودُ بذاته. لهذا السبب لا تقومَ الثُّنائيَّة، بمعنىً دقيق.

ولكنَّني لا أجد حرجاً في الاعتراف بأنَّ المسيحيَّة الحقيقيَّة (بوصفها متمايزة عن المسيحيَّة الهيِّنة) تصل إلى الثُّنائيَّة أقربَ مما يظنُّ الناس. فمنِ الأمور التي فاجأتني عندما قرأتُ كتاب العهد الجديد أوَّلَ مرَّة بجدِّيَّة أنَّه يتكلَّم كثيراً جدّاً عن قوَّةٍ مُظلِمة في الكون: روح شرّير مقتدر يُعتقَد أنَّه القوَّة الكامنة وراء الموت والمرض والخطيَّة. أمَّا الفرق فهو أنَّ المسيحيَّة تعتقد أنَّ هذه القوَّة المظلمة خلقها الله، وأنَّها كانت صالحة لَمَّا خلقها، ثمَّ فسدت. وتتَّفق المسيحيَّة مع الثنائية على أنَّ هذا الكون يخوض حرباً. إلاَّ أنَّ المسيحيَّة لا تقول بأنَّها حربٌ بين قوَّتين مستقلَّتين، بل ترى أنَّها حربٌ أهليَّة، أو عصيان، وأنَّنا نعيش في جزء من الكون يحتلُّه العاصي المتمرِّد.

أرضٌ يحتلُّها العدوّ: تلك هي حالةُ هذا العالم. وتحكي لنا المسيحيَّة كيف أنَّ الملك الشرعيَّ قد هبط إليها (ولك أن تقول إنَّه هبط متنكِّراً)، وهو يدعونا للإسهام في حملة تعويق إحباط كبيرة لعملية التمرُّد. فعندما تذهب إلى الكنيسة، فأنت بالحقيقة تتنصَّت إلى اللاسلكيِّ السِّريِّ الذي بعثه إلينا أصدقاؤنا. ولذلك يتلهَّف العدوُّ إلى منعنا من الذهاب. وهو يعمد إلى ذلك باستغلال غرورنا وكسلنا وتصلُّفنا العقلانيِّ الاستعلائيّ. وفي علمي أنَّ سائلاً قد يسألني: «أتقصد حقاً، في

هذا الوقت من النهار، أن تُعرِّف إلينا من جديد صديقنا القديم إبليس، بحافرَيه وقرنَيه وكلِّ ما لديه؟» حسناً، لستُ أدري ما دخلُ وقت النهار بهذا، ولستُ بمتوقّفٍ عند ذِكر الحافرَين والقرنين! ولكنْ، في ما عدا ذلك، جوابي هو: «نعم، أقصد ذلك!» ولستُ أزعم أنّني أعرف أيَّ شيء عن مظهره الشخصيّ. فإذا أراد احدٌ حقّاً أن يعرفه على نحوٍ افضل، فأودُّ أن أقول لذلك الشخص: «لا تقلق! إذا أردت ذلك حقّاً، فسيكون لك ما تريد. أمّا هل يعجبك المنظر حين تراه، فتلك مسألةٌ أُخرى!»

٣

الخيار المذهل

يعتقد المسيحيُّون إذاً أنَّ سلطاناً شرِّيراً جعل نفسه في الزمان الراهن رئيس هذا العالم. وهذا بالطبع يُثير بضع مسائل. أتوافق حالة الأمور هذه مشيئة الله، أم لا؟ فإذا كان نعم، فستقول لي إنَّه إله غريب. وإذا كان لا، فكيف يمكن أن يحدث أيّ شيء على نقيض مشيئة كائنٍ ذي قُدرة مطلقة؟

ولكنَّ أيَّ شخصٍ حائزٍ سُلطةً مّا يعرف كيف يمكن أن يكون أمرٌ من الأُمور موافقاً لإرادتك من جهة معيَّنة وليس من جهة أُخرى. فقد يكون معقولاً جدّاً أن تقول أُمٌّ لأولادها: «لَن أذهب إلى غرفة درسكم كلَّ ليلة لأُرتِّبها. عليكم أن تتعلَّموا المحافظة على ترتيبها بأنفسكم.» ثمَّ تذهب ذات ليلة إلى تلك الغرفة فتجد الدُبَّ الدُّمية ودواة الحِبر وكتاب قواعد اللغة مرميَّةً على شعريَّة الموقد. إنَّ ذلك مخالِف لإرادتها. وهي تؤثِر أن يكون الأولاد حراصاً على الترتيب. ولكن من الجهة الأخرى، هي إرادتُها التي تركت للأولاد الحرِّيَّة في أن يكونوا غير مُرتَّبين. والأمر عينُه يحصل في أيِّ فوج عسكريّ أو نقابةِ عُمّال أو مدرسة. فإنَّك تُخيِّر الناس في أمرٍ ما، وإذا بنصفهم لاً يعملونه. وليس ذلك ما أردتَه أنت، ولكنَّ إرادتك جعلته ممكناً.

ومن المحتمل أنَّ الأمر عينه حصل في الكون. فقد خلق الله كائناتٍ لها حرِّيَّة الإرادة، أي خلائق يمكنها إمَّا فعل الصواب وإمَّا فعل الخطأ. ويحسب بعضُ الناس أنَّهم يستطيعون تصوُّرَ مخلوقٍ حرِّ الإرادة إنَّما ليست لديه إمكانية إساءة التصرُّف. أمَّا أنا فلا أستطيع ذلك. فإنْ كان كائنٌ مّا حرّاً في أن يكون صالحاً، فهو أيضاً حرٌّ في أن يكون طالحاً. وحريَّة الإرادة هي الأمر الذي جعل الشرَّ ممكناً. فلماذا إذاً

وهب الله البشر حريَّة الإرادة؟ ذلك لأنَّ حريَّة الإرادة، وإن جعلتِ الشرَّ ممكناً، هي أيضاً الأمر الوحيد الذي يجعل ممكناً أيَّ حُبٍّ أو صلاح أو خير أو فرح مما تجدر حيازته. فإنَّ عالماً آليَّ الحركة (فيه خلائقُ يشتغلون كالآلات) لا يكاد يستحق أن يُخلَق. والسعادة التي يُصمِّمها الله لخلائقه الأسمى هي سعادةُ كونهم، بملء حريَّتهم واختيارهم، مُتَّحِدين به وبعضُهم ببعض في نشوةِ محبَّةٍ وابتهاج إذا قورِن بها أيُّ حُبٍّ خلّاب بين رجُلٍ وامرأةٍ على هذه الأرض كان مجرَّد وهم أو سراب. ولأجل ذلك ينبغي أن يكونَ البشر أحراراً.

لا ريبَ أنَّ الله علم بما سيجري إذا استعمل البشر حريَّتهم الاستعمال الخطأ؛ ويظهر أنَّه عدَّ ذلك أمراً يستحقُّ المغامرة! ولربَّما نشعر بميلٍ إلى عدم موافقته بالنسبة إلى ذلك. ولكنَّ في عدم موافقتنا لله صعوبةً بديهيَّة. فهو المصدر الذي منه تأتي كلُّ قدرةٍ لك على التفكير والتعليل: ولا يمكنك أن تكون على حقٍّ فيما يكون هو على باطل كما لا يُعقَل أن يرتفع النهرُ أعلى من منبعه! وحين تُجادله فإنَّك إنَّما تجادل القدرة التي تمكِّنك من المجادلة بعينها: وهذا يُشبه قطعك لغصنٍ أنتَ جالسٌ عليه. وما دام الله يحسب حالةَ الحربِ هذه القائمةَ في الكون ثمناً يستحقُّ أن يُدفع مقابل حريَّة الإرادة (أعني نظيرَ صُنع عالم تستطيع الخلائق فيه أن تعمل خيراً أو شرّاً حقيقيَّين، ويمكن أن يحدث شيءٌ ذو أهميَّة حقيقيَّة، بدلاً من عالَم دُميةٍ يتحرَّك فقط حين يُحرِّك تعالى خيوطه) فلنا عندئذٍ أن نتقبَّل ذلك الثمن لأنَّه يستحقُّ أن يُدفَع.

ومتى فهمنا حقيقة حرِّيَّة الإرادة، يتبيَّن لنا كم هو سخيف أن نسأل، كما سألني أحدُهم مرَّةً: «لماذا صنع الله مخلوقاً من مادَّة فاسدة كهذه حتَّى انحرف وأخطأ وفسد؟» كلَّما كانت المادَّة التي صُنع منها المخلوق أفضل (أي أكثر ذكاءً وقوَّةً وحريَّة) تكون حاله أفضل إذا سلك سبيل الصواب، ولكنْ أيضاً تكون حالُه أسوأ إذا سلك سبيل الخطأ. فالبقرة لا يمكنها أن تكون صالحة جدّاً أو سيِّئة جدّاً، والكلب يمكن أن يكون إمَّا أحسن وإمَّا أسوأ، والولد أيضاً إمَّا أحسن وإمَّا أسوأ، والإنسان العاديُّ كذلك أيضاً على نحو أزيَد، والعبقريُّ أزيد منه بعد. أمَّا الروح الفائق للبشر، فيمكن أن يكون أحسن الكلّ، أو أسوأ الكلّ.

كيف فسد سلطانُ الظُّلمة؟ هنا، بلا شكّ، نطرح سؤالاً لا يستطيع البشر أن

يجيبوا عنه إجابةً قاطعة. على أنَّ من الممكن تقديم تخمين معقول (وتقليديّ)، على أساس اختباراتنا الخاصَّة للإخفاق أو ضلال السبيل. فمَا إن تكونُ لك نفْس، حتَّى يقوم احتمالٌ بأن تضع نفسَك في المرتبة الأولى، مُبتغياً أن تكون أنت المركز، بل أن تكون الإله بالحقيقة. تلك كانت خطيَّة الشيطان، وتلك كانت الخطيَّة التي علَّمها للجنس البشريّ. ويعتقد بعض الناس أن سقوط الإنسان كانت له علاقة ما بالجنس؛ غير أنَّ هذا الاعتقاد خاطئ. (وما جاء في سفر التكوين يُشير بالأحرى إلى أنَّ فساداً مّا في طبيعتنا الجنسيَّة تبع السقوط وكان نتيجةً له، لا سبباً.) فما وسوس به الشيطان في رأسَي أبوينا الأوَّلين كان فكرة أنَّهما يمكن أن «يصيرا كالله»، يمكن أن يستقلاً بأنفسهما كما لو كانا هما قد خلقا أنفسهما، أن يكونا سيِّدَي ذاتهما، أن يخترعا لأنفسهما سعادةً من نوعٍ مّا بمعزلٍ عن الله أو خارج نطاقه. ومن تلك المحاولة اليائسة جاء تقريباً كلُّ ما ندعوه «التاريخ البشريّ»، المال والفقر والطموح والحرب والبغاء والطبقية والإمبراطوريّات والعبوديَّة، تلك القصَّة المروِّعة الطويلة التي تصف محاولات الإنسان أن يجد شيئاً غير الله يُبهجُه ويُسعِده.

أمَّا السبب في عدم إمكان نجاح الإنسان في ذلك فهو هذا: أنَّ الله قد صنعنا، أوِ اخترعنا كما يخترع المرء محرِّكاً. والسيّارة مصنوعة لتسير بالبترول، فلا يمكن أن تسير على نحوٍ سويٍّ بأيَّة مادَّة أُخرى. وقد صمَّم الله المِكنة البشريَّة بحيث تسير به. فهو نفسُه الوَقود الذي صُمِّمت أرواحُنا لإحراقه، أوِ الغذاء الذي صُمِّمت أرواحُنا لتقتات به. وليس من وقودٍ أو غذاء سوى ذلك. ولهذا السبب فلا فائدة أبداً في أن نطلب من الله أن يجعلنا سعداء بطريقتنا الخاصَّة، بغير أن يَعنينا أمرُ الدِّين. فلا يمكن أن يعطينا الله سعادةً وسلاماً بمعزلٍ عنه، لأنَّهما ليسا حيث هو غير موجود، وليس من شيءٍ كهذا.

ذلك هو مفتاح التاريخ. طاقاتٌ هائلة تُبذَل، حضاراتٌ تُنشأ، مؤسَّسات ممتازة تُبتكر؛ ولكنْ كلَّ مرَّة يخرب شيءٌ أو يفسد. فإنَّ عيباً مُهلِكاً من نوعٍ مّا يُوصِل دائماً إلى القمَّة الأشخاصَ الأنانيِّين والعُتاة، وإذا بكلِّ شيءٍ يرتدُّ إلى الشقاء والخراب. وفي الواقع أنَّ المَكَنة تُفرقع وتُقرقع. يبدو أنَّها تنطلق انطلاقةً حسنة، ثمَّ تسير بضعة أمتار، ثمَّ تتوقَّف. وهُم يحاولون أن يُسيِّروها بالوقود الخطأ. ذلك هو ما فعله الشيطان بنا نحنُ البشر!

وماذا فعل الله؟ أوّلاً، وضع فينا الضمير، حسَّ الصواب والخطأ؛ وعلى مرِّ التاريخ دأب أناسٌ في محاولة إطاعة الضمير (حيث بذل بعضُهم أقصى جهدهم). ولكنَّ أيّاً منهم لم ينجح نجاحاً كاملاً قطّ. ثانياً، بعث إلى الجنس البشريّ بما أدعوه «أحلاماً طيّبة»، أعني تلك القصص الغريبة المتفرّقة في ثنايا الديانات الوثنيَّة كلِّها عن إلَهٍ يموت ثمَّ ينبعث من الموت حيّاً، وبموته قد أعطى الناس حياةً جديدة على نحو ما. ثالثاً، اختار شعباً معيَّناً، وطوى بضعة قرونٍ محاولاً مراراً وتكراراً أن يُرسِّخ في أذهانهم أيَّ إلهٍ هو: أنَّه واحدٌ فقط ويعنيه السلوكُ الصائب تماماً. ومعلومٌ أنَّ هذا الشعب هو اليهود القدامى، وكتابُ العهد القديم يحكي خبر محاولات ترسيخ الحقِّ المتكرِّرة.

ثمَّ تحصل الصدمة العجيبة: من بين أولئك اليهود يبرز فجأةً إنسانٌ يجول متكلِّماً وكأنَّه الله ذاته! فهو يُصرِّح بأنَّه يغفر الخطايا. ويقول إنَّه استمرَّ موجوداً دائماً. ويقول إنَّه سيأتي كي يدين العالم في آخِر الزمان. فلنُوضح الآن هذا جليّاً. بين القائلين بوحدة الوجود، مثل الهندوس، يمكن لأيِّ إنسان أن يقول إنَّه جزءٌ من الله، أو إنَّه هو والله واحد، ولا يكون في ذلك غرابةٌ زائدة. ولكنَّ هذا الرجل، لكونه يهوديّاً، لم يكن ممكناً أن يعنيَ هذا النوع من الإله. فالله، في لغتهم يعني الكائن الموجود خارج نطاق العالم، والذي صنع العالم والمختلف اختلافاً غير محدود عن أيِّ شيءٍ آخر. حتَّى إذا أدركتَ ذلك، فلا بدَّ أن تعيَ أنَّ ما قاله ذلك الرجل كان، بكلِّ بساطة، التصريح الأكثر إذهالاً بين كلِّ ما نطقت به أفواه البشر على الإطلاق!

وينطوي ذلك التصريح، في جزء منه، على أمرٍ يسهل أن يفوتَ ملاحظتنا له، لأنَّنا طالما سمعناه كثيراً حتَّى لم نعُد نُدرِك أبعادَه الحقيقيَّة. أعني دعوى ذلك الرجل بأنّه يغفر الخطايا، أيّة خطايا! فما لم يكنِ المتكلّمُ هو الله، تكُن هذه الدعوى بالحقيقة مُحالةً جدّاً بحيث تُثير السخرية. ونحن جميعاً نفهم كيف يقدر امرؤ أن يغفر إساءاتٍ تُرتكب بحقِّه هو: كأن تدوس إبهام قدمي فأُسامحك، أو تسرق مالي فأصفح عنك. ولكن ما قولُنا في إنسانٍ لم يتعرَّض شخصيّاً للسَّلب أوِ الدَّوس، ويُعلِن أنَّه يغفر لك دوسَك إبهامَ إنسانٍ آخر أو سرقتك أموال الآخرين؟ إنَّ ألطف وصفٍ نُطلِقه على هذا التصرُّف هو أنَّه حماقة بلهاء! غير أنَّ ذلك هو ما فعله

يسوع المسيح: لقد قال للناس إنَّ خطاياهم مغفورةٌ لهم، ولم يتمهَّل قطُّ ليستشير الآخرين الذين، من غير ريب، آذتهم تلك الخطاي. إنَّما تصرَّف بلا تردُّد كما لو كان هو الفريق المعنيَّ أساساً والشخصَ المُساء إليه جوهرياً في جميع الإساءات والمعاصي. يكون لهذا معنى معقولٌ فقط إذا كان هو بالحقيقة الله الذي خُولِفت قوانينُه أو شرائعُه والذي تجرح كلُّ خطيئةٍ محبَّته. أمَّا في فم أيِّ متكلِّم ليس هو الله، فهذا الكلام إنَّما ينطوي فقط على ما لا يمكنني أن أعدَّه إلاَّ سخفاً وغروراً لا يُجاريه فيهما أيُّ شخصٍ آخر في التاريخ.

غير أنَّه (وهذا هو الأمر العجيبُ الغنيُّ الدلالة) حتَّى أعداؤه، حينما يقرأون الأناجيل الأربعة، لا يتكوَّن لديهم عادةً أيُّ انطباع بالسخف والغرور؛ ويكون هذا الانطباع أقل أيضاً عند القراء غير المنحازين ثمَّ إنَّ المسيح يقول إنَّه «وديع ومتواضع القلب» ونحن نصدِّقه، دون أن نلاحظ أنَّه لو كان مجرَّد إنسان لكانت الوداعة والتواضع آخِر صفتين يمكننا أن نصف بعضَ أقواله بِهما.

إنَّني أسعى هنا إلى منع أيِّ شخص أن يقول القول الغبي حقّاً والذي غالباً ما يقوله الناس بالنسبة إلى المسيح: «أنا مستعدٌّ لقبول المسيح على أنَّه معلِّم أخلاقيٌّ عظيم، ولـكنَّني لا أقبل دعواه بأنَّه الله.» ذلك القول هو الأمر الوحيد الذي يجب ألاَّ نقوله. إذ إنَّ إنساناً يكون مجرَّد إنسان ويقول مثل تلك الادِّعاءات التي قالها يسوع لن يكون معلّماً «أخلاقيّاً» عظيماً. إنه لا بدَّ أن يكون إمَّا مخبولاً، على مستوى واحد مع مَن يقول إنَّه بيضة مسلوقة، وإمَّا إبليسَ الجحيم! إذاً لا بدَّ من أن تحسم خيارك: إمَّا أنَّ هذا الشخص هو ابنُ الله، وإمَّا أنَّه مجنون، أو أسوأُ من ذلك. ولك إمَّا أن تُسكِته حاسباً إياه أبله، وتحتقره وتقتله كما لو أنه شيطانٌ، وإمَّا أن تجثو عند قدميه وتدعوه ربّاً وإلهاً. إنَّما لا نطلعنَّ بأيِّ فكرة استعلائية لا قيمة لها، عن كونه معلّماً من البشر عظيماً. فهو لم يترك هذا متاحاً لنا، ولا قصد أن يجعله متاحاً!

٤

التائب المثالي

هكذا نجد أمامنا هذا الخيار المروِّع: أنَّ ذلك الرجُل الذي نتحدَّث عنه إمَّا كان وسيبقى ما قال إنَّه هو تماماً، وإمَّا هو مخبول، أو أيُّ شيءٍ آخر أسوأ. والآن يبدو لي واضحاً أنَّه لم يكن مخبولاً ولا خبيثاً. وتالياً، فمهما بدا الأمر غريباً أو مُروِّعاً أو غير محتمل، ينبغي لي أن أقبل الرأي القائل بأنَّه كان وسيبقى هو الله. لقد هبط الله إلى هذا العالَم الذي يحتلُّه العدوُّ، في صورة إنسان.

والآن، ماذا كان القصد من الأمر كلِّه؟ ماذا جاء ليفعل؟ طبعاً كي يُعلِّم. ولكنْ ما إن تنظر في كتاب العهد الجديد أو أيِّ مؤلَّفٍ مسيحيٍّ صحيح آخر، حتَّى تجد هناك حديثاً ثابتاً عن أمرٍ مختلف: عن موته وقيامته حيّاً من جديد! وبديهيٌّ أنَّ المسيحيِّين يعتقدون أنَّ النقطة الجوهريَّة في القضيَّة تكمن ها هنا. فهم يَرون أنَّ الغرض الأساسيَّ الذي جاء إلى الأرض كي يفعله إنَّما كان أن يتألَّم ويُقتَل.

إنَّما قبل أن صرتُ مسيحيّاً حقيقيّاً كان يسيطر عليَّ الانطباع بأنَّ أوَّل أمر ينبغي للمسيحيِّين أن يؤمنوا به هو نظريَّة بعينها بشأن الغرض من موته. فحسب تلك النظريَّة أنَّ الله أراد أن يعاقب الإنسان على التحوُّل عنه والانضمام إلى العاصي الطاغي المُهلِك، ولكنَّ المسيح تطوَّع لتحمُّل القصاص عنَّا، فأطلق الله سراحنا. والآن أعترف بأنَّ هذه النظريَّة لا تبدو لي بالغة اللاأخلاقيَّة والسخف كما كانت حالُها عندي في ما مضى. ولكنْ ليست هذه هي النقطة التي أودُّ توضيحها والتأكيد عَلَيْها. فالذي تبيَّن لي حقّاً في ما بعد هو أنَّه لا هذه النظريَّة ولا سواها هي المسيحيَّة. فالعقيدة المسيحيَّة المركزيَّة هي أنَّ موت المسيح أصلح حالنا أمام الله ومعه ويسَّر لنا بداءة جديدة، بطريقةٍ من الطرق. أمَّا النظريَّات التي تعلِّل كيف تمَّ ذلك فمسألة

أخرى. ولطالما اعتقد الناس مقداراً لا بأس به من النظريّات المختلفة في كيفيّة حصول الأمر. أمّا ما يتّفق عليه جميع المسيحيّين فهو أنّه حصل فعلاً ويؤدّي غرضه حقّاً. وها أنا أقول لكم ما أعتقده بشأن ذلك. إنّ جميع الناس العاقلين يعرفون أنّه إن كنتَ تعِباً وجائعاً فإنّ وجبه طعام تنفعك. غير أنّ نظريَّةَ التغذيةِ الحديثةَ (كلَّ ما يتعلق بالفيتامينات والپروتينات) هي أمرٌ مختلف. ولطالما تناول الناس الطعام وشعروا بحُسن الحال قبل زمان طويل من سماع أحدٍ بنظريَّة الفيتامينات فعلاً. وإذا تمَّ التخلّي يوماً عن نظرية الفيتامينات: فإنَّهم سيظلُّون يأكلون طعامهم على المنوال عينه تماماً. فالنظريّات المتعلّقة بموت المسيح ليست هي المسيحيَّة، بل مجرَّد تفسيرات لكيفيَّة وفاء ذلك الموت بغرضه. ولن يتَّفق المسيحيُّون كلُّهم على مدى أهميَّة تلك النظريَّات. والكنيسة التي إليها أنتمي (كنيسة إنكلترا) لا تُقِرُّ أيَّة واحدة منهنَّ على أنَّها النظرية الصحيحة. أمّا بعض الكنائس الأُخرى فتُجاوز هذا الحدَّ قليلاً. ولكنّي أعتقد أنَّ الكنائس كلَّها تتَّفق على أنَّ الحَدَث نفسه أهمُّ بما لا يُقدَّر من أيِّ تعليلاتٍ طلع بها اللاهوتيُّون. وأعتقد أنَّ الجميع يُحتمَل أن يعترفوا بأنَّ أيَّ تعليلٍ لن يُحيط بالحقيقة كلِّها أبداً. ولكنْ كما قلتُ في تمهيد هذا الكتاب، ما أنا إلاّ مؤمنٌ من العامَّة، وعند هذا الحدِّ نخوض مياهاً غامرة. إنَّما يمكنني أن أُطلِعك على كيفيَّة رؤيتي إلى الأمر شخصيّاً، نظراً لكونها رؤيةً ذات قيمة، كما أحسب.

في رأيي أنَّ النظريَّات ليست في ذاتها ما هو مطلوبٌ منكم قبوله. ولربَّما قرأ بعضكم مؤلفات العالِمَين جيمس جينز وآرثر أدِّينغتنون فما يفعله هذان عندما يريدان تفسير الذرَّة، أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل، هو أن يقدِّما لك وصفاً يمكنك على أساسه أن تُنشئ صورة ذهنيَّة. إلاَّ أنَّهما لا يلبثان أن يُنبِّهاك إلى أنَّ تلك الصورة ليست هي ما يعتقده العلماءُ فعلاً. فما يعتقده العلماءُ إنَّما هو صيغة رياضيَّة أو حسابيَّة. وليستِ الصور إلاَّ لمساعدتك على فهم الصيغة. وليست الصُّوَر في الواقع صحيحةً على غرار صحَّة الصيغة، إذ لا تزوِّدك بالمادَّة الحقيقيَّة بل بمجرَّد شيءٍ يشابهها على وجه التقريب. فالمقصود من وراء الصُّوَر أن تكون مساعِدة، وإذا لم تكن كذلك يمكنك نبذها. أمَّا الشيء نفسه فلا يمكن تصويره، بل يمكن فقط التعبير عنه رياضيّاً. وكُلنا هنا في الصفِّ نفسه. فنحن نؤمن بأنَّ موت المسيح في

سياق التاريخ هو تماماً تلك النقطة التي فيها ظهر في عالمنا هذا أمرٌ فائقٌ للتصوُّر كلّياً مصدرُه خارج هذا العالم. وإذا كنّا نعجز حتّى عن تصوُّر الذرّات التي منها يتكوَّن عالمُنا بالذات، فمن غير ريب أنّنا لن نتمكّن من تصوُّر هذا الأمر الفائق. وبالحقيقة أنّه لو تبيَّن لنا أنّنا قادرون على فهم الأمر تماماً، فإنّ هذا الواقع عينه يُبيِّن أنّه ليس ذلك الأمرَ الذي يزعم أنّه هو، أي الحقُّ غير القابل للتصوُّر والأزليُّ والآتي ممّا وراء الطبيعة مخترقاً الطبيعة كالبرق. وربمّا تسأل: أيُّ نفع لنا فيه ما دمنا لا نفهمه؟ غير أنّ الجواب عن هذا سهل. ففي وسع المرء أن يتناول غداءه بغير أن يفهم تماماً كيف يُغذّيه الطعام. وفي وسعه أيضاً ان يقبل ما عمله المسيح بغير أن يفهم كيف يؤدّي غرضه. وبالحقيقة أنّه لن يعرف يقيناً كيف يفعل فعله إلاّ متى قبله.

يُقال لنا إنّ المسيح مات لأجلنا، وإنّ موته غسّلنا من خطايانا، وإنّه بموته أبطل فاعليّة الموت بعينه. تلك هي الصيغة. تلك هي المسيحيّة. ذلك هو ما ينبغي أن نؤمن به. أمّا النظريّات التي نُنشئها بشأن كيفية إتمام موت المسيح لكامل أبعاده، فهي في رأيي أمرٌ ثانويٌّ تماماً، إذ هي مجرَّد ترسيمات أو تصاميم ينبغي نبذُها إن كانت لا تساعدنا، وإذا ساعدتنا فعلاً فينبغي عدم الخلط بينها وبين الأمر الحقيقيّ بعينه. ومع ذلك، فإنّ بعض هذه النظريّات تستحقُّ أن نُلقيَ نظرةً عليها.

إنّ النظرية التي سمع بها معظم الناس هي تلك التي ذكرتُها سابقاً والقائلة بأنّه قد أُطلق سراحنا لأن المسيح تطوَّع أن يتحمَّل القصاص عوضاً عنّا. فالآن، تبدو هذه النظريّة في ظاهرها سخيفةً جدّاً. إذا كان الله على استعداد للعفو عنّا، فلماذا لم يفعل ذلك يا تُرى؟ وأيُّ داعٍ معقول لمعاقبة شخص بريءٍ بدلاً منّا؟ ليس ثمّـة داعٍ معقول يمكنني أن أراه حقاً إن كنتَ تُفكّر في العقاب بلغة محكمة الجُنَح. أمّا إذا فكَّـرتَ في دَينٍ مّا، فثمّة معنىً وافٍ في أن يدفع شخصٌ ميسور دَيناً بالنيابة عن شخص معسور. أو إذا نظرت إلى «تأدية العقوبة» لا بمعنى تحمُّل القصاص، بل بالمعنى الأعمّ الذي يخصُّ «تحمُّل النفقات» أو «دفع الفاتورة» (أي تسوية الحساب)، فعندئذٍ بالطبع يُبيِّن لنا الاختبار العامُّ أنّه حين يتورَّط إنسانٌ في مأزقٍ ما، فإنّ عناء إخراجه منه يقع عادةً على عاتق صديق مُحبّ.

والآن، ما نوع «المأزق» الذي تردّى الإنسان فيه؟ لقد أراد أن يستقلّ بنفسه، متصرّفاً كأنّه يخص نفسه. بكلمة أُخرى: ليس الإنسان الساقط مجرَّد مخلوقٍ

ناقص يحتاج إلى تحسين، بل هو عاصٍ متمرِّدٌ يجب أن يُلقيَ سلاحه. فإلقاؤك سلاحك، واستسلامُك، وتعبيرك عنْ ندامتك وأسفك، وإدراكك أنَّك سالكٌ سبيل الضلال، واستعدادك لبدء الحياة مجدَّداً من نقطة الصفر... تلك هي الطريقة الوحيدة للخروج من مأزقنا. وعمليَّة الخضوع هذه، التي تشبه حركة دوران سريعة إلى الوراء، هي ما يسمِّيه المسيحيون «التوبة». وليست التوبة أمراً ممتعاً أبداً. فهي شيءٌ أصعب بكثير من مجرَّد تناوُل وجبةٍ وضيعة. إنَّها تعني اطِّراح كلِّ ما درَّبنا أنفسنا على حيازته طوال آلاف السنين من عُجبٍ وافتخارٍ كاذبٍ وعناد. إنَّها تعني قتل جزءٍ من ذاتك أو معاناةَ نوعٍ من الموت. وبالواقع أنَّ التوبة تَستلزم إنساناً صالحاً. وها هُنا الورطة المُربِكة: فالإنسان الطالح وحده ينبغي أن يتوب، إنَّما الإنسان الصالح وحده يقدر أن يتوب توبةً كاملة. وكلَّما ازددت فساداً تضاعف احتياجك إلى التوبة، وقلت قدرتك على القيام بها. فالشخص الوحيد القادر على أن يتوب توبةً كاملة ينبغي أن يكون شخصاً كاملاً، وهذا لا يكون محتاجاً إلى التوبة.

إنَّما تذكَّر أنَّ هذه التوبة، أي هذا الخضوع الطوعيَّ للخزي ولِما يُشبه الموت، ليست أمراً يطلبه منك الله قبل أن يقبلك من جديد، ويُمكن أن يُعفيك منه إذا شاء، بل إنَّها بصريح العبارة وصفٌ لِما يُمثِّله الرجوع إليه. فإن طلبتَ إلى الله أن يقبلك من جديد بغير توبة، تكون بالحقيقة طالباً إليه أن يسمح لك بالرجوع إليه بغير أن ترجع. وهذا أمرٌ يستحيل حدوثه. حسنٌ جدّاً إذاً، علينا أن نُنجزها! غير أنَّ الفساد الذي يجعلنا بحاجةٍ إليها هو نفسُه يجعلنا عاجزين عن القيام بها. فهل نقدر أن نقوم بها إذا ساعدنا الله؟ نعم، ولكنْ ماذا نعني بذكرِنا مساعدةَ الله لنا؟ نعني وضْع الله فينا جزءاً من ذاته، إذا جاز التعبير. إنَّه يمنحنا شيئاً من قدراته التفكيريَّة، وبهذه الكيفيَّة نُفكِّر؛ ويبثُّ فينا قليلاً من محبَّته، وبهذه الكيفيَّه نحبُّ بعضُنا بعضاً. وعندما تُعلِّم ولداً الكتابة، تمسك بيده وهو يرسم الأحرف. ذلك أنَّه يُصوِّر الأحرف لأنَّك أنت تُصوِّرها. فنحن نحبُّ ونفكِّر لأنَّ الله يحبُّ ويفكِّر ويمسك بأيدينا فيما نفعل ذلك. ولو لم نسقط، لكان ذلك كلُّه سَفَراً سعيداً. لكنَّنا الآن، للأسف!، نحتاج إلى مساعدة الله كي نفعل شيئاً لا يفعله الله أبداً في ذات طبيعته: كي نستسلم ونتألَّم، ونخضع، ونموت. فلا شيءَ في طبيعة الله يتوافق مع هذه العمليَّة إطلاقاً. وعليه، فإنَّ الدرب الوحيد الذي فيه نحتاج الآن إلى هداية الله

أكثرَ الكُلِّ هو دربٌ لم يسلكه الله قطُّ، في ذاتِ طبيعته. وفي مقدور الله أن يمدَّنا بما لديه. إنَّما هذا الأمر بعينه ليس لديه في ذات طبيعته.

ولكنْ هبِ الله صار إنساناً، هبْ طبيعتنا البشريَّة التي يمكن أن تتألَّم وتموت اندمجت بطبيعة الله في شخصٍ واحد، فعندئذٍ يكون في مقدور ذلك الشخص أن يساعدنا. وفي وسعه إذ ذاك أنْ يُخضِع إرادته ويتألَّم ويموت، لأنَّه إنسان؛ كما أنَّ في وسعه أن يفعل ذلك على نحوٍ كامل تماماً، لأنه الله. ولا يمكننا، أنا وأنت، أنَّ نجتاز هـذه العمليَّة إلاَّ إذا عمـلها الله فينا. ولكنَّ الله لا يمكن أن يعملها إلاَّ إذا صار إنساناً. ولن تنجح محاولاتنا في إطار عمليَّة الموت هذه إلاَّ إذا شاركنا نحن البشر في اختبار الله للموت، تماماً كما أنَّ تفكيرنا لا يمكن أن ينجح إلاَّ لكونه نقطةً من بحر تفكيره وعقله. إنَّما لا يمكننا أن نُشارِك في اختبار الله للموت ما لم يمُتِ الله فعلاً، ولا يمكن أن يموت تعالى بغير أن يكونَ إنساناً. بهذا المعنى يفي الله دَيننا ويُعاني عوضاً عنَّا ما لا يحتاج هو نفسه لأن يُعانيَه أبداً.

وقد سمعتُ بعضاً يتشكَّون قائلين: «إن كان المسيح هو الله كما هو إنسانٌ أيضاً، فعندئذٍ تفقد آلامُه وموته كلَّ قيمة في نظرنا، لأنَّه لا بدَّ أنَّ ذلك كان سهلاً جدّاً عليه.» إلاَّ أنَّ آخرين قد يشجبون (على نحوٍ صحيح جدّاً) ما ينطوي عليه هذا الاعتراضُ من نكرانِ جميل وفظاظة. ولكنْ ما يذهلنِي أنا هو ما ينمُّ عنه هذا الموقف الثاني من سوء فهم. فبمعنىً ما طبعاً، مُقدِّمو هذا الاعتراض على حقّ. بَلْ إنَّهم قصَّروا في دعم قضيَّتهم الخاصَّة. فالخضوع الكامل، ومعاناة الآلام الكاملةُ، والموتُ الكامل، لم تكُن فقط أسهل على المسيح لأنَّه هو الله، بل إنَّها كانت ممكنة فقط لأنَّه هو الله. ولكنْ أليس هذا سبباً غريباً جدّاً لعدم قبولها؟ إنَّ المعلِّم قادرٌ على رسم الحروف للولد لأنَّ المعلِّم راشد ويعرف كيفيَّة الكتابة. ولا ريبَ في أن كونه راشداً يجعل الأمر أسهل على المعلِّم؛ وفقط لأنَّه أسهل عليه فإنه يستطيع أن يساعد الولد. فإذا رفض الولد المعلِّم، لأنَّ الكتابة «سهلةٌ على الراشدين»، وانتظر أن يتعلَّم الكتابة من ولد آخر لا يقدر هو نفسُه أن يكتب (وتالياً لا تكون له أفضليَّة «مُجحِفة»)، فإنَّه لن يتقدَّم في تعلُّمه بسرعة زائدة. وإذا كنتُ أغرق في نهرٍ جارف، فقد يُناولني رجلٌ ما زالت إحدى قدميه على الضفَّة يداً تُنقِذ حياتي. أفينبغي لي أن أردَّ صارخاً (بين لهثاتي): «لا، هذا مُجحِف! أنت صاحبُ أفضليَّة! إنَّك تُبقي

إحدى قدميك على الضفَّة!»؟ إنَّما تلك الأفضليَّة (سمِّها إجحافاً إذا شئت) هي السبب الوحيد لقدرة الرجُل على إسداء أيِّ خير إليَّ. فإلى أيِّ مصدرٍ تتطلَّع طلباً للعون إن كنتَ لا تتطلَّع إلى ذاك الذي هو أقوى منك؟

هذه هي طريقتي في النظر إلى ما يدعوه المسيحيُّون «الكفَّارة». إنَّما تذكَّر أنَّ ما أوردتُه هو صورةٌ أخرى ليس غير. فلا تغلط بحسبانها الشيءَ الحقيقي بذاته. وإن لم تجد فيها أيَّ عونٍ لك، فاترُكْها ضارباً عنها صفحاً!

٥

الاستنتاج العمليّ

لقد عانى المسيح كمال الخضوع والتذلُّل: أمَّا الكمال فلأنَّه الله، وأمَّا الخضوع والتذلُّل فلأنَّه إنسان. وفحوى الاعتقاد المسيحيِّ الآن أنَّنا إن شاركْنا المسيح بطريقة مّا في اتِّضاعه ومعاناته فسُنشارِكه أيضاً في انتصاره على الموت وننال حياةً جديدةً بعد اجتيازنا الموت بها نصير خلائقَ كاملين وكاملي السعادة. وهذا يعني ما يتعدَّى بكثيرٍ جدّاً محاولة اتِّباع تعليمه. وغالباً ما يسأل الناس متى ستحدث الخطوة التالية في عمليَّة التطوُّر، خطوة صيرورة الإنسان شيئاً أكثر من الإنسان. غير أنَّ هذه الخطوة، من وجهة النظر المسيحيَّة، قد حصلت فعلاً. ففي المسيح ظهر إنسانٌ جديد من نوع مّا؛ والحياة الجديدةُ النوع التي بدأت فيه لا بدَّ أن تُنقَل إلينا.

ولكنْ، كيف ينبغي أن يتمَّ ذلك؟ لنتذكَّرِ الآن كيف اكتسبنا الحياة القديمة المعتادة. لقدِ استمدَدناها من سوانا، من آبائنا وأُمَّهاتنا وجميع أسلافنا، وبغير إذننا؛ وبعمليَّة غريبة جدّاً تنطوي على متعةٍ وألم وخطر: عمليَّة ما كنا لنخمِّنها على الإطلاق. ويقضي معظمنا مقداراً لا بأس به من السنين في الصِّغَر محاولين تخمينها. كما أنَّ بعض الأولاد، حين يُطلَعون عليها أوَّل مرَّة، لا يصدِّقونها... ولستُ على يقينٍ بأنَّني ألومهم، لأنَّها غريبةٌ جدّاً. والآنَ نقول إنَّ الإله الذي رتَّب هذه العمليَّة هو نفسه الإله الذي يُرتِّب كيف ينبغي أن تسري الحياة الجديدة النوع، أيِ الحياة المسيحيَّة. ويجب أن نستعدَّ لكونها هي أيضاً غريبة. فالله لم يستشرنا حين ابتكر الجنس، ولا استشارنا أيضاً لمَّا ابتكر هذا الأمر.

يتمُّ سرَيان حياة المسيح الجديدة إلينا من طريق ثلاث وسائط: المعموديَّة والإيمان وتلك المُمارَسة التي يكتنفها سرٌّ مّا والتي يُسمِّيها المسيحيُّون تسمياتٍ

شتَّى: مائدة الربّ، عشاء الربَ، كسر الخُبز، القُدَّاس. على الأقلّ، هذه هي الطرئق الثلاث المعتادة. فلا أقول إنَّها لا تسري بغير واحدة أو أكثر من هذه الطرائق، في حالاتٍ مخصوصة. إنَّما لا يتّسع لي الوقت كي أخوض في الحالات الخاصَّة، كما أنَّ معرفتي في هذا المجال غير كافية. فإذا كنتَ تحاول أن تقول لرجل كيف يصل إلى مدينة أدِنبُره فلا بدَّ أن تذكر له خطوط القطار. في وسعه حقّاً أن يصل إلى هناك بالسفينة أو الطائرة، ولكنّك لا تكاد تأتي على ذكر ذلك. ثمَّ إنَّني لا أقول شيئاً عن أيٍّ هذه الأشياء الثلاثة هو الأكثرُ جوهريَّة. فمن شأن صديقي الميثوديّ أن يريد منّي قول المزيد عن الإيمان، وأقلَّ من ذلك (نسبيّاً) عن العُنصرَين الآخرَين. إنَّما أيُّ مَن يقول أنَّهُ يُعلّمك العقيدة المسيحيَّة سيقولِ لك في الواقع إنَّه ينبغي لك أن تستخدم الثلاثة جميعاً، وهذا يفي بغرضنا الحاليّ.

لا أستطيع شخصيّاً أن أُدرِك لماذا ينبغي أن تكون هذه العناصر الثلاثة هي ناقلاتِ هذا النوع الجديد من الحياة. ولكن إذا حدث أنَّ أحداً لا يعرف، لم يكن ينبغي لنا أن نلمس أيَّ ترابُط بين متعةٍ جسديَّة مُعيَّنة وظهورِ كائن بشريّ جديد في العالم. فعلينا أن نقبل الحقيقة كما تأتينا، وليس ثمة كلام سريع جيد حول ما ينبغي أن تكون الحقيقة عليه أو ما كان ينبغي لنا أن نتوقَّع لها أن تكون. ولكنْ رغم عدم قدرتي على إدراك الأسباب الموجبة لهذه الحقيقة، يمكنني أن أقول لكم لماذا أومن بأنَّ الحال على هذا المنوال. لقد شرحتُ لماذا ينبغي لي أن أومن بأنَّ المسيح كان وسيبقى هو الله. ويبدو واضحاً، من حيثُ التاريخ، أنَّه علَّم أتباعه أنَّ الحياة الجديدة يتم إيصالها على النحو المذكور. بكلمة أُخرى، أنا أومن بهذا بناءً على سلطان المسيح. ولا تهولنَّك الكلمةُ «سلطان». فالإيمان بالأمور بناءً على سلطانٍ يرتبط بها إنَّما يعني الإيمانَ بها لأنَّك سمعتها من شخصٍ تحسبه جديراً بالثقة. وتسعة وتسعون في المئة من الأمور التي تؤمن بها إنَّما تؤمن بها بناءً على سلطانٍ أو مرجعيَّة مّا. فأنا أُصدِّق وجود مكانٍ اسمُه نيويورك، مع أنَّني لم أرهِ شخصيّاً. لا يمكنني أن أُبرهِن بالتعليل المجرَّد حتميَّة وجود مكانٍ كهذا. ولكنَّني أُومن بذلك لأنَّ أشخاصاً أهلاً للثقة أخبروني به. والإنسان العاديّ يُصدِّق وجود النظام الشمسي والذرّات ونموّ الكائنات والدورة الدمويَّة بناءً على مرجعيَّة ذات سلطان، أي لأنَّ العلماء يقولون بذلك. وكلُّ واقعة تاريخيَّة في العالم يصدِّقها الناس على أساس السلطان. فلا

أحد منّا عاين الغزو النورمانديّ، أو هزيمة أُسطول الأرمادا الاسبانّي. ولا أحد منّا يستطيع أن يبرهنهما بالمنطق المحض، كما نبرهن أمراً في الحساب أو الرياضيّات، بل إنّما نصدّق حصولهما لأنّ أشخاصاً عاينوهما فعلاً خلّفوا لنا آثاراً مكتوبة تخبرنا عنها، أي، في الحقيقة، بناءً على سلطانٍ ما. والإنسان الذي تنتابه وساوس السُّلطان في سائر أُمور الحياة، كما يحصل لبعضهم في ما يتعلّق بالدين، سيكون عليه أن يقنع بألاّ يعرف أيَّ شيءٍ طوال عمره.

لا تظنَّ أنّني أُنصّب المعموديّة والإيمان وعشاء الربّ على أنّها أُمور تفي بالغرض بدلاً من تسليم أمرك للمسيح والتشبُّه به عمليّاً. فإنّ حياتك الطبيعيّة مُستمدَّة من أبويك، ولكنّ ذلك لا يعني أنّها ستبقى قائمةً إذا لم تقُم بأيّ شيءٍ في شأنها. ومن الممكن أن تفقدها من جرّاء الإهمال، أو من الممكن أن تُبدِّدها وتطردها بالانتحار. فعليك أن تُغذّيَها وتعتنيَ بها، إنّما تذكّر دائماً أنّك لست صانعها، فما أنت سوى صائنٍ لحياة نلتَها من شخص آخر. بالطريقة نفسها كان يمكن للمرء (لولا نعمةُ الله!) أن يُبدِّد حياة المسيح التي بُثَّت فيه، وينبغي له أن يصونها ويتعهَّدها باذلاً كلَّ جهد. ولكنْ حتّى أفضلُ مسيحيٍّ أتى على وجه الأرض لا يقوم بذلك بطاقتِه الشخصيّة. فهو إنّما يُغذّي أو يصون حياةً لم يكن ممكناً قطُّ أن يكتسبها بمجهوداته الشخصيّة. وتترتّب على ذلك عواقبُ عمليّة طبعاً. فما دامتِ الحياة الطبيعيّةُ في جسدك، فهي ستقوم بالكثير في نطاق إصلاح ذلك الجسد وتجديده. وإذا جرحتَ جسدك، فإنّه سيُشفى إلى حدٍّ ما، كما لا يُشفى جسدٌ ميْتٌ أبداً. وليس الجسد الحيُّ جسداً لا يُصيبه الأذى البتّة، بل هو جسدٌ يُمكِن إلى حدٍّ معيَّن أن يُصلح ويُرمِّم ذاته. على هذا المنوال، ليس المسيحيُّ الحقيقيُّ إنساناً لا يقع في الخطإ أبداً، بل هو إنسانٌ وُهِب القدرة على أن يتوب ويقوم ويستأنف مسيرته بعد كلِّ تعثُّر، وذلك لأنّ حياة المسيح موجودةٌ في داخله مُجدِّدةً إيّاه كلَّ حين، مزوِّدةً إيّاه بالقدرة على أن يُعيد (إلى حدٍّ ما) مثلَ ذلك الموتِ الطوعيِّ الذي نفّذه المسيح نفسُه.

لذلك السبب نجد المسيحيَّ المؤمن في موقع يختلف عن مواقع الأشخاص الآخرين الذين يحاولون أن يكونوا صالحين. فأُولئك يأملون، بكونهم صالحين، أن يُرضوا الله إذا كان موجوداً؛ وإذا كانوا يحسبون أنْ ليس مِن إله فعلى الأقلّ يأملون أن يستحقُّوا الاستحسان من قِبَل القوم الصالحين. غير أنّ المسيحيَّ يعتقد

أنَّ أيَّ خيرٍ يقوم به إنَّما يصدر من حياة المسيح السارية فيه. وهو لا يعتقد أنَّ الله سيحبُّنا لكوننا صالحين، بل أنَّه سيجعلنا صالحين لكونه يحبُّنا؛ تماماً كما أنَّ دفيئة الزَّرع الزجاجيَّة لا تجتذب الشمس لأنَّها متألِّقة بالضياء، بل هي تصير متألِّقة لأنَّ الشمس تشعُّ عليها.

ولأوضِحْ تماماً أنَّه عندما يقول المسيحيُّون المؤمنون إنَّ حياة المسيح فيهم فهم لا يقصدون مجرَّد أمرٍ عقليٍّ أو خُلقيّ. فحين يتحدَّثون عن كونهم «في المسيح»، أو عن كون المسيح «فيهم»، لا يكون ذلك مجرَّد طريقة للقول إنَّهم يُفكِّرون في المسيح أو يقتدون به. إنَّما يقصدون أنَّ المسيح عاملٌ بهم فعلاً: أنَّ جماعة المؤمنين بالمسيح كلَّها هي الكائن العضويُّ الطبيعيُّ الذي بواسطته يعمل المسيح، أنَّنا نحن أصابعُه وعضلاته وخلايا جسمه. ولعلَّ هذا يُوضِّح أمراً أو أمرين. فهو يوضِّح لماذا تسري هذه الحياة الجديدة ليس فقط بأفعالٍ عقليَّة صرف كالإيمان أو التصديق، بل أيضاً بأفعالٍ ملموسة كالمعموديَّة وعشاء الربّ. وليس ذلك مجرَّد انتشار فكرة، بل هو أشبه بعمليَّة النموِّ الطبيعيَّة، إذ إنَّه حقيقية بيولوجيَّة أو «فَوقبيولوجيَّة» (فوق علم الأحياء). فلا خيرَ في محاولة المرء أن يكون أكثر روحانيَّةً من الله. ولم يقصدِ اللهُ قطُّ للإنسان أن يكون كائناً روحيّاً محضاً. لذلك يستخدم عناصر ماديَّة كالخبز والخمر لإحياء الحياة الجديدة فينا. قد نحسب ذلك جافياً أو غيرَ روحيٍّ بالأحرى. غير أنَّ الله لا يرى ذلك، فهو مَنِ ابتكر الأكل، وهو يحبُّ المادَّة، وهو خالقها.

وهاك أمراً آخر طالما حيَّرني في الماضي: أليس من الجَور المروِّع أن تكون هذه الحياة الجديدة مقتصرةً على الذين سمعوا بالمسيح وتمكَّنوا من الإيمان به؟ ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ الله لم يُطلِعنا على ماهيَّة ترتيباته بالنسبة إلى الأقوام الأخرين. فنحن نعلم أنَّه لا يمكن أن يخلص أحد إلاَّ بالمسيح. ولكن لا نعلم أنَّ الذين يعرفونه فقط هم الذين يمكنهم أن يخلصوا به. إنَّما في هذه الأثناء، إذا كنتَ قلِقاً بشأنِ الذين هم في الخارج، يكون أوَّل أمر غير معقول قد تفعله هو أن تبقى خارجَ نفسك. فالمسيحيُّون المؤمنون هم جسد المسيح: الكائنُ العضويُّ الذي به يعمل المسيح عمله. وكلُّ إضافةٍ إلى هذا الجسد تمكنه من مضاعفة العمل. فإذا أردتَ أن تساعد أولئك الذين في الخارج، يجب عليك أن تضمَّ خليَّتك الخاصَّة الصغيرة إلى جسد المسيح القادر وحدَه على مساعدتهم. إذ إنَّ قطع أصابع امرئٍ سيكون طريقة غريبة

لحمله على القيام بمزيدٍ من العمل!

وها هنا اعتراضٌ آخر ممكن: لماذا يهبط الله إلى هذا العالمَ الذي يحتلّه العدوُّ، مُتنكِّراً ومُنشئاً ما يُشبه الحركة السرِّيَّة لتقويضِ سُلطة إبليس؟ لماذا لا يهبط بقوَّة مجتاحاً العالمَ اجتياحاً؟ أليس له من القوَّة ما يكفي؟ أجل، يؤمن المسيحيُّون بأنَّه سيهبط بقوةٍ آخِرَ الأمر، ولا ندري متى. إنَّما يمكننا أن نحزر لماذا يتأنَّى. فهو يريد أن يُتيح لنا فرصة الانضمام إلى صفِّهِ بملء حرِّيَّتنا. ولا أحسب أنَّنا، أنا وأنتم، كنَّا نقدِّر كثيراً رجلاً فرنسيّاً ينتظر بدء زحف الحلفاء إلى داخل ألمانيا حتَّى يُصرِّح عندئذٍ بأنَّه في صفِّنا. حقّاً إنَّ الله سوف يجتاح هذا العالم. ولكنَّني أُسائل نفسي بشأن أولئك الذين يطلبون إلى الله أن يتدخَّل علانيةً ومباشرةً في عالمنا: هل يدركون تماماً كيف ستكون الأحوال عندما يتدخَّل فعلاً؟ عندما يحدث ذلك، تكونُ نهايةُ العالم! فحين يمشي مؤلِّف المسرحيَّة على المسرح، تكون المسرحيَّة قد انتهت. صحيحٌ أنَّ الله سيجتاح هذا العالم، ولكنْ أيُّ خير في قولك آنذاك إنَّك في صفِّه، بعد أن ترى الكون الطبيعيَّ كلَّه يتلاشى كحلم وشيئاً آخر ينقضُّ ساحقاً ماحقاً، شيئاً ما خطر في بالك يوماً أن تتصوَّره، شيئاً رائعاً للغاية بالنسبة إلى بعضٍ منا ومُروِّعاً جدّاً للآخرين، بحيث لا يبقى بيد أيٍّ منّا أيُّ خِيار؟ فتلكَ المرَّةَ سيكون الله ظاهراً بغير قِناع، وهذا أمر غامرٌ للغاية بحيث يبعث إمَّا محبَّةً لا تُقاوَم وإمَّا رعباً لا يُقاوَم في قلبِ كلِّ مخلوق. وسيكون أوان اختيارك للصفِّ الذي تقف فيه قد فات. فلا خير في قولك إنَّك تختار أن تتمدَّد أرضاً حين بات يستحيل عليك أن تقفَ على قدميك. ولن يكون ذلك وقت اختيار، بل سيكون وقت اكتشافك أيَّ صفٍّ وقفتَ فيه فعلاً، سواءٌ علمتَ ذلك قبلاً أم لم تعلمه. فالآن، اليوم، هذه اللحظةَ، فرصتُنا لاختيار الصفِّ الصحيح. والله إنَّما يتأنَّى كي يُوفِّر لنا هذه الفرصة. وهي لن تدوم إلى ما لا نهاية. فإمَّا نغتنمها، وإمَّا تفوتُنا.

الباب الثالث

السلوك المسيحي

I

أبعاد الأخلاقيّات الثلاثة

تُحكى قصّة عن تلميذ صغير سُئل عن فكرته بشأنِ الله. فأجاب بأنّ الله، حسْبما يستطيع أن يُخمّنه، «يُشبه شخصاً يجول متطفّلاً ليرى إن كان أيُّ شخص يتمتّع بالسرور فيُحاوِل أن يُوقِفه عن ذلك». وأخشى أن يكون ذلك شبيهاً بالفكرة التي تُثيرها كلمة «الأخلاق» في أذهان عدد كبير من الناس: شيءٌ ما يتدخّل في شؤونك، شيءٌ يكفُّك عن التمتُّع والابتهاج. وفي الواقع أنّ القواعد الأخلاقيّة هي تعليمات تتناول تشغيل المَكَنة البشريّة. فكلُّ قاعدة خُلقيّة إنّما كانت لمنع حصول عطل أو إجهاد أو احتكاك في تشغيل تلك المَكَنة. ولذلك تبدو هذه القواعد أوّلَ وهلة متدخِّلةً دائماً في ميولنا الطبيعيّة. فحين تُعلَّم كيف تستعمل أيَّ مكنة، يظلُّ المُوجِّه يقول: «لا، لا تقم بالأمر بهذه الطريقة»، لأنّ هنالك بالطبع أموراً شتّى تظهر صحيحةً وتبدو لك على أنّها الطريقة الطبيعيّة لمعاملة المكنة، غير أنها لا تنفع فعلاً.

يؤثِر بعضُهم الحديث عن «مُثل عُليا» أخلاقيّة، بدلاً من القواعد الخُلقيّة، وعن «مثاليّة» خُلقيّة بدلاً من الطاعة الخُلقيّة. فالآن، صحيحٌ تماماً بالطبع أنّ الكمال الخُلقيَّ «مثالٌ أعلى» (أو «مثاليّ») بمعنى أنّنا عاجزون عن بلوغه. وبهذا المعنى، يكون كلُّ نوع من الكمال مثالاً أعلى بالنسبة إلينا نحن البشر. فلا يمكننا مثلاً أن ننجح في أن نكون سُوّاق سيّارات كاملين، أو لاعبي تَنِس كاملين، أو راسمي خطوط مستقيمة استقامةً كاملة باليد المجرّدة. ولكنَّ هناك معنىً آخر فيه يكون أمراً مُضلّلاً للغاية أن ندعو الكمال الخُلقيَّ مثالاً أعلى. فعندما يقول رجلٌ مّا إنّ امرأةً، أو بيتاً أو سفينة أو حديقةً معيَّنة، هي «مثاليّةٌ» في نظره، فهو لا يعني أنّ كلَ امرىءٍ

سواه ينبغي أن يكون له هذا المثالُ الأعلى بعينه (إلاّ إذا كان مُغفّلاً بالحقيقة). ففي شؤون كهذه، يحقُّ لنا أن نحوز أذواقاً مختلفة، وتالياً: مُثلاً عليا مختلفة. ولكنّه أمرٌ خطِر أن نصف شخصاً يبذل أقصى جهدٍ لالتزام القانون الخُلقيّ بأنّه «صاحبُ مُثل عُليا»، لأنّ ذلك قد يحملك على حسبان الكمال الخُلقيّ ذوقاً خاصّاً لديه، والظنّ بأنّنا نحنُ الآخرين لسنا مدعوّين للمشاركة في ذلك. فمن شأن هذه أن تكون غلطة كارثيّة. وربّما كان السلوك الكامل مُتعذّر البلوغ مثلَ تغيير السرعات بطريقة كاملة في أثناء قيادة السيّارة. غير أنّ ذلك السلوك مثالُ أعلى ضروريٌّ تمليه على جميع البشر طبيعةُ المَكَنة البشريّة ذاتُها، تماماً كما أنّ تغييرَ السرعاتِ المثاليّ مثالٌ أعلى تُمليه على جميع السُوّاق طبيعةُ السيّارات ذاتُها. وسيكون أخطرَ بعدُ أن يحسب المرءُ نفسَه «صاحب مُثل عُليا» لأنّه يحاول ألاّ يكذب أبداً (بدلاً من مجرّد الكذب قليلاً جدّاً) أو ألاّ يرتكب الزِّني البتّة (بدلاً من ارتكابه نادراً فقط)، أو ألاّ يكون مُستأسِداً أو متنمّراً قطعاً (بدلاً من كونه مجرّدَ مُستأسِد أو مُتنمّر معتدل). فقد يُفضي بك ذلك لأنْ تكون متزمّتاً وتعتقد أنّك بالحريّ شخصٌ مميّز يستحقّ أن يُهنّأ على «مثاليّته». وبالحقيقة أنّك قد تتوقّع أيضاً أن تُهنّأ لأنّك حين تقوم بعمليّة جمع حسابيّة تحاول أن تحصل على المجموع الصحيح تماماً. يقيناً أنّ الحساب الصحيح «مثالٌ أعلى» ومثالي، غير أنّك سترتكب حتماً بعض الأغلاط في بعض العمليّات الحسابيّة. ولكنْ ليس من أمرٍ رائع جدّاً في محاولتك أن تكون دقيقاً للغاية في كلّ خطوة من خُطوات كلّ عمليّة حسابيّة. سيكون من الغباوة ألاّ تحاول ذلك، لأنّ كلّ غلطة ستكلّفك عناءً في ما بعد. على هذا المنوال، لا بدّ أن يُلحِق كلّ إخفاق أخلاقيٍّ الضرر، ربّما بالآخرين، إنّما حتماً بك أنت. فبالتكلّم عن القوانين والطاعة، بدلاً من «المُثل العليا» و«المثاليّة»، نُساعِد على تذكير أنفسنا بهذه الحقائق.

والآن، لِنخطُ خطوةً أُخرى بعد. ثمّة طريقتان تتعطّل بهما المَكَنة البشريّة. إحداهما عندما يتباعد الأفراد البشريُّون بعضُهم عن بعض، أو يتصادمون بعضهم ببعض، فيؤذي أحدهم الآخر بالخداع والاستئساد. والطريقة الأُخرى عندما تفسد الأمور داخل الفرد نفسه: عندما يحدث أنّ مختلف أجزائه (مختلف قدراته ورغباته ونحوها) إمّا تنحرف وتتباعد، وإمّا تتداخل بعضُها في بعض. ويمكنك أن تحصل على فكرة واضحة عن هذا الأمر إذا فكّرتَ فينا نحن البشر كما لو كنّا

أُسطول سُفن تُبحِر في تشكيل متناسق. فإنَّ الرحلة لن تُحرِز النجاح إلاَّ إذا لم تتصادم السفن أولاً ولم تعترض بعضُها في طريقِ بعض؛ وثانياً إذا كانت كلُّ سفينة صالحةً للإبحار ومحرِّكاتُها في حالٍ جيِّدة. وفي الحقيقة أنَّك لا تستطيع أن تحوز أيّاً من هذين الأمرين دون الآخر. فإذا ظلَّتِ السفن تتصادم فلن تظلَّ صالحةً للإبحار طويلاً. ومن الناحية الأخرى، إذا كانت أجهزة التوجيه في السفن خَربِة، فإنَّها لن تتمكَّن من تجنُّب الاصطدام. أو إذا شئتَ ففكِّر في البشريَّة كما لو كانت فرقة موسيقيَّة تعزف لحناً. فلكي تحصل على نتيجة جيِّدة، تحتاج إلى أمرين: ينبغي أن تكون آلةُ كلِّ عازف في حالة جيِّدة، كما ينبغي أن يُباشِر كلُّ عازفٍ عزفه في اللحظة المؤاتية بحيث يتآلف مع سائر النغمات.

إلاَّ أنَّ ثمَّة أمراً لم نأخذه في حسباننا. فنحن لم نسأل إلى أين يحاول الأُسطول أن يصل، ولا أيَّة مقطوعة موسيقيَّة تحاول الفرقة أن تعزف. فقد تكون الآلات كلُّها مُدَوزنة، وقد تُعزف كلُّ واحدةٍ منها في اللحظة الصحيحة، ومع ذلك لا يُحرِز الأداء نجاحاً إذا شُغِّلت الآلات لإصدار لحنِ رقص، غير أنَّها لم تعزف إلاَّ نشيد الموت. ثُمَّ مهما كان إبحار الأُسطول حسناً، فإنَّ رحلته ستُمنى بالفشل إذا كان مقرَّراً أن يصل إلى نيويورك ولكنَّه وصل إلى كالكُتّا.

يبدو إذاً أنَّ المفهوم الخُلقيَّ معنيٌّ بثلاثة أُمور. أوّلاً، بحُسنِ التعامل والتناغُم بين الأفراد. وثانياً، بما يمكن أن ندعوه ترتيب الأمور وإقامة التناغُم بينها داخلَ كلِّ فرد. وثالثاً، بالغاية العامَّة للحياة الإنسانيَّة ككُلّ: ما صُنع الإنسان لأجله، في أيِّ خطٍّ ينبغي أن يسير الأُسطول كلُّه، أيُّ لحنٍ يريد قائد الفرقة أن تعزفه الفرقة.

ولعلَّك لاحظتَ أنَّ أهل عصرنا يكادون دائماً يفكِّرون في أوَّل هذه الأُمور، وينسَون الباقِيَين. فعندما يقول الناس في الصُحف إنَّنا نُكافح لأجل معايير خُلقيَّة مسيحيَّة، يعنُون عادةً أنَّنا نكافح في سبيل المودَّة والإنصاف بين الأُمم والطبقات والأفراد، أي أنَّهم يفكِّرون فقط في الأمر الأوَّل. وعندما يقول إنسانٌ عن شيء يريد أن يفعله: «لا يمكن أن يكون خطأً لأنَّه لا يسبِّب الأذى لأيِّ شخصٍ آخر»، فهو إنَّما يفكر في الأمر الأوَّل فقط. إنَّه يفكر بأن حالة سفينته من الداخل لا تهمُّ ما دام لا يصطدم بالسفينة الأخرى. ومن الطبيعيِّ تماماً، عندما نباشر التفكير في الأخلاقيّات، أن نبدأ بالأمر الأوَّل، أي بالعلائق الاجتماعيَّة. وذلك لسببٍ وجيه:

أنَّ عواقب سوء الأخلاق في هذه الدائرة بديهيَّةٌ جدّاً وتشدُّ علينا الخناق كلَّ يوم، من حرب وفقر وابتزاز وكذب وأعمال دنيئة. كما أنَّه، ما دمنا متوقِّفين عند الأمر الأوَّل، لا يحصل إلاَّ خلاف ضئيل جدّاً حول المفهوم الخُلقيّ. فجميع الناس تقريباً في كلِّ زمان قدِ اتَّفقوا (نظريّاً) على أنَّ البشر يجب أن يكونوا مستقيمين ولطفاء ومُعاوِنين بعضُهم لبعض. ولكنْ رغم كون البدء بذلك كلّه أمراً طبيعيّاً، فلو توقَّف تفكيرُنا في الأخلاقيَّات عند هذا الحدّ فلربَّما كان كما لو أنّنا لم نُفكّر أصلاً. وما لم نتقدَّم إلى الأمر الثاني (إشاعة الترتيب والتناغُم داخل كلِّ كائن بشريّ) فنحنُ إنَّما نخدع أنفسنا.

أيُّ خير في تعليم السفن كيف تُبحِر حتّى تتجنَّب الاصطدام، إذا كانت في الواقع مراكب قديمة ومُتداعية بحيث يتعذَّر تسييرُها كلّيّاً؟ وأيُّ خير في أن نرسم على الورق قواعد للسلوك الاجتماعيّ، إذا كُنّا في الواقع نعرف أنَّ جشعنا وجبننا وغرورنا سوف تحول دون تطبيقنا لها؟ لستُ أعني لحظةً أنّه ينبغي لنا ألاَّ نُفكّر تفكيراً جدّيّاً وجادّاً في إدخال تحسينات على نظامنا الاجتماعيّ والاقتصاديّ. بل ما أعنيه حقّاً هو أنَّ تفكيرنا كلَّه سيكون مجرَّد جهدٍ باطل ما لم ندرك أنّه ليس من شيء سوى شجاعة الأفراد ولاأنانيَّتهم هو ما سيجعل أيَّ نظام يسير سيراً حسناً على الإطلاق. وسهلٌ أن نزيل الابتزاز والاستئساد الجاريَين في ظلِّ النظام القائم. ولكنْ ما دام البشر محتالين أو مستأسدين فسيهتدون إلى طريقةٍ مّا لاستئناف اللعبة القديمة في ظلِّ النظام الجديد. فلا يمكنك أن تجعل الناس صالحين بالقانون، وبغير ناسٍ صالحين لا يمكنك أن تحصل على مجتمع صالح. ولهذا السبب ينبغي أن نتقدَّم للتفكير في الأمر الثاني، أي المفهوم الأخلاقيِّ داخل الفرد.

ولكنَّني لا أعتقد أنَّ في وسعنا التوقُّفَ هناك أيضاً. فها نحن الآن على وشك الوصول إلى النقطة التي فيها تؤدّي المعتقدات المختلفة بشأن الكون إلى سلوك مختلف. ولا بدَّ أن يبدو، أوَّلَ وهلة، أنَّ من المنطقيّ جدّاً أن نتوقَّف قبل بلوغ تلك النقطة ونكتفيَ بأن نستمر في مراعاةِ عناصرِ الأخلاقيَّات التي يتَّفق عليها ذوو العقول جميعاً. ولكنْ هل نستطيع ذلك؟ تذكَّر أنَّ الدين يشتمل على سلسلة من التصريحات بشأن الحقائق، يجب أن تكون هذه التصريحات إمَّا صحيحة وإمَّا باطلة. فإذا كانت صحيحة، فستترتَّب عليها مجموعةٌ من الاستنتاجات بشأن إبحار

الأُسطول البشريِّ إبحاراً صحيحاً؛ وإذا كانت باطلة، تترتَّب عليها مجموعة أُخرى مختلفة تماماً. لنرجع مثلاً إلى ذلك الإنسان الذي يقول إنَّ أمراً من الأمور لا يمكن أن يكون غلطاً إلاَّ إذا آذى كائناً بشريّاً آخر. فذلك الإنسان يعي تماماً أنَّ عليه ألاَّ يُعطِّل السُفن الأُخرى في الموكب، غير أنَّه يعتقد صادقاً أنَّ ما يفعله بسفينته الخاصَّة هو شأنه الشخصيُّ فحسْب. ولكنْ ألا ينجم فرقٌ كبير عن كون سفينته مِلكاً خاصّاً له أو عدم كونها كذلك؟ ألا يحدث فرقٌ كبير من كوني، إذا جاز التعبير، مالكَ عقلي وجسمي أو كوني مجرَّد وكيل مسؤولٍ عنهما أمام المالك الحقيقيّ؟ وإذا كان شخصٌ آخر قد صنعني، لأجل مقاصده الخاصَّة، فسيكون لديَّ كثيرٌ من الواجبات التي ما كانت لتكون لديَّ لو كنتُ مِلكَ نفسي فحسب.

ثمَّ إنَّ المسيحيَّة تؤكِّد أن كلَّ كائن بشريّ فَرد سوف يحيا إلى الأبد، ولا بدَّ أن يكون هذا إمَّا صحيحاً وإمَّا زائفاً. فالآن، هنالك مقدارٌ كبير جدّاً من الأمور لا يكون مستحقّاً القلق بشأنه لو كنتُ سأعيش سبعين سنةً فقط، ولكنْ سيكون أفضل لي أن أُعنى به عنايةً جدِّيَّة جدّاً إذا كنت سأعيش إلى الأبد. فربَّما يكون سوء طبعي أو غيرتي آخِذَين في التحوُّل نحو الأردإ بصورة تدريجيَّة، بحيث لن تكون زيادة الرداءة ممكنةَ الملاحظة كثيراً. ولكنَّ الحال ستغدو جحيماً مطلقاً في غضون مليون سنة. وبالحقيقة أنَّ جهنَّم، إذا صدقتِ المسيحيَّة، هي اللفظةُ التقنيَّة الدقيقة التي تصف تلك الحالة الرهيبة. ثُمَّ إنَّ الخلود يُحدِث هذا الفرق الآخر الذي له، بالمناسبة، ارتباط بالفرق بين الاستبداد والديمقراطيّة: إذا كان الأفراد يعيشون فقط سبعين سنة، فإنَّ دولةً أو أُمَّةً أو حضارةً، وهي قد تعيش ألفَ سنة، تكون أهمَّ من أيِّ فرد. ولكن إذا صدقت المسيحيَّة، فلا يكون الفرد أكثر أهميَّةً فقط بل يكون أكثر أهميَّةً بما لا يُقارن، لأنَّه باقٍ إلى الأبد، وما حياة الدولة أو الحضارة سوى لحظةٍ واحدة إذا قورنت بالأبديَّة.

يبدو إذاً أنَّه إذا كان لنا أن نفكِّر في الخلود فينبغي أن نفكِّر في المجالات الثلاثة كلِّها: العلائق بين الإنسان والإنسان؛ الأحوال في داخل كلِّ إنسان؛ العلائق بين الإنسان والقدرة التي خلقته. وفي وسعنا جميعاً أن نتفاعل ونتعاون معاً في المجال الأوَّل. إنَّما تبدأ التعارُضات في المجال الثاني، ثمَّ تصير أدهى وأخطر في الثالث. وفي ما يتعلَّق بالمجال الثالث، تبرز الفوارق الرئيسيَّة بين الأخلاقيَّات المسيحيَّة

والأخلاقيّات غير المسيحيَّة. ففي ما تبقَّى من هذا الكتاب، سأعتمد وجهة النظر المسيحيَّة وأنظر إلى الصورة بكاملها كما تكون عليه إن صدقتِ المسيحيَّة.

٢

(الفضائل الأساسيّة)

أُنشئَ الجزء السابق أصلاً ليُقدَّم كحديث إذاعيٍّ قصير. فإذا طُلب إليك أن تتحدَّث عشرَ دقائق فقط، يحسن بك إلى أبعد حدٍّ أن تُضحِّيَ بكلّ شيء تقريباً في سبيل الإيجاز. وقد كان أحد الأسباب الرئيسيَّة التي من أجلها قسَّمتُ الأخلاقيَّات إلى ثلاثة مجالات (بما في ذلك استعارتي للسفن المُبحِرة في موكب) أنَّ تلك بَدَت أقصر طريقة للتعبير عن فحوى الموضوع. وسأُورِد هنا فكرةً ما عن طريقة أُخرى بها فرَّع الكتَّابُ الأقدمون موضوع الأخلاق، وهي أطولُ من أن أتطرَّق إليها في حديثي الإذاعيّ، ولكنَّها طريقة جيِّدة جدّاً.

فبحسب هذه الترسيمة الطُولى، توجد سبع «فضائل». أربعٌ منها تُدعى «فضائل أساسيَّة»، فيما تُدعى الثلاثُ الباقية «فضائل لاهوتيَّة». أما الفضائل «الأساسيَّة» فهي تلك التي تُراعيها جميع الشعوب المتحضِّرة؛ وأمَّا «اللاهوتيَّة» فهي تلك التي يعرفها المسيحيُّون وحدهم عادةً. وسأتناول الفضائل اللاهوتيَّة لاحقاً. أمَّا الآن فأنظرُ في الفضائل الأساسيَّة الأربع، تلك الفضائل المحوريَّة أو المفصليَّة، وهي: التعقُّل، الاعتدال، العدل، الثبات.

معنى التعقُّل هو الفطرة السليمة العمليَّة: أن تُكلِّف نفسك عناء التفكير في ما أنت فاعلُه وفي ما يُرجَّح أن يُسفِر عنه. ولا يكاد معظم الناس اليوم يفكِّرون في التعقُّل على أنَّه إحدى «الفضائل». وبالحقيقة، لأنَّ المسيح قال إنَّنا لا نقدر أن ندخل عالَمَهُ إلاَّ بصيرورتنا مثل الأطفال، داخلت رؤوسَ كثيرين من المسيحيِّين الفكرةُ القائلة بأنَّه لا يهمُّ أن تكون مُغفَّلاً ما دمت «طيِّباً». ولكنَّ هذا سوءُ فهم. ففي المقام الأوَّل، مُعظم الأولاد يُبدون كثيراً من «التعقُّل» في شأن قيامهم بالأمور التي

تستهويهم حقّاً، ويُفكّرون فيها بمعقوليّة مقبولة. وفي المقام الثاني، كما يُنوِّه الرسول بولس، لم يعنِ المسيح قطُّ أنّه ينبغي لنا أن نبقى أطفالاً في التفكير، ولكنّه على العكس طلب منّا أن نكون لا «بُسطاء كالحمام» فقط بل «حكماء كالحيات» أيضاً. فهو يريد قلبَ طفل، لكنْ عقلَ راشد. إنّه يريد لنا أن نكون بُسطاء، مُخلصين، مُحِبّين، مستعدّين للتعلُّم، شأننا شأن الأولادِ الطيّبين. ولكنّه أيضاً يريد أن يكون كلُّ جزء من فطنتنا متيقّظاً في عمله، وعلى أُهبة الاستعداد تماماً. فحقيقة تبرُّعك بمبلغٍ من المال لأجل عملِ إحسان لا تعني أنْ ليس عليك أن تحاول التحقُّق من كونِ ذلك إحساناً فعليّاً، لا عمليّةَ احتيال. وحقيقة كون الله هو ما تُفكّر فيه (كما عند الصلاة مثلاً) لا تعني أنّه يمكنك أن تقنع بمثل تلك الأفكار الصبيانيّة التي كانت لك لمّا كنتَ ابن خمس سنِين. صحيحٌ بالطبع أنّ الله ما كان ليُحبّك أقلَّ قطعاً، أو يستخدمَك استخداماً أقلَّ، إذا صدف أنّك وُلدِت بعقلٍ رديءٍ جدّاً. فإنّ لديه مُتّسعاً لذوي الإدراك المحدود جدّاً، ولكنّه يريد من كلّ إنسان أنْ يستخدم الإدراك الذي لديه. وهكذا يكون الشعار المعقول ليس: «كوني صالحة، يا مليحة، ودعي مَن يقدرُ يكُن ذكيّاً،» بل: «كوني صالحة، يا مليحة، ولا تنسَي أنّ هذا يعني أيضاً أن تكوني أذكى ما يُمكنُكِ.» فالله لا يعجبه المُتهاونين في التفكير أكثر من سواهم من المُتهاونين. وإذا كنت تُفكّر في أن تصير مسيحيّاً بالحقّ، فإنّي أُنبّهك إلى أنّك تباشر أمراً يحتاج إلى مُجمل كيانك، إلى عقلك وكلّ ما فيك سواه. ولكن من الخير أنّ العمليّة تجري بطريقة معاكسة. فأيُّ شخص يحاول صادقاً أن يكون مسيحيّاً بالحقّ لا يلبث أن يجد أنّ ذكاءه بدأ يتوقّد. وأحد أسباب عدم الاحتياج إلى تعليم خاص كي يصير المرء مسيحيّاً حقيقيّاً هو أنّ المسيحيّة هي تعليم بحدّ ذاتها. ولذلك السبب استطاع مؤمن غير مُتعلّم مثل جان بَنيان أن يكتب كتاباً أذهل العالم (كتاب «سياحة المسيحي»).

أمّا الاعتدال فمن المؤسف أن تغييراً لحق بمعناه. إذ بات يعني عند بعضهم عادةً «الامتناع التام عن المسكرات». ولكنْ أيّامَ دُعيَتِ الفضيلة الأساسيّة الثانية «الاعتدال» لم تكن تعني شيئاً من ذلك النوع. فإنّ نطاق الاعتدال لم يكن يقتصر على المُسكِرات، بل كان يشمل جميعَ الملذّات. ولم يكن يعني الامتناع الكلّيّ، بلِ الاكتفاء بالمقدار السليم وعدم تخطّيه. فمن الخطإ اعتبارُ المسيحيّة ديناً يطالب

بالامتناع الكلِّيِّ، وكأنَّها طريقة نُسكيَّة تقشُّفيَّة. طبعاً، قد يكون من واجب مسيحيٍّ معيَّن، أو أيِّ مسيحيٍّ آخر، في وقتٍ معيَّن أن يمتنع عن أيِّ مشروب كحوليٍّ، إمَّا لكونه من الأشخاص الذين لا يقدرون أن يشربوا أبداً بغير أن يُفرِطوا في الشرب، وإمَّا لوجوده في محيطٍ يكثر فيه الميَّالون إلى السُّكْر ووجوبِ عدم تشجيعه لهم بتناول الشراب شخصيّاً. ولكنَّ بيت القصيد أنَّه يمتنع، لسبب وجيه، عن شيءٍ لا يدين غيره على تناوله في حدود المعقول. ومن العلامات التي تميِّز نوعاً معيَّناً من الأردياء أنْ يعجز المرء عن التخلِّي عن شيءٍ بعينه دون أن يريد من كلِّ شخص سواه أن يتخلى عن ذلك الشيء. فليس هذا سبيل المسيحيّ. فرُبَّ مسيحيٍّ فردٍ قد يستحسن التخلِّيَ عن أمورٍ شتَّى، كالزواج أو اللحم أو البيرة أو السينما، ولكنْ لحظةَ يبدأ يقول إنَّ هذه الأمور سيِّئة في ذاتها، أو ينظر بازدراءٍ إلى سواه ممَّن يستعملونها، يكون قد انحرف عن سواء السبيل.

ولقد نتج أذىً كبيرٌ من تقييد كلمة «الاعتدال» في مسألة المُسكِرات. فهذا الواقع يُسهم في إنساء الناس أنَّهم يمكن ألاَّ يكونوا معتدلين في كثير من الأمور الأخرى. فالرجل الذي يجعل كرة القدم أو درَّاجته الناريَّة مركز حياته، أو المرأة تصرف كلَّ أفكارها نحو الثياب أو لعب الورق أو كلبها الأليف، هما غير «معتدلين» تماماً مثل الشخص الذي يسكر كلَّ ليلة. إنَّما بالطبع لا يظهر ذلك بسهولةٍ في العَلَن: فهَوَسُ لعب الورق أو كرة القدم لا يجعلك تترنَّح وتسقط على قارعة الطريق. ولكنَّ الله لا تغشُّه المظاهر!

أمَّا العدل فيعني أكثر بكثيرٍ من الأمور التي تجري في المحاكم. إنَّه يشمل الإنصاف وحُسن المعاملة والاستقامة والسويَّة والصدق والوفاء بالوعد، وكامل نطاق الحياةِ هذا.

وأمَّا الثبات فيشتمل على كِلا نوعَي الشجاعة: ذاك الذي يواجه الخطر، وذاك الذي يُعين المرءَ على الجَلَد والتماسك وسط معاناة الألم. وستلاحظ بالطبع أنَّك لا تستطيع أن تمارس أيَّة واحدة من الفضائل الأُخر وقتاً طويلاً بغير أن تُطلِق يد هذه الفضيلة بالذات.

تبقى نقطة أُخرى بشأن الفضائل تنبغي ملاحظتُها: أنَّ بين القيام بفعلٍ مُعيَّن يتَّسم بالعدل، أو الاعتدال، وكون المرء إنساناً عادلاً، أو معتدلاً، فرقاً بديهيّاً.

فالشخص الذي ليس لاعب تَنِس بارعاً قد يضرب ضربةً موفَّقة بين حينٍ وآخر. وما نعنيه باللاَّعب البارع أنّه امرؤٌ قد تدرَّبت عضلاتُه وأعصابه جيِّداً من جرَّاء تأديتها ضرباتٍ جيِّدة لا حصر لها بحيث بات يمكنه أن يركن إليها. فإنَّ عضلاته تتميَّز بنشاطٍ كامن أو ميزةٍ ثابتة تبقى حاضرةً حتَّى لو لم يكنِ اللاعب يلعب، كما يكون عقلُ عالم الرياضيَّات متميِّزاً بعادةٍ واستشرافٍ حاضرَين دائماً حتَّى لو لم يكن قائماً بالعَمليّات الرياضيَّة. على هذا المنوال، يكتسب الإنسان الذي يواظب على القيام بأفعالِ العدل والإنصاف مزيَّةً خُلقيَّة خاصَّة في نهاية المطاف. فهذه المزيَّة، لا الأفعال ذاتُها، هي ما نعنيه حين نتحدَّث عن «الفضيلة».

وهذا التمييز مهمٌّ للسبب التالي: إذا فكَّرنا فقط في الأفعال ذاتها، فقد نعمل على ترويج ثلاثة أفكار خاطئة.

١. قد نحسب أنَّه ما دمنا نفعل الأمر الصائب فلا يهمُّ كيف أو لماذا نفعله: أباختيارنا فعلناه أم مُكرَهين، أبفتور أم بسرور، أخوفاً من الرأي العامّ أم إرضاءً له. ولكنَّ الحقيقة تؤكِّد أنَّ الأفعال الصحيحة إذا ما فُعِلت بدافع سيِّئ لا تُسهِم في تعزيز المزيَّة أو الميزة الداخليَّة المدعوَّة «فضيلة»، وهذه المزيَّة أو المِيزة هي ما يهمُّ حقّاً. (إذا ضرب لاعب التَّنِس ضربة قويَّة جدّاً، ليس لأنَّه يدرك أنَّ الحاجة لضربة قويَّة جدّاً، بل لأنَّه خرج عن طوره، فلربما أسعفته ضربتُه تلك بالصّدفة على الفوز في تلك المباراة عينها؛ غير أنَّها لن تكون مُسعِفةً له على الصيرورة لاعباً بارعاً.)

٢. قد نحسب أنَّ الله لا يريد سوى إطاعة مجموعةٍ من القوانين، فيما الحقيقة هي أنَّه يطلب ناساً من صنفٍ معيَّن.

٣. قد نحسب أنَّ «الفضائل» ضروريَّة فقط لهذه الحياة، وأنَّه في العالم الآخر يمكننا أن نكفَّ عن ممارسة العدل لأنْ ليس هنالك ما نتنازع عليه، ونكفَّ عن ممارسة الثبات لأنْ ليس هنالك ما يهدِّد سلامتنا. فلئن كان صحيحاً تماماً أنَّه لن تسنح في العالم الآتي فرصةٌ لإتيان الأفعال التي تتَّسم بالعدل أو الشجاعة، فلَسوف تتوافر كلُّ فرصة لأن نكون ذلك الصنفَ من الناس الذي لا يمكن أن نصيره إلاَّ من جرَّاء قيامنا بمثل تلك الأفعال في هذه الدنيا. وليس بيت القصيد أنَّ الله سيرفض استقبالك في ملكوته الأبديّ إذا لم تكن لديك مزايا خُلقيَّة من صنفٍ معيَّن، بل بيتُ القصيد أنَّه إذا لم يملك الناسُ على الأقلّ بدايات تلك المزايا في داخلهم،

فعندئذٍ لا يمكن لأيَّة ظروفٍ خارجيَّة محتملة أن تكون «سماءً» أو نعيماً لهم، أي أن تجعلهم سُعَداء تلك السعادةَ الثابتةَ الغامرة الفائقة التي يشاؤها لنا الله.

٣

الأخلاق الاجتماعيّة

إنَّ أوّل أمر ينبغي توضيحُه بشأن الأخلاقيّات المسيحيَّة بين الإنسان والإنسان هو أنَّ المسيح لم يأتِ كي يعظ في هذا الإطار بأيَّة أخلاقيّاتٍ جديدة كليّاً. فالقاعدة الذهبيَّة في كتاب العهد الجديد (أن تعامل الناس كما تحبُّ أن يعاملوك هم) إنّما هي خلاصةٌ لِما كان دائماً معروفاً في الجوهر لدى كلِّ إنسان بأنّه صواب. ومعلّمو الأخلاق الكبار حقّاً لا يأتون أبداً بأخلاقيّاتٍ جديدة، بلِ الأدعياء والمهووسون هم من يفعلون ذلك. فكما قال الدكتور صمويل جونسُن أنَّ «الناس يحتاجون لأنْ نُذكّرهم غالباً أكثر مما يحتاجون لأنْ نُعلّمهم.» فالمهمَّة الفعليَّة لدى كلِّ معلّم أخلاقيّ هي أن يظلَّ يُرجعنا، مراراً وتكراراً، إلى المبادئ البسيطة القديمة التي نحن جميعاً غير متشوّقين كثيراً لاستيعابها، كأنْ تُصِرَّ على إرجاع حصانٍ مرَّة إلى السياج الذي رفض أن يقفز فوقه، أو إرجاع ولدٍ مرَّةً بعد مرَّةً بعد مرَّة إلى جزء الدرس الذي يريد التهرُّبَ منه.

والأمر الثاني الذي ينبغي توضيحُه هو أنَّ المسيحيَّة ليس لديها، ولا تزعم أنَّ لديها، برنامجاً إجرائيّاً مفصّلاً لتطبيق المبدإ القائل «عامِل كما تُحبُّ أن تُعامَل» في مجتمع معيَّن وفي زمنٍ مُحدَّد. وطبيعيٌّ ألاَّ يكون لديها ذلك. فهي موجَّهة إلى جميع البشر في جميع الأزمنة، والبرنامجُ المحدَّد الذي يُناسِب مكاناً أو زماناً واحداً لن يُناسِب غيرهما. ومهما يكُن من أمر، فليس هكذا تؤدّي المسيحيَّة عملها. فعندما تُوصيك بإطعام الجوعان، لا تُلقّنك دروساً في فنِّ الطبخ. وعندما تطلب إليك أن تقرأ الكتاب المقدَّس، لا تلقّنك دروساً في اللغتين العبرانيَّة واليونانيَّة، ولا حتّى في قواعد لغتك. فلم يُقصَد لها قطُّ أن تحلَّ محلَّ الفنون والعلوم البشريّة

المعهودة ولا أن تُلغيَها، بل هي بالأحرى مُوجِّهٌ يضع كل هذه العلوم والفنون في نصابها كي تؤدِّيَ عملها الصحيح، ومصدرُ طاقةٍ يبثُّ فيها جميعاً حياةً جديدة، لو أنّها فقط تضع نفسها تحت تصرُّف هذا الموجِّه أو مصدر الطاقة هذا.

يقول بعضٌ: «ينبغي للكنيسة أن تمدَّنا بالقيادة.» فذلك صحيحٌ إذا كانوا يقصدونه بمعناه الصحيح، ولكنَّه باطل إذا قصدوه بمعناه الخطأ. فبقولهم «الكنيسة» ينبغي أن يَعنُوا كامل مجموع المسيحيِّين الملتزمين. وعندما يقولون إنَّ على الكنيسة أن تمدَّنا بالقيادة، ينبغي أن يَعنُوا أنَّ بعض المسيحيِّين (أولئك الذين يظهر أنَّهم حائزون للمواهب المطلوبة) لا بدَّ أن يكونوا علماء اقتصاد ورجال دولة، وأنَّ جميع علماء الاقتصاد ورجال الدولة لا بدَّ أن يكونوا مسيحيِّين بالحقّ، وأنَّ كلَّ جهودهم في السياسة والاقتصاد لا بدَّ أن تنصبَّ على وضع مبدإ معاملة الغير كما يحبون أن يُعامَلوا في حيِّز التنفيذ. فإذا حصل ذلك ، وإذا كنَّا نحن الآخرين مستعدِّين لتقبُّله فعلاً، فعندئذٍ لا بدَّ أن نجد الحلَّ المسيحيَّ لمشكلتنا الاجتماعيَّة على نحوٍ سريعٍ إلى حدٍّ ما. ولكنْ بالطبع حين يلتمس معظم الناس قيادة الكنيسة، يعنُونَ أنَّهم يريدون من رجال الدين تقديم برنامج سياسيّ وتنفيذه. إلاَّ أنَّ هذا عقيم. فرجال الدين داخل الكنيسة كلِّها هم أولئك القوم الذين تدرَّبوا خصوصاً وفُرِزوا للاعتناء بما يخصُّنا من حيث كونُنا خلائق سوف يحيَون إلى الأبد، ونحن نطلب منهم القيام بعمل مختلف تماماً لم يُدرَّبوا عليه. فهذا العمل بالحقيقة يقع على عواتقنا نحنُ العلمانيِّين. إذ إنَّ تطبيق المبادئ المسيحيَّة في نطاق النقابات العمّاليَّة، أو التربية والتعليم، يجب أن يحصل من قِبَل النقابيِّين والمعلِّمين المسيحيِّين حقّاً؛ تماماً كما أنَّ الأدب المسيحيَّ ينهض به الروائيون والمسرحيُّون المسيحيُّون المؤمنون، لا هيئةُ الأساقفة حيث يجتمعون معاً ويحاولون كتابة الروايات والمسرحيَّات في أوقات فراغهم.

غير أنَّ كتاب العهد الجديد، دون الدخول في التفاصيل، يزوِّدنا بتلميحاتٍ واضحة جدّاً عن صورة المجتمع المسيحيّ، بكلِّ ما في الكلمة من معنى. ولربَّما قدَّم لنا أكثر ممَّا نقدر أن نأخذه. فهو يقول لنا إنَّه لا ينبغي أن يوجد متبطِّلون أو طفيليُّون: فغير الراغب في أن يشتغل، عليه ألاَّ ياكل. وعلى كلِّ إنسانٍ أن يعمل بيديه، وما هو أكثر من هذا أنَّه ينبغي من هذا أن يُنتج عملُ كلِّ إنسان خيراً ما، وهكذا لا تُصنَع

وسائل الترف التافهة، ثُمَّ لا تُنشر الإعلانات الأتفه لإقناعنا بشرائها. ولا ينبغي أن يوجد أيُّ «استعلاء» أو «انحياز»، ولا تبجُّح. إلى هذا الحدّ، سيكون المجتمع المسيحيُّ ما ندعوه اليوم «يسارياً». ومن الناحية الأخرى، لا بدَّ أن يُصرَّ ذلك المجتمع دائماً على الطاعة: الطاعة (مع إبداء الاحترام) من قِبَلنا جميعاً للحكّام المُعيَّنين حسناً، ومن قِبَل الأولاد لوالِدَيهم، ومن قِبَل الزوجات لأزواجهنَّ (أخشى أن يكون هذا الأمر الأخير غير محبَّب كثيراً). ثُمَّ إنَّ ذلك المجتمع ينبغي أيضاً أن يكون بهيجاً، يعمُّه الفرح والمرح والغناء، حيث يُعَدُّ القلق والهمُّ أمرين غير سويَّين. كما أنَّ الكياسة أو اللطف فضيلةٌ من الفضائل المسيحيَّة، وكتاب العهد الجديد يمقت مَن يُسمِّيهم «فضوليِّين»، أي مُتطفِّلين.

ولو كان مثلُ هذا المجتمع موجوداً، وزُرناه أنا أو أنت، لكُنَّا كما أعتقد نخرج منه بانطباع غريب. فلا بدَّ أن نشعر بأنَّ حالته الاقتصادية اشتراكيَّةٌ للغاية، و«متقدِّمة» من هذا القبيل، ولكنَّ حياته العائليَّة ونظام سلوكيّاته أكثر ميلاً إلى الطراز العتيق، بل ربَّما كانا أيضاً رسميَّين وأرستوقراطيَّين. ومن شأن كلٍّ منَّا أن تستهويَه أجزاء من ذلك المجتمع، إلاَّ أنَّني أخشى ألاَّ يستهوي بكامله سوى قلَّة ضئيلة منّا. ذلك هو بالتمام ما يغلب أن يتوقَّعه المرء لو كانتِ المسيحيَّة هي مُجمَل برنامج المَكَنة البشريَّة. ونحن جميعاً قد نأينا عن ذلك البرنامج الشامل بطرائق شتَّى، وكلٌّ منّا يريد أن يبيِّن أنَّ تعديله للبرنامج الأصليِّ هو البرنامجُ نفسُه. ولسوف تجد هذا تكراراً في ما يتعلَّق بأيِّ شيءٍ مسيحيٍّ حقّاً: فكلُّ امرىءٍ تجذبه أجزاءٌ منه، ويريد أن ينتقيَ تلك الأجزاء دون سواها. لذلك السبب لا نتقدَّم إلى الأمام كثيراً؛ ولذلك السبب يستطيع أولئك الذين يتقاتلون في سبيل أمورٍ متعارضة تماماً أن يقولوا جميعاً إنَّهم يتقاتلون في سبيل المسيحيَّة.

والآن أتناول نقطةً أخرى. هنالك نصيحة يُقدِّمها إلينا اليونانيُّون الوثنيُّون القُدامى، وكتبَةُ أسفار العهد القديم، والمعلِّمون المسيحيُّون الكبار الذين عاشوا في العصور الوسطى، وقد خالفها كلِّيّاً النظامُ الاقتصاديُّ الحديث. فهؤلاء القوم كلُّهم يُوصوننا بعدم إقراض المال بفائدة، ولكنَّ إقراض المال بفائدة (ما ندعوه الاستثمار) هو أساس نظامنا الاقتصاديِّ بجملته. فالآن، ربَّما لا يلزم منطقيّاً على الإطلاق أن نكون على خطأ. ويقول بعضُهم إنَّه لَمّا اتَّفق موسى وأرسطو والمسيحيُّون على حظر

الفائدة (أو «الرِّبا» حسب تسميتهم) لم يتمكّنوا من استشراف شركات الرساميل المشتركة، وكانوا فقط يفكّرون في المُداين الفَرد، ومن ثَمَّ لا ينبغي أن يُقلِقَنا ما قالوه. فهذه مسألة لا يمكنني البتُّ بها؛ فلستُ عالِمَ اقتصاد، ولا أدري فعلاً هل نظامُ الاستثمار مسؤولٌ حقّاً عن الحالة التي نحن فيها. ها هنا نحتاج إلى عالِم الاقتصاد المسيحيّ المؤمن. ولكنّني لا أكون صادقاً إن كنتُ لا أقولُ لك إنّ تلك الحضارات العظيمة الثلاث قدِ اتّفقت (أو هكذا يبدو أوّل وهلة) على إدانة ذلك الأمر عينهِ الذي عليه أسَّسنا حياتنا بكاملها.

نقطةٌ أخيرة بعدُ وأنتهي. مثلما يقول كتاب العهد الجديد إنّ على كلّ إنسان أن يشتغل، يذكر سبباً وجيهاً لوجوب العمل: «ليكون له أن يُعطيَ مَن له احتياج» (أفسس٤: ٢٨). فالإحسان (أو العطاء للفقراء) جزءٌ جوهريٌّ من الأخلاقيَّات المسيحيَّة. وفي المَثَل المروِّع عن الخراف والجداء، يبدو أنَّ الإحسان هو النقطة التي يدور حولها كلُّ شيء. إنّما يقول بعضُهم اليوم إنَّ الإحسان ينبغي أن يكون غير ضروريّ، وإنَّه بدلاً من العطاء للفقراء ينبغي لنا أن نعملَ على إنتاج مجتمع ليس فيه فقراء حتَّى نعطيهم. فلعلَّهم مُصيبون تماماً في قولهم إنَّ علينا إنتاج مجتمع كهذا. ولكنْ إذا حسب امرؤٌ أنَّه بناءً على ذلك يمكنك أن تكفَّ عن العطاء في الوقت الراهن، فيكون قد تخلَّص من كلِّ التزامٍ للأخلاق المسيحيَّة. ولا أعتقد أنَّ في وسع أحد أن يحدِّد نهائيّاً كم ينبغي أن نُعطي. إنَّما أخشى أن تكون القاعدة السليمة الوحيدة هي أن نُعطي أكثر ممَّا يمكننا أن نوفِّر. بعبارة أخرى: إذا كان إنفاقُنا على الكماليَّات وأسباب الرفاهية والترفيه إلخ، يرقى إلى المستوى المشترك بين ذوي الدخل المماثل لدخلنا، فلعلَّنا نُعطي القليل القليل. وإن كانت حسناتنا لا تقرصنا ولا تؤلمنا ولا تُعوِّقنا أبداً: فينبغي لي أن أقول إنَّها ضئيلة جدّاً. فكان يجب أن يكون هنالك أمور نودُّ أن نعملها ولا نستطيع لأنَّ إنفاقنا على الإحسان يستبعدها. أتكلَّم الآن عن «الحسنات» أو «الصدقات» بالطريقة العامَّة. غير أنَّ حالات العسر الخاصَّة بين أقربائك أو أصدقائك أو جيرانك أو موظَّفيك، تلك التي يلفت الله انتباهك إليها قسراً، إن صحَّ التعبير، قد تتطلَّب منك أكثر بكثير، ولو إلى حدِّ تضييق الخناق عليك وتعريض وضعك الماليّ للخطر. وبالنسبة إلى كثيرين منّا، لا تكمن العقبة الكأداءُ أمام الإحسان في عيشتنا المرفَّهة، ولا في اشتهائنا لمزيد من المال، بل في

خوفنا، خوفِنا من عدم الأمان. فيجب أن نرى هذا غالباً باعتباره تجربةً أو غواية. وكذلك تُعيق كبرياؤنا أيضاً إحسانَنا أحياناً، إذ تُغوينا تجربةُ الإنفاق أكثرَ ممَّا ينبغي على أشكال السخاء المبهرجة (الإكراميَّات وكرم الضيافة)، وأقلَّ ممَّا ينبغي على أولئك المحتاجين إلى إعانتنا حقّاً.

والآن، قبل الختام، سأستجرئ على تصوُّر تخمينٍ لكيفيَّة تأثير هذا الجزء في أيّ شخصٍ ممَّن قرأوه. فتخميني أنَّ بينهم بعضَ اليساريِّين الذين استاؤوا جدّاً لأنَّه لم يسترسل كثيراً في ذلك الاتِّجاه، وبعضاً من صنفٍ معاكس استاؤوا لأنَّهم حسبوا أنَّه استرسل أكثر ممَّا ينبغي بكثير. فإن كانت الحال على هذا المنوال، يصل بنا ذلك توّاً إلى العقبة الخفيَّة في كامل هذه العمليَّة المعنيَّة برسم تصاميم لمجتمع مسيحيٍّ صالح: أنَّ معظمنا لا يتعاملون مع الموضوع بالحقيقة كي يتبيَّنوا ما تقوله المسيحيَّة، بل يتعاملون معه على أمل أن يتلقَّوا من المسيحيَّة دعماً لآراء الفئة التي ينتمون إليها. فنحن نبحث عن حليف حيث يُقدَّم إلينا إمَّا سيِّد وإمَّا... قاض. ومَثَلي مَثَلُكم في ذلك. ففي هذا الجزء نواحٍ أردتُ أن أسكت عنها. ولذلك السبب لن ينتج من مثل هذه الأحاديث أيُّ شيء، إلاَّ إذا سلكنا طريقاً دائريّاً أطول بكثير. فالمجتمع المسيحيُّ الصالح لن يصلَ ورحاله إلى أن يرغب فيه معظمُنا حقّاً؛ ونحن لن نرغب فيه قبل أن نصير مسيحيِّين بكلِّ معنى الكلمة. ولربَّما كرَّرتُ «عامِل كما تحبُّ أن تُعامَل» حتَّى يسودَّ وجهي، غير أنَّني لا أستطيع حقّاً أن أعمل بهذا المبدإ ما لم أُحبَّ قريبي كنفسي. ولا أقدر أن أتعلَّم محبَّة قريبي كنفسي ما لم أتعلَّم محبَّة الله. ولا أقدر أن أتعلَّم محبَّة الله إلاَّ بتعلُّمي إطاعته. وهكذا، كما سبق أن نبَّهتُ، فإنَّنا نُدفَع نحو أمرٍ داخليٍّ على نحو أعمق، إذ نُدفَع من الشؤون الاجتماعيَّة إلى الشؤون الدينيَّة. فإنَّ أطول طريق دائريّ هو أقصرُ طريقٍ إلى المَقصد.

٤

الأخلاق والتحليل النفسي

قلتُ إنَّه لا يمكن أن نقيم مجتمعاً مسيحيّاً أبداً إلاّ إذا صار معظمنا أفراداً مسيحيِّين بالحقّ. ولا يعني هذا بالطبع أنَّه يمكننا أن نؤجّل القيام بأيِّ تحرُّك بشأن المجتمع قبل تاريخ وهميٍّ نُحّدده في المستقبل البعيد. إنَّما يعني أنَّه يجب أن نباشر عملين معاً في الحالّ: أوَّلهما أن نتبيَّن كيف يمكن تطبيق المبدإ «عامِل كما تحبُّ أن تُعامَل» مُفصَّلاً في المجتمع الحديث؛ وثانيهما صيرورتنا أُناساً من النوع الذي يُبادِر إلى تطبيق هذا المبدأ إذا عرف كيف يفعل ذلك. وأودُّ الآن أن أباشِر النظر في ماهيَّة الفكرة المسيحيَّة بشأن الإنسان الصالح، أيِ التوصيف المسيحيّ للمَكَنة البشريَّة.

ولكنْ قبل الدخول في التفاصيل، أرغب في توضيح نقطتين أكثر عموميَّة. أوّلاً، بما أنَّ الأخلاقيَّات المسيحيَّة تقول بأنَّها سبيلٌ عمليٌّ لإصلاح المَكَنة البشريَّة، أظنُّ أنَّك تودُّ أن تعرف كيف تتَّصل بتقنيَّة أُخرى يبدو أنَّها تقول بمثل ذلك، ألا وهي طريقة التحليل النفسيّ.

فالآن لا بدَّ لك من أن تميِّز بوضوح جليٍّ بين أمرين: بين النظريَّات والتقنيَّة الطبِّيَّة الفعليَّة التي يعتمدها المحلّلون النفسيُّون، وبين النظرة الفلسفيَّة العامَّة للعالَم التي مضى فرويد وآخرون غيره قُدماً ليُضيفوها إلى تلك. والأمر الثاني، أي فلسفةُ فرويد، مناقضٌ مباشرةً لآراء يونغ، عالم النفس الكبير الآخر. ثُمَّ إنَّ فرويد، عندما يتكلَّم عن كيفيَّة شفاء العُصابيِّين، يَتحدَّث حديثَ اختصاصيٍّ في موضوعه، ولكنَّه حين يمضي ليتكلَّم في الفلسفة العامَّة فهو إنَّما يتحدَّث حديثَ هاوٍ غير خبير. وعليه، فمن المنطقيّ تماماً أن نصغي إليه باحترام في الحالة الأولى وليس في الثانية، وذلك هو ما أفعلُه أنا. وأجدني أكثر استعداداً لفعل ذلك لأنّي لمستُ

أنَّه حين يتكلَّم في غير موضوعه، وفي موضوع أُلِمَّ به بعض الإلمام (اللغة تحديداً)، فهو جاهلٌ جدّاً. غير أنَّ التحليل النفسيَّ بحَدِّ ذاته، بمعزلٍ عن جميع الإضافات التي زادها عليه فرويد وآخرون، ليس مناقضاً للمسيحيَّة أبداً. فإنَّ تقنيَّته تتوافق مع الأخلاق المسيحيَّة في بعض النقاط، وليس أمراً سيِّئاً أن يعرف المرء شيئاً عنها. غير أنَّها لا تسير معها طول الطريق، لأنَّ كِلتا التقنيَّتين تؤدِّي بالأحرى عملاً مختلفاً عن عمل الأُخرى.

عندما يقوم المرء باعتماد خِيار خُلقيّ، يشتمل ذلك على أمرين: أحدهما فعل الاختيار، والآخر هو مختلف المشاعر والحوافز ونحوها ممّا تمدُّه به تركيبتُه السيكولوجيَّة، والتي هي جميعاً المادَّة الخام التي يتكوَّن خِياره منها. وهذه المادَّة الخام قد تكون على نوعين. فإمَّا أن تكون ما يمكن أن ندعوها سويَّة، إذ قد تتكوَّن من صنف المشاعر المشتركة بين جميع البشر؛ وإمَّا أن تتكوَّن من مشاعر غير سويَّة إلى حدٍّ بعيد من جرّاء أمور تعطَّلت أو فسدت في ما دون وعيه. وعليه، فالخوف من الأشياء الخطرة حقّاً يمكن أن يكون مثلاً على النوع الأوَّل، والخوف غير المنطقيّ من القطط أو العناكب يمكن أن يكون مثلاً على النوع الثاني. ومن شأن اشتهاء الرجل للمرأة أن يكون من النوع الأوَّل، فيما يكون اشتهاء الرجل للرجل شذوذاً، من النوع الثاني. فما يتولَّى المحلِّلون النفسيُّون القيام به هو إزالة المشاعر غير السويَّة، أي تزويد الإنسان بمادَّةٍ خامٍ فُضلى لأفعال اختياره. أمَّا الأخلاق فمعنيَّةٌ بأفعال الاختيار عينها.

ولنعبِّر عن ذلك بطريقةٍ أُخرى. تصوَّر ثلاثة رجال يذهبون إلى حربٍ ما. أحدهم لديه الخوف الطبيعيُّ المعتاد من الخطر، شأنُه شأن أيِّ إنسانٍ آخر، ولكنَّه يقمع خوفه بمجهود خُلقيّ ويصير رجُلاً شجاعاً. ولنفترض أنَّ لدى الآخرَين، من جرّاء أُمورٍ معيَّنة في ما دون وعيهما، مخاوفَ غير منطقيَّة مُبالَغاً فيها، لا يمكن لأيِّ مقدار من المجهود الخُلقيّ أن يفعل شيئاً بشأنها. ولنفترض الآن أنَّ محلِّلاً نفسيّاً يتدخَّل ويشفي هذين الرجُلين، أي يردُّهما كليهما إلى موقع الرجل الأوَّل. فعندئذٍ تماماً تنتهي المشكلة المتعلِّقة بالتحليل النفسيّ وتبدأ المشكلة الخُلقيَّة: لأنَّ هذين الرجلين، وقد شُفيا الآن، قد يسلكان سبيلَين متفاوتين. فقد يقول الأوَّل: «الحمد لله على كوني قد تخلَّصتُ من جميع تلك الهواجس والوساوس! فالآن أخيراً

أستطيع أن أقوم بما كنتُ أرغب دائماً بأن أقوم به واجبي تجاه وطني.» ولكنَّ الآخر قد يقول: «حسناً، أنا مسرور جدّاً الآن لأنَّني أشعر برباطة الجأش على نحو معتدل تحت النيران، ولكنَّ ذلك بالطبع لا يُبدِّل شيئاً في حقيقة كوني ما زلتُ عاقد العزم تماماً على الاهتمام بالأمر الأهمّ، تاركاً الرجل الآخر يواجه الخطر كلّما استطعت ذلك. وبالحقيقة أن واحداً من الأمور الحسنة في الشعور بمقدارٍ من الخوف أقلّ هو أنَّه يمكنني الآن أن أعتني بنفسي بطريقة أكثر فعّاليَّةً للغاية، ويمكنني أن أكون أذكى بكثيرٍ في إخفاء الحقيقة عن الآخرين.» ففي الواقع أنَّ الفارق خُلقيٌّ محض، ولا يستطيعُ التحليل النفسيُّ فعل شيء بشأنه. فمهما حسَّنتَ كثيراً مادَّة الرجُل الخام، يبقى لديك بعدُ شيءٌ آخر: خيارُ الرجلِ الحقيقيُّ، على أساس المادَّة المقدَّمة إليه، إمَّا أن يضع مصلحته الشخصيَّة أوّلاً، وإمَّا أن يضعها أخيراً. وهذا الخِيار الحرّ هو الأمر الوحيد الذي تُعنى به الأخلاق.

وليست المادَّة السيكولوجيَّة السيِّئة خطيَّة، بل هي مَرَض. فلا يحتاج المرء لأنْ يتوب عنها، بل يحتاج لأنْ يُشفى منها. وبالمناسبة، هذا أمرٌ مهمٌّ جدّاً. فالبشر يدينون بعضهم بعضاً على أساس الأفعال الظاهرة. أمَّا الله فيدينهم على أساس خياراتهم الخُلقيَّة. فإذا أجبر عُصابيٌّ لديه خوف مَرَضيٌّ من القطط نفسه على التقاط قطّة لسببٍ جيِّد، فمن المحتمل تماماً أنَّه في نظر الله قد أبدى شجاعةً أكثر من تلك التي أبداها شخصٌ سليم فكوفئ بمنحه وسامَ تقديرٍ رفيعاً. وعندما يقوم رجلٌ انحرف منذ حداثته، وتعلَّم أنَّ القساوة هي الأمر الصائب، بمعروفٍ بسيط، أو يُمسِك عن قسوةٍ كان يمكن أن يرتكبها، وربَّما يغامر في ذلك بالتعرُّض للهزء من قِبَل رفقائه، فلعلَّه في نظر الله يكون فاعلاً أكثر ممّا قد نفعله أنا وأنت إذا ضحَّينا بحياتنا ذاتها في سبيل صديق.

ويحسنِ بنا أن نعبِّر عن هذه الفكرة بالطريقة المعاكسة. ربَّما يكون بعضٌ منّا، ممَّن يَبدون أناساً لطفاء جدّاً، قد استفادوا في الواقع استفادةً ضئيلة للغاية من حالةٍ وراثيَّة جيِّدة وتربيةٍ صالحة، بحيث يكونون بالحقيقة أسوأ من أولئك الذين يحسبونهم أشراراً جدّاً. فهل يمكننا أن نكون على يقينٍ تامٍّ من جهة كيفيَّة تصرُّفنا الممكن لو أثقلت كواهلَنا التركيبةُ السيكولوجيَّة، ثمَّ التربيَّةُ السيِّئة، ثُمَّ السُّلطة المطلقة، تلك التي أثقلت كاهل طاغية من الطُّغاة؟ لذلك يُطلب إلى المسيحيِّين

بالحقِّ ألاَّ يدينوا. فنحن لا نرى إلاَّ النتائج التي تُطلِعها خيارات الإنسان من مادَّته الخام. غير أنَّ الله لا يدينه على أساس المادَّة الخام أبداً، بل على أساس ما صنعه منها. وربَّما كان الجزء الأغلب في تركيبة الإنسان السيكولوجيَّة عائداً إلى جسده: فعندما يموت جسده يسقط عنه ذلك كلُّه، في حين أنَّ الإنسان الجوهريَّ الحقيقيَّ (العنصر الذي قام بالاختيارات والذي استفاد من تلك المادَّة أحسنَ استفادة أو أسوأ استفادة) سيقوم مجرَّداً. فجميع الأُمور الحسنة المتنوِّعة التي حسبناها ملكاً لنا، ولكنَّها كانت بالحقيقة نتيجةَ اهتضام جيِّد، ستسقط عن بعضٍ منّا؛ في حين أنَّ جميع الأمور السيِّئة المتنوِّعة التي كانت نتيجة عُقَد نفسيَّة أو سوء صحَّة ستسقط عن الآخرين. وعندئذٍ سنرى، أوَّلَ مرَّة، كلَّ امرئٍ كما كان بالحقيقة. ولسوف تحدث مفاجآت!

وهذا يُفضي بي إلى نُقطتي الثانية. غالباً ما يفكِّر الناس في الأخلاقيَّات المسيحيَّة كما لو كانت صفقة فيها يقول الله: «إذا راعيتَ كثيراً من القواعد فسأكافئك؛ وإلاَّ فعلتُ العكس». لكنَّني لا أعتقد أنَّ هذه هي أفضل طريقة للنظر إلى المسألة. فأنا أُوثِر بالأحرى أن أقول إنَّك كلَّ مرةٍ تقوم باختيار تكون مُحوِّلاً الجزء الجوهريَّ فيك (ذلك الجزء الذي يختار) إلى شيءٍ مختلفٍ قليلاً عمَّا كان عليه قبلاً. ولدى النظر في حياتك بمجملها، بجميع خياراتك التي لا تُحصى، يتبيَّن أنك طوال حياتك تُحوِّل ببطءٍ ذلك الجزءَ الجوهريَّ إمَّا إلى مخلوقٍ سماويّ وإمَّا إلى مخلوقٍ جهنَّميّ: إمَّا إلى مخلوقٍ متناغم مع الله ومع الخلائق الآخرين ومع ذاته، وإمَّا إلى مخلوقٍ في حالة حربٍ وكره مع الله ومع الخلائق الآخرين ومع ذاته. وأنْ تكون مخلوقاً من النوع الأوَّل لَهو سماءٌ أو نعيم؛ أي فرح وسلام ومعرفة وقوَّة. أمَّا أن تكون من النوع الآخر فمعناه جنون وغباوة وسخط وعجز ووحشة أبديَّة. وكلُّ واحدٍ منَّا، كلَّ لحظة، يتقدَّم إلى إحدى هاتين الحالتين أو إلى الأُخرى.

هذا الواقع يُفسِّر أمراً طالما حيَّرني لدى الكتَّاب المسيحيِّين: أنَّهم يبدون متشدِّدين جدّاً مرَّة، ومتحرِّرين ومتساهلين جدّاً مرَّة أخرى. فهم يتحدَّثون عن خطايا الفكر المجرَّدة كما لو كانت مهمَّة على نحوٍ هائل، ثمَّ يتحدَّثون عن أشنع أفعالِ القتل والخيانة كما لو أنَّ عليك فقط أن تتوبَ فتُغفَر لك جميعاً. غير أنَّني بتُّ أُدرِك أنَّهم على حقّ. فما يُفكِّرون فيه دائماً هو السِّمة التي يُخلِّفها الفعل على

تلك الذات الجوهريَّة اللطيفة التي لا يراها أحد في هذه الحياة ولكنْ سيكون على كلٍّ منا أن يُقاسيها، أو يتمتَّع بها، إلى الأبد. فرُبَّ إنسانٍ يكون في وضْع فيه يدفعه غضبُه إلى سفك دماء الآلاف، وآخرَ يكون في وضع مهما غضب فيه فسيكون فقط غرضاً للضحك. غير أنَّ السِّمة الصغيرة على النفس قد تكون لدى كليهما هيَ إيَّاها إلى أبعد حدّ. فكلاهما قد فعل بنفسه شيئاً إنْ لم يتُبْ يُصعِّب عليه أكثرَ أن ينأى عن الغضب تاليَ مرَّةٍ يُجرِّب فيها، ويجعل الغضب أسوأ حين يسقط فيه فعلاً. وكلا هذين، إذا رجع إلى الله صادقاً، يمكن أن تُقوَّم له تلك «الانحراف» في الإنسان الجوهريّ ويُسوَّى مُجدَّداً. كما أنَّ كليهما، إن لم يرجِع إلى الله حقّاً، هالكٌ في نهاية المطاف. أمَّا كبر ذلك الشيء أو صغره، إذا نُظر إليه من الخارج، فليس هو ما يهمُّ حقّاً.

تبقى نقطةٌ أخيرة: تذكَّر أنَّ الاتِّجاه الصحيح، كما سبق أن قُلتُ، لا يؤدِّي فقط إلى السلام بل أيضاً إلى المعرفة. فعندما يكون امرؤٌ آخذاً في التحسُّن، يفهم أوضَح فأوضح الشرَّ الذي ما يزال فيه. ولكنْ حين يكون امرؤٌ آخذاً في التردِّي، يفهم رداءته أقلَّ فأقلّ. كذلك يعلم الإنسان الرديءُ على نحوٍ معتدل أنَّه ليس صالحاً جدّاً؛ أمَّا الإنسان الرديءُ كلِّيّاً فيظنُّ أنَّه في أحسن حال. وهذا منطقٌ سليمٌ بالحقيقة. فأنت تقدر أن تفهم النَّوم حين تكون مستيقظاً، لا فيما تكون نائماً. وفي وسعك أن تلاحظ أغلاط الحساب حين يكون ذهنك عاملاً بنشاط ومتيقِّظاً. ولكنْ حين تكون في حالة ارتكاب الأغلاط لا يمكنك أن تلاحظها. وفي مقدورك أن تفهم طبيعة السُّكر عندما تكون صاحياً، لا عندما تكون سكرانَ. فالصالحون يعرفون أحوال الخير والشرّ؛ أما الطالحون فلا يعرفون شيئاً عن كليهما.

٥

الأخلاق المتعلّقة بالجنس

ينبغي لنا الآن أن ننظر في المفهوم الأخلاقيّ المسيحي للجنس وهو، ما يدعوه المسيحيُّون فضيلة العفاف. وعلينا ألاَّ نخلط بين قاعدة العفاف المسيحيَّة والقاعدة الاجتماعيَّة الخاصَّة «بالاحتشام» (بأحد معاني الكلمة)، أي اللياقة أو التأدُّب. فقاعدة الاحتشام الاجتماعيَّة تُقرِّر أيَّ مقدار من جسد الإنسان يليق كشفُه، وأيَّة مواضيع يمكن التطرّق إليها، وبأيّ كلام، بحسب عوائد دائرةٍ اجتماعيَّة معيَّنة. وعليه، فبينما تبقى قاعدة العفاف هي إيَّاها بالنسبة إلى جميع المسيحيِّين في كلّ زمان، فإنَّ قاعدة الحشمة تتغيَّر. فالشابَّة في جزر المحيط الهادئ، وهي بالكادّ تستر عُريَها، والسيِّدة الغربيَّة المحافِظة التي تُغطِّي كامل جسدها بثوبها، يمكن أن تكونا كلتاهما «محتشمتين» أو متأدِّبتين، أو لائقتين، بحسب معايير مجتمعَيهما، وكلتاهما، رغم كلّ ما يمكن أن نستنتجه من لباسهما، قد تكون عفيفة على السواء (أو غير عفيفة على السواء). وبعض الكلمات التي استخدمتها النساء العفيفات في أيَّام شكسپير، ما كانت لتستخدمها في القرن التاسع عشر إلاَّ النساءُ المتهتِّكات. وعندما يُخالِف الناس قاعدة الحشمة الجارية في زمانهم ومكانهم، فإذا فعلوا ذلك لإثارة الشهوة لدى أنفسهم أو لدى الآخرين، فهم عندئذٍ ينتهكون أصول العفاف. ولكنَّهم إذا خالفوا الحشمة بدافع الجهل أو قلَّة الاحتراز، فإنَّ ذنبهم يقتصر على سوء الأدب. ولكنْ حين يخالفونها، كما يحدث غالباً، بدافع التحدّي كي يُفاجئوا الآخرين أو يُربكوهم، لا يكونون بالضرورة غير أعِفَّاء، غير أنَّهم يكونون مُسيئي التصرُّف: لأنَّ من الشائن أن يطلب المرء متعته بإحراج الآخرين وإزعاجهم. ولستُ أعتقد أنَّ وجود معيار حشمة متشدِّد أو متزمِّت يُبرهِن في شيءٍ على العفَّة

أو يُعين على تعزيزه بأيّ مقدار، ومن هنا أحسبُ أنّ تلطيف قاعدة الحشمة أو تيسيرها، وهو ما يحصلُ في أيّامي، هو أمرٌ خيِّر. غير أنّها، في مرحلتها الحاليّة، تشكو من هذا العائق: أنّ ذوي الأعمار المختلفة والمشارب المتباينة لا يقرُّون جميعهم بالمعيار نفسه، ولا نكاد نعرف موقعنا الفعليّ. فبينما الحال على هذا المنوال، أعتقد أنّ على كبار السنّ، أو المحافظين على العوائد، أن يحترسوا جيّداً من حسبان الشباب أو «المتحرِّرين» فاسدين خُلقيّاً حينما لا يُراعون المألوف (حسب المعيار القديم)؛ وفي مقابل ذلك، ينبغي للشبّان ألاّ يدْعوا شيوخهم مُتزمّتين أو طَهوريّين مُدقِّقين لأنّهم لا يتقبّلون المعيار الجديد بسهولة. ومن شأن الاستعداد الحقيقيّ لظنّ كلّ خيرٍ تستطيعه في الآخرين، وجعلهم مستريحين بقدر ما تستطيع، أن يحلّ معظم المشاكل.

إنّ العفّة هي الفضيلة الأقلّ شعبيّةً بين الفضائل المسيحيّة. فلا مناص منها؛ إذ تقول القاعدة المسيحيّة: «إمّا الزواج، مع الأمانة الكليّة لشريك الحياة؛ وإمّا الامتناع الكلّي عن الجنس.» وهذا صعب ومعاكس جدّاً لغرائزنا، بحيث يكون من البدهيّ أن تكون إمّا المسيحيّة وإمّا غريزتنا الجنسيّة، على ما هي عليه الآن، قد ضلّتِ السبيل. نعم، إمّا هذه وإمّا تلك. ولكوني مسيحيّاً، فأنا طبعاً أعتقد أنّ الغريزة الجنسيّة هي التي ضلّتِ السبيل.

ولكنّ لديّ غير هذا من أسباب اعتقادي ذلك. فالغاية البيولوجيّة من الجنس هي الإنجاب، كما أنّ الغاية البيولوجيّة من الاغتذاء هي ترميم الجسم. فإذا أكلنا كلّما شعرنا بميل إلى الأكل، وأكلنا بقدْر ما نريد، فصحيحٌ تماماً أنّ كثيرين منّا سيأكلون كثيراً، إنّما ليس كثيراً على نحوٍ هائل. إذ إنّ شخصاً واحداً قد يأكل حصّة اثنين، إلاّ أنّه لن يأكل حصّة عشرة. فالشهوة تتخطّى غايتها البيولوجيّة قليلاً، إنّما ليس إلى حدٍّ مروِّع. ولكنْ إذا انغمس شابٌّ قويُّ الصحّة في إشباع شهوته الجنسيّة كلّما عنّ له ذلك، وإذا أنتج كلُّ فعلٍ طفلاً، ففي غضون عشر سنين يمكن أن يُعمِّر قرية صغيرة بكلّ سهولة. فهذه الشهوة ذاتُ إسرافٍ غريب ونادر من حيث وظيفتُها.

أو لننظرْ إلى الأمر من زاوية أُخرى. يمكنك أن تحشد جمهوراً لا بأس به لمشاهدة عرض تعرٍّ، أي لمشاهدة شابّة تتعرّى تدريجيّاً على المسرح. فافترِضِ الآن

أنّك ذهبت إلى بلدٍ يمكنك فيه أن تملأ كراسيَّ مسرح بمجرّد عرض طبق مغطىً على المسرح، ومن ثَمّ برفع الغطاء على مهل بحيث يرى الجميع، قُبيلَ إطفاء الأضواء تماماً، أنّ فيه قطعةً من لحم الغنم أو شريحة من لحم البقر، أفلا تعتقد عندئذ أنّ خللاً ما قد طرأ على شهوة الأكل؟ أوَلا يظنُّ أيُّ شخصٍ نشأ في عالمٍ آخر أنَّ أمراً غريباً على نحوٍ مُماثِل طرأ على حالة الغريزة الجنسيَّة بيننا؟

قال أحد النُقّاد إنّه لو وجد بلداً تشيع فيه أفعال تعرٍّ من هذا النوع بالنسبة إلى الطعام، لاستنتج أنَّ أهل ذلك البلد يتضوَّرون جوعاً. وقد عنى بالطبع التلميحَ إلى أنَّ أُموراً مثل عروض التعرّي لا تنتج من الفساد الجنسيّ، بل من الحرمان الجنسيّ. فأنا أوافقه أنّه لو وجدنا في بلدٍ غريب أنَّ أفعالاً مماثلة بشرائح اللحم شائعة، فأحد التفسيرات التي تتبادر إلى ذهني سيكون وجود مجاعة. ولكنَّ الخطوة التالية تقضي بأن أختبر فرْضيَّتي بالتحقُّق من مقدار الطعام المُستهلَك في البلد فعلاً: أكثيرٌ هو أم قليل؟ فإذا بيَّن التحقُّق أنَّ مقداراً لا بأس به يُستهلكَ، فعلينا عندئذٍ بالطبع أن نتخلّى عن فرضيَّة المجاعة ونحاول التفكير في سواها. على المنوال نفسه، قبل أن نقبل الحرمان الجنسيَّ سبباً للتعرّي ينبغي لنا أن نبحث عن بيّنة على وجود تقشُّفٍ جنسيٍّ في عصرنا يفوق في الواقع ذاك الذي كان شائعاً يوم لم يكن التعرّي معروفاً. ولكنَّ مثل هذه البيّنة غير موجودة بكلِّ يقين. فموانع الحمْل جعلتِ الإشباع الجنسيَّ داخل نطاق الزواج أقلَّ كلفةً بكثير، وخارجَ نطاقه أكثر أماناً بكثير، ممّا كانت عليه الحال في أيّ وقت مضى؛ وبات الرأيُ العامُّ في الغرب أقلَّ عداءً للعلاقات غير الشرعيَّة، بل للشذوذ أيضاً، ممّا كان عليه كلَّ حين منذ الأزمنة الوثنيَّة. ثمَّ إنَّ فرضيَّة الجوع أو الحرمان ليست الوحيدةَ التي يمكننا أن نتصوَّرها. فكلُّ إنسان يعرف أنَّ الشهوة الجنسيَّة، شأنُها شأنُ شهواتنا الأُخرى، تنمو بالإشباع. ذلك أنَّ الجياع يفكّرون كثيراً بالأكل، ولكنَّ النَّهمين يفعلون ذلك أيضاً؛ والمُتخمون كما المحرومون يهوَون الدغدغة.

إليكَ نُقطةً ثالثة. لن تجد إلاّ عدداً قليلاً من الناس ممَّن يرغبون في أكل أشياءَ ليست طعاماً بالحقيقة، أو في استعمال الطعام لأشياء أُخرى غير الأكل. بعبارةٍ أخرى، إنَّ ضروب الشذوذ في شهوة الطعام نادرة. ولكنَّ ضُروب الشذوذ في الشهوة الجنسيَّة عديدة، وصعبة الشفاء، ومروِّعة. آسف لأنْ أُضطرَّ إلى الدخول

في هذه التفاصيل كلّها، ولكنْ لا بدَّ لي من ذلك. أمّا سببُ اضطراري إلى ذلك، فهو أنّنا، أنا وأنتم، ما برحنا على مدى السنين العشرين الماضية نُلقّن طوال اليوم أكاذيبَ غبية عن الجنس. فكم يسمع الواحد منّا، حتّى يكاد يمرض، أنّ الرغبة الجنسيّة هي في حالة سائر الرغبات عينها، وأنّنا لو أقلعنا فقط عن فكرة كبتها التقليديّة، لكان كلُّ ما في «الجنّةِ» مُبهِجاً. غير أنَّ هذا ليس بصحيح. فحالما تنظر إلى الحقائق، بعيداً عن الدعايات، ترى أنّه باطل.

يقولون لك إنَّ الجنس صار مشكلة لأنّه تعرّض للكبت. ولكنْ على مدى العشرين سنةً الماضية، لم يكن مكبوتاً. فلطالما تجري الثرثرة عنه طوال اليوم. ومع ذلك ما زال في ورطة وحالةٍ من التشويش. فلو كان الكبت قد سبّب المشكلة، لكان التفريج قليلاً عنه أصلح حاله، غير أنه لم يصلحها. فأعتقد أنَّ العكس هو الصحيح. إذ أعتقد أنَّ الجنس البشريَّ كبت الجنس لأنّه كان قد صار مشكلة كبيرة. أمّا مُعاصِرونا فيقولون دائماً: «ليس الجنس شيئاً ينبغي أن نخجل به.» وقد يعنون أمرين. فقد يعنون: «ليس ما يدعو إلى الخجل في حقيقة كون الجنس البشريِّ يتكاثر بطريقة معيّنة، ولا في كونه يؤتي لذّة.» وإذا كان هذا ما يعنونه، فهم على حقّ. فالمسيحيّة تقول بمثل هذا: أنَّ المشكلة ليست في الأمر نفسه، ولا في اللذّة. وقد قال المعلّمون المسيحيُّون القدامى إنّه لو أن الإنسان لم يسقط قطّ، لكانتِ اللذّة الجنسيّة أقوى بكثير فعلاً، بدلاً من كونها أقلَّ ممّا هي عليه الآن. في علمي أنَّ المسيحيّين المشوَّشي الذهن قد تكلّموا كما لو أنَّ المسيحيّة تَعتبر الجنس أو الجسد أو اللذة سيّئةً في ذاتها. غير أنّهم كانوا على خطأ. فالمسيحيّة تكاد أن تكون من بين الديانات الكُبرى الوحيدةَ التي تمدح الجسم البشريَّ، والتي ترى أنَّ المادّة خيّرة، وتؤكّد أنَّ الله نفسه اتّخذ جسداً إنسانيّاً ذات مرّة، وأنَّ جسماً من نوع ما سيُعطى لنا في السماء وسيكون عنصراً جوهريّاً في سعادتنا وبهائنا وطاقتنا. وقد مجّدتِ المسيحيّة الزواج أكثر من أيّة ديانة أُخرى، حتّى ليكادُ أرقى شعر غزليّ عُذري أن يكون من نتاج شعراء مسيحيّين. فإذا قال امرؤٌ إنَّ الجنس، بحدِّ ذاته سيءٌ، فإنَّ المسيحيّة تُناقِضه حالاً. ولكنْ طبعاً حين يقول الناس: «ليس الجنس أمراً مُخجِلاً،» فقد يَعنُون أنَّ «الحالة التي باتت عليها الغريزة الجنسيّة الآن ليست أمراً يدعو إلى الخجل.»

فإذا كان هذا ما يعنونه، يكونون مخطئين، حسبما أعتقد. فأنا أرى أنَّ الوضع مدعاةٌ لكلِّ خجل. لا داعي للخجل في الاستمتاع بطعامك؛ ولكنْ سيكون كلُّ ما يدعو للخجل إذا جعل نصفُ العالم الطعام همَّ حياتهم الأوَّل وقضَوا وقتهم يتأمَّلون صور الطعام ويَتلمَّظون ويُسيلون لعابهم. لستُ أقصد أنَّنا، أنا وأنتم، مسؤولون فرديّاً عن الوضع الحاليّ. فآباؤنا الأقدمون سلَّمونا كياناً عضويّاً فاسداً من هذه الناحية، ثُمَّ ننشأ حيث تُحيط بنا الدعايةُ المحبِّذة لعدم العفاف. وثمَّة ناسٌ يريدون إبقاء غريزتنا الجنسيَّة ملتهبةً كي يكسبوا منَّا مالاً. ذلك لأنَّ رجلاً يستبدُّ به هاجسٌ هو بالطبع قليل المقاومة للمبيعات. إنَّما الله عليمٌ بوضعنا، وهو لن يديننا كما لو لم تكن لدينا عقباتٌ نتغلَّب عليها. فما يهمُّ هو إخلاصُنا وثبات إرادتِنا على التغلُّب على العقبات.

وقبل أن يتأتَّى لنا الشفاء، علينا أن نريد الشفاء. فالراغبون حقّاً في المعونة سيحصلون عليها؛ ولكنْ بالنسبة إلى كثيرين من أهل عصرنا، حتَّى الرغبة صعبة. ويسهل أن نحسب أنَّنا نريد شيئاً ما ونحن لا نريده حقّاً. وقد أخبرنا مسيحيٌّ شهير عاش في القديم بأنَّه لمَّا كان شابّاً صلَّى باستمرار طلباً للعفَّة، ولكنَّه بعد سنين مضت أدرك أنَّه بينما كانت شفتاه تقولان: «يا ربّ، اجعلني عفيفاً!» كان قلبه يُضيف سرّاً: «ولكنْ رجاءً لا تفعل ذلك الآن.» وقد يحصل مثلُ هذا في الصلاة لأجل فضائل أُخرى أيضاً. إنَّما هنالك ثلاثة أسباب من أجلها يصعب علينا الآن خصوصاً أن نرغب في العفَّة التامَّة، ناهيك بإحرازها.

ففي المقام الأوَّل، تتَّحد طبيعتُنا الفاسدة والشياطينُ التي تجرِّبنا وكلُّ الدعاية المعاصرة المثيرة للشهوة لإقناعنا بأنَّ الرغبات التي نقاومها هي «طبيعيَّة» جدّاً، و«سليمة صحِّيّاً» للغاية، وهي معقولة ومقبولة، بحيث تكاد مقاومتنا لها أن تكون شذوذاً وانحرافاً. فرُبَّ مُلصقٍ بعد ملصق، وفِلمٍ بعد فِلم، وروايةٍ بعد رواية، تربط فكرة الانغماس أو الإشباع الجنسيّ بفِكَر الصِّحَّة والسويَّة والشباب والصراحة والمرح. غير أنَّ هذا الربط أكذوبة. وشأنَ كلِّ كذبة قويَّة، هذا الربط مؤسَّس على حقيقة، ألا وهي الحقيقة المعترف بها آنفاً من أنَّ الجنس في ذاته (بمعزلٍ عن الإفراط على أنواعه وعن الهواجس التي نشأت حوله) هو «طبيعيّ» و«سليم صحِّيّاً» وما إلى ذلك. إنَّما ينبغي أن تكون هذه الكذبة تافهة ومنفصلة كليّاً عن المسيحيَّة، على

أساس أيَّة نظرة معقولة. فمن الواضح أنَّ استسلامنا لجميع رغباتنا يُفضي إلى العجز والمرض والمحاسدات والأكاذيب والتستُّر وكلّ ما هو نقيضُ الصحّة والمرح والصراحة. إذ في سبيل أيَّة سعادة، ولو في هذا العالم، تدعو الضرورة إلى مقدار كبير من الضبط. وهكذا، فادّعاء كون كلّ رغبة، إذا كانت قويَّة، سليمةً صحّيّاً ومقبولة منطقيّاً هو ادّعاءٌ باطل. فكلُّ إنسان عاقل ومهذَّب يجب أن يحوز مجموعةً ما من القيم التي بموجبها يختار أن يرفض بعضاً من رغباته ويقبل غيرها. ومِن الناس مَن يفعل ذلك على أساس مبادئ مسيحيَّة، ومَن يفعله على أساس مبادئ صحّيَّة، ومَن يفعله على أساس مبادئ اجتماعيَّة. فالتضارب الحقيقيُّ ليس بين المسيحيَّة و«الطبيعة»، بل بين المبادئ المسيحيَّة والمبادئ الأُخرى في السيطرة على «الطبيعة». إذ لا بدَّ من السيطرة على «الطبيعة» (أعني الرغبة الطبيعيَّة) على كلّ حال، إلاَّ إذا شئتَ تدمير حياتك كلّها. وليس مَن ينكر أنَّ المبادئ المسيحيَّة أشدُّ صرامةً من سواها. غير أننا نعتقد أنّك ستحصل على معونة لإطاعتها لن تحصل عليها لإطاعة غيرها من المبادىء.

وفي المقام الثاني، يُعاقُ كثيرون عن محاولة التزام العفاف المسيحيّ بجديَّة لأنهم يتصوَّرون (قبل أن يحاولوا) أنَّ ذلك مستحيل. ولكنْ عندما ينبغي السعيُ إلى شيءٍ ما، يجب ألاَّ يُفكّر المرء أبداً في الإمكانيَّة أو الاستحالة. فإذا واجه الطالبَ سؤالٌ اختياريٌّ في ورقة امتحان، ينظر في قدرته على الإجابة عنه. أما إذا واجهه سؤالٌ إلزاميّ، فعليه أن يبذل أقصى جهده. ثمَّ إنَّك تنال علامةً ما لقاء إجابة ناقصة بعض الشيء. إنّما من المؤكّد أنّك لن تحصل على أيَّة علامة إذا لم تُجِب عنِ السؤال. وليس في الامتحانات فقط، بل أيضاً في الحرب، أو في تسلُّق الجبال، أو تعلُّم التزلُّج أو السباحة أو ركوب الدرّاجة، بل أيضاً في تزرير قبَّة بأصابعَ باردة في صقيع الشتاء، غالباً ما يقوم الناس بما كان يبدو مستحيلاً قبل قيامهم به. فما أروع ما تقدر أن تفعله حين يكون عليك فعلُه!

وفي وسعنا بالحقيقة أن نتيقَّن بأن العفاف التامّ، شأنه شأن الإحسان التامّ، لن يُحرَز بأيّ جهود بشريَّة مجرَّدة. فلا بدَّ أن تطلب معونة الله لأجله. حتَّى إنَّه بعدما تكون قد فعلت ذلك، قد يبدو لك وقتاً طويلاً أنّك لم تتلقَّ أيَّة معونة، أو تلقَّيتَ أقلَّ ممَّا تحتاج إليه. فلا تبتئس! بل بعد كلّ فشل، اطلبِ الغفران، ثمَّ قُم وحاول من

جديد. فما يعيننا الله على بلوغه أوّلاً أغلب الأحيان لا يكون هو الفضيلة ذاتها، بل القدرة على المحاولة دائماً من جديد. فمهما كانت أهميَّة العفاف (أو الشجاعة أو الصدق أو غيرهما من الفضائل)، تدرُّبنا هذه العمليَّة على عادات النفس، وتلك أكثرُ أهميَّةً بعد. إنَّها تشفينا من توهُّماتنا عن أنفسنا، وتعلِّمنا الاتّكال على الله. فمن الناحية الأُولى، نتعلَّم أنَّه لا يمكننا أن نثق بنفوسنا حتَّى في أحسن أحوالنا؛ ومن الناحية الأخرى أنَّه لا داعيَ لأن نيأس حتَّى في أسوإها لأنَّ سقطاتنا مغفورة لنا. أمَّا الأمر الوحيد الفتَّاك، فهو أن نقعد قانعين بأيِّ شيءٍ أقلَّ من الكمال.

وفي المقام الثالث، غالباً ما يُسيء الناس فهم ما يُعلِّمه علم النفس عن «حالات الكبت». فهو يعلِّمنا أن الجنس «المكبوت» خَطِر. ولكنَّ كلمة «المكبوت» هنا لفظة تِقنيَّة. فهي لا تعني «مكبوتاً» بمعنى «مرفوضاً» أو «مُقاوَماً». إذ إنَّ الفكرة أو الرغبة المكبوتة هي فكرة أو رغبة دُفِعت إلى ما دون الوعي (عادةً في سنٍّ مُبكِّرة جدّاً) وبات الآن ممكناً أن تخطر في البال فقط في شكلٍ مُقنَّع وغير مميَّز. فالشهوة الجنسيَّة المكبوتة لا تظهر للمريض بأنَّها جنسيَّة أبداً. وعندما ينهمك مُراهِق أو راشدٌ في مقاومة رغبةٍ يعيها، لا يكون متعاملاً مع كبت، ولا يكون متعرِّضاً على الإطلاق لإحداث كبت. بل على العكس، فإنَّ أولئك الذين يسعوَن إلى العفاف باجتهاد يكونون أكثر وعياً، وسرعان ما يعرفون مقداراً وافراً عن حال جنسانيَّتهم أكبر ممَّا يعرفه أيُّ شخصٍ سواهم. وإذا بهم باتوا يعرفون رغباتهم كما عرف ولنغتون نابليون، أو شرلوك هولمز موريارْتي؛ وكما يعرف صائدُ الفئرانِ الفئرانَ، أو السَّمكريُّ أحوال المواسير الراشحة. فالفضيلة، الفضيلةُ المنشودة، تؤتي النور؛ امَّا الانغماس فيؤتي التشوُّش والارتباك والغموض.

وفي الختام، رغم اضطراري إلى التوسُّع قليلاً في حديثي عن الجنس، أودُّ أن أُوضِّح بقدر إمكاني إنَّ لبَّ الأخلاقيَّات المسيحيَّة ليس ههنا. فإذا حسب أحد أنَّ المسيحيِّين يعتبرون عدم العفَّة أسوأ رذيلة، فهو مُخطئٌ تماماً. إنَّ خطايا الجسد سيِّئة، ولكنَّها الأقلُّ سوءاً بين الخطايا. فجميع اللَّذّات الأسوإ روحيَّةٌ محض: لذَّة تخطئة الآخرين أو تسفيههم، لذَّة التسلُّط والتفضُّل وسماع المديح، لذَّة الاغتياب أو الذمّ، مباهج السلطة، متعة الحقد أو الكراهية. ذلك أنَّ في داخلي عنصرين يُصارِعان النفس الإنسانيَّة التي يجب أن أسعى كي أحقِّقها، وهما النفس الحيوانيَّة

والنفس الشيطانيّة؛ وهذه الأخيرة أسوأ الاثنتين. ولذلك ربَّما كانت المرأة المتزمّتة المُباهية ببرِّها الذاتيّ أقرب إلى جهنَّم من الفاجرة المُقِرَّة بإثمها. ولكنَّ الأفضل طبعاً أن تكون المرأة لا هذه ولا تلك!

٦

الزواج المسيحي

كان الفصل الأخير سلبيّاً في معظمه. فقد بحثتُ في الفساد الذي حلَّ بالحافز الجنسيّ لدى الإنسان، ولكنّي قلتُ القليل فقط عن ناحيته الإيجابيّة العمليّة، أي بتعبيرٍ آخر عن الزواج المسيحيّ. ولعدم رغبتي خصوصاً في تناول موضوع الزواج سببان: أوّلهما أنّ التعاليم المسيحيّة الخاصّة بهذا الموضوع غير محبّبة إلى أقصى حدّ؛ والثاني أنّني أنا شخصيّاً لم أتزوّج قطّ، وتالياً لا يمكنني أن أتحدّث حديث مُختبِرٍ. ولكنْ على الرغم من ذلك أرى أنّه لا يكاد يسعني السكوت عن هذا الموضوع في بحثٍ يتناول الأخلاق المسيحيّة.

ترتكز الفكرة المسيحيّة في الزواج على قول المسيح إنّ الرجل وزوجته يجب أن يُعدّا كائناً عضويّاً واحداً. إذ إنّ هذا هو معنى قوله «جسد واحد» بلغتنا الحديثة. ويعتقد المسيحيّون أنّه لمّا قال ذلك لم يكُن يُعبّر عن شعورٍ أو تمنٍّ: بل كان يُفصِح عن حقيقة، تماماً كما يعبّر المرء عن حقيقة حين يقول مثلاً إنّ القفل ومفتاحه مَكَنةٌ واحدة، أو إنّ الكمنجة والقوس آلةٌ موسيقيّة واحدة. فإنّ مخترع المَكَنة البشريّة كان إذ ذاك يقول لنا إنّ نِصفَيها الاثنين، أي الذكر والأُنثى، صُنعا كي يتّحدا كزوجَين، لا على الصعيد الجنسيّ فحسب بلِ اتّحاداً كليّاً شاملاً. ففظاعة الوصال الجنسيّ خارجَ إطار الزواج هي أنّ أولئك المنغمسين فيه يحاولون عزل نوع من الاتّحاد (أي الجنسيّ) عن سائر أنواع الاتّحاد التي صُمّم لها أن تتماشى معهُ لتشكّل جميعاً الاتّحاد الكلّيّ. ولا يعني الموقف المسيحيُّ أنّ في المتعة الجنسيّة أيَّ خطأ، شأنُها شأنُ متعة الأكل تماماً؛ بل يعني أنّ عليك ألاّ تعزل تلك المتعة وتسعى إلى الحصول عليها بمفردها، مثلما لا ينبغي لك أن تحاول الحصول على مسرّات

التذوُّق بغير ابتلاع وهضم، وذلك بمضغك للأشياء ثمَّ بصقها من فمك.

ومن النتائج المُترتِّبة على ذلك أنَّ المسيحيَّة تُعلِّم أنَّ الزواج يدوم مدى الحياة. ثمَّة بالطبع فرق بين مختلف الكنائس: فبعضها لا تعترف بالطلاق أبداً؛ وبعضها تُجيزه بفتور وتردُّد في حالات خاصَّة محدودة جدّاً. ومن المؤسف أنَّ يختلف المسيحيُّون على مسألةٍ كهذه. إلاَّ أنَّ الأمر الذي لا بدَّ أن يلاحظه العلمانيُّ العاديُّ هو أنَّ الكنائس كلَّها تتَّفق إحداها مع الأُخرى بشأن الزواج اتِّفاقاً يفوق بكثير ذاك الذي تَّتفقُه أيَّة واحدة من هذه الكنائس مع العالم الخارجيّ. أعني أنَّ الكنائس كلَّها تعدُّ الطلاق أمراً يُشبِه قطع جسدٍ حيٍّ قطعتين، كنوع من العمليَّة الجراحيَّة. فمِنها مَن تحسب العمليَّة بالغة العنف بحيث لا يمكن إجراؤها أبداً، ومِنها مَن تقبلها كعلاجٍ أخير اضطراري في بعض الحالات القصوى. وهي جميعاً تتَّفق على أنَّه أشبه ببترِ رجليك كلتيهما منه بحلِّ شركة تجاريَّة أو بالفرار من فوجٍ عسكريٍّ أيضاً. وما لا تقرُّه جميعاً هو النظرة العصريَّة بأنَّ الطلاق هو إعادة تكييفٍ بسيطة للشريكين يمكن إجراؤها كلَّما شعر شريكان بأنَّهما لم يعودا يحبّان أحدهما الآخر، أو عندما يقع أيٌّ منهما في حُبِّ شخصٍ آخر.

وقبل النظر في هذه النظرة العصريَّة مِن حيث علاقتُها بالعفَّة، علينا ألاَّ ننسى النظر فيـها من حيث علاقتها بفضيلةٍ أُخرى، ألا وهي العدل أو الإنصاف. فالإنصاف، كما سبق أن قلتُ، يشتمل على الوفاء بالوعود. وكلُّ من تزوَّج في كنيسةٍ قطع وعداً علنيّاً جدِّيّاً بملازمة شريك الحياة ما دام حيّاً. فواجب الوفاء بهذا الوعد ليست له علاقة خاصَّة بالأخلاقيَّات المتعلِّقة بالجنس، بل إنَّ له الموقع عينه الذي لأيِّ وعدٍ آخر. وإذا كان الحافز الجنسيُّ، كما لا ينفكُّ معاصرونا يقولون لنا، يُشبه جميع حوافزنا الأُخرى تماماً، فعندئذٍ ينبغي أن يُعامل معامَلةَ حوافزنا كلِّها. وبما أنَّ الانغماس في تلك الحوافز تضبطة وعودُنا، فهكذا أيضاً ينبغي أن يكون الانغماس في الحافز النفسي خاضعاً لها. أمَّا إذا كان لا يشبه حوافزنا الأُخرى، كما أعتقد، ولكنَّه مشتعلٌ على نحوٍ مَرَضيّ، فعندئذٍ ينبغي أن نحرص حرصاً خاصّاً على ألاَّ يُفضيَ بنا إلى الخيانة الزوجيَّة.

رُبَّ قائلٍ إزاء هذا إنَّه يعدُّ الوعد الذي قطعه في الكنيسة مجرَّد تصرُّف شكليّ، ولم يكن في الأصل ينوي الوفاء به. فمن كان يحاول أن يخدع لمَّا قطع

ذلك الوعد؟ الله؟ أنفسَهُ؟ إذاً لقد كان ذلك تصرُّفاً يفتقر إلى الحكمة فعلاً! أم العروس (أم العريس) أم أهل الزوجة (أو الزوج). إذاً لقد كان ذلك غدراً ومكراً. وما أكثر ما أحسب أن الزوجين (أو أحدهما) كانا يأملان أن يخدعا عامَّة الناس! فإنَّهما يريدان أن يحظيا بالاحترام المنوط بالزواج دون نيَّة في دفع الثمن، أي أنَّهما كانا محتالين وقد لجأا إلى الغشّ. وإذا كانا ما يزالان غشَّاشَين قانعَين، فليس لديَّ ما أقوله لهما، فمَن ذا يريد أن يفرض واجبَ العفَّةِ الساميَ والصعب على شخصين لم يرغبا حتّى في أن يكونا صادِقَين فحسب؟ وإذا كانا قد عادا إلى رشدهما الآن ويريدان أن يكونا صادِقَين، فإنَّ وعدهما الذي سبق أن قطعاه هو خيرُ مُلزِمٍ لهما. وهذا، كما لا بدَّ أن ترى، يندرج تحت عنوان العدل أو الإنصاف، لا تحتَ عنوان العفاف. وإذا كان الشريكان لا يؤمنان بالزواج الدائم، فربَّما كان أحسن لهما أن يعيشا معاً بغير زواج من أن يقطعا وعوداً لا ينويان الوفاء بها. صحيحٌ أنَّهما إذ يعيشان معاً بلا زواج يكونان مرتكِبين لِذنْب الزِّنى (من وجهة النظر المسيحيَّة)، إلاَّ أنَّ غلطةً واحدة لا تُصلِحها غلطةٌ أُخرى: فعدم العفاف لا يتحسَّن بإضافة الإخلاف بالوعود.

ثمَّ إنَّ فكرة كون «دوام الحُبّ» هو السبب الوحيد لاستمرار الزواج لا تترك بالحقيقة أيَّ مجال على الإطلاق للنظر إلى الزواج على أنَّه عهدٌ أو وعد. فإن كان الحبُّ هو كلَّ شيء، فعندئذٍ لا يمكن أن يُضيف الوعد أيَّ شيء. وإذا كان لا يضيف شيئاً، فلا ينبغي أن يُقطع. والأمر الغريب هو أنَّ الحبيبين أنفسهما، ما داما متحابَّين فعلاً، يعرفان ذلك أفضل من أولئك الذين يتكلَّمون عن الحبّ. وكما نوَّه شسترتُن، فإنَّ لدى المتحابَّين ميلاً طبيعيّاً لربط أنفسهما بالوعود. فأناشيد الحبّ في جميع أنحاء العالم مُفعمة بنذور الوفاء الأبديّ. وليس القانون المسيحي هنا فارضاً على عاطفة الحبّ شيئاً غريباً عن طبيعتها بالذات: فهو يطلب من الحبيبين أن يأخذا على محمل الجدّ أمراً تدفعهما إلى فعله عاطفتُهما من تلقاء ذاتها.

ولا ريب أنَّ الوعد الذي أقطعه وأنا واقعٌ في الحبّ، ولأنّي واقع في الحبّ، بأن أكون مخلصاً للمحبوب ما دمتُ حيّاً، يُلزِمني أن أظلّ مُخلِصاً حتّى لو فتر حُبّي أو تلاشى. فالوعد يجب أن يكون بخصوص أُمورٍ يمكنني أن أفعلها، أي معنيّاً بالأفعال: فلا أحد يستطيع أن يعد بأن يستمرَّ شاعراً شعوراً معيَّناً. وإلاَّ، فلماذا

لا يعد أيضاً بألاَّ يُصيبَه صداع أبداً، أو بأن يظلَّ شاعراً بالجوع كلَّ حين؟ إنَّما قد يُطرح هذا السؤال: أيُّ نفعٍ في إبقاء شخصين معاً إذا كان الحبُّ بينهما قد زال؟ إنَّ هناك اثنين من الأسبابِ الاجتماعيَّة الوجيهة: كي يوفِّرا بيتاً لأولادهما، ومن أجل حماية المرأة من أن يتخلَّى عنها الرجل متى سئم منها (وربَّما تكون قد ضحَّت بمهنة حياتها أو عطَّلتها عند الزواج). إلاَّ أنَّ هنالك أيضاً سبباً آخر أنا على يقينٍ من جهته، وإن كنتُ أستصعب تفسيره قليلاً.

أمَّا وجه الصعوبة فلأنَّ كثيرين لا يمكن أن نبلغ بهم إلى حيث يدركون أنَّه متى كان «ب» أفضل من «ج» فإنَّ «أ» قد يكون أفضل من «ب» أيضاً. وهم يَهوَون التفكير حسب تصنيف الجيِّد والسيِّئ، لا حسب تصنيف الجيِّد والأجود والأكثر جودةً، أو السيِّئ والأسوإ والأكثر سوءاً. فهم يودُّون أن يعرفوا هل تعتبر الوطنيَّة أمراً جيِّداً: فإذا أجبتَ بأنَّها طبعاً أفضل بكثير من الأنانيَّة الفرديَّة، إلاَّ أنَّها دون مستوى المحبَّة الشاملة وينبغي دائماً أن تبتعد من طريق المحبة الشاملة إذا تنازعتا، يحسبون أنَّك تلجأ إلى المراوغة. ويسألونك عن رأيك في المبارزة: فإذا أجبتَ بأنَّه أفضل بكثيرٍ أن تُسامح امرأً من أن تخوض مبارزةً معه، ولكنْ حتَّى المبارزة قد تكون أفضلَ من عداوةٍ تعبِّر عن ذاتها بمساعٍ خفيَّة «للقضاء على ذلك المرء»، ينصرفون عنك متذمِّرين من امتناعك عن إعطائهم جواباً صريحاً. فأرجو ألاَّ يغلط أحد مثل هذه الغلطة بشأن ما سأقوله الآن.

إنَّ ما ندعوه «الوقوع في الحبّ» هو حالةٌ مجيدة، وهي جيِّدة لنا من عدَّةِ نواحٍ. فهي تساعدنا على أن نكون كُرَماء وشجعاناً، وتفتح أعيننا لا على جمال المحبوب فقط بل على كلِّ جمالٍ أيضاً، وهي تجعل جنسانيَّتنا الحيوانيَّة المجرَّدة (ولا سيَّما في البداية) أمراً ثانويّاً. وبهذا المعنى يكون الحبُّ أكبر قاهر للشهوة. فما من عاقلٍ يُنكِر أنَّ حالة الحبِّ الدائمة أفضل بكثير من الشهوانيَّة الشُّوقيَّة ومن التمحور حول الذات. ولكنْ، كما سبق أن قلت، أخطرُ شيءٍ يمكن أن نقوم به هو أن نأخذ أيَّ حافزٍ من حوافز طبيعتنا الخاصَّة وننصِّبه على أنَّه الغرض الذي ينبغي أن نتبعه مهما كان الثمن. فكون المرء في حالة الحبِّ أمرٌ جيِّد، غير أنه ليس الأكثر جودةً. إذ إنَّ دونَه أشياءَ كثيرة، ولكنَّ فوقه أيضاً أشياء أُخرى. فلا يمكنك أن تجعله أساس حياةٍ بكاملها. إنَّه شعور نبيل، ولكنَّه يبقى شعوراً. والآن، ما من شعور يمكن أن

نركن إلى أنّه سيدوم بملء حدّته وشِدَّتِه، ولا حتّى إلى أنّه سيدوم أصلاً. فالمعرفة يمكن أن تدوم، والمبادئ يمكن أن تدوم، والعادات يمكن أن تدوم؛ غير أنّ المشاعر تأتي وتمضي. وفي الحقيقة، مهما قال الناس، أنّ حالة كون المرء في الحبّ لا تدوم عادةً. فإذا فُهمت خاتمة القصص الخياليَّة القديمة «وعاشا في سعادة دائمة ونعيم مُقيم» على أنّها تعني «شعرا طيلة الخمسين سنة التالية تماماً كشعورهما عشيَّة زفافهما»، فهي عندئذٍ تقول ما يُحتمَل أنّه لم يكن صحيحاً قطُّ ولن يكون أبداً؛ ولو صحَّ لتضاءلت الرغبة فيه كثيراً وكان غير مُحبَّب. فمنذا يحتمل أن يعيش في حالة الغرام والهيام تلك ولو خمسَ سنين؟ وماذا يحلُّ بعملك وشهيَّتك ونومك وصداقاتك؟ غير أنّ الكفَّ عن الوجود في حالة الحبّ لا يعني بالضرورة التوقُّف عن المحبَّة. والمحبَّة بهذا المعنى الآخر، أي بوصفها مختلفةً عن «الوقوع في الحبّ»، ليست مجرَّد شعور. إنّها وحدة قويَّة جدّاً، حاصلة بفضل الإرادة ومُعزَّزة عمداً بحكم العادة، ومُقوَّاة (في الزواج المسيحيّ) بالنعمة التي يلتمسها كلا الشريكين وينالانها من الله. ففي مقدورهما أن يحوزا هذه المحبَّة أحدهما للآخر في تلك اللحظات التي فيها لا يودُّ أحدهما الآخر، مثلما تحبُّ نفسك حتّى لو لم تكن تودُّها. وفي مقدورهما أن يُبقيا على هذه المحبَّة ولو حين يكون من السهل عليهما، إذا سمحا لأنفسهما، أن يقعا في حُبِّ شخص آخر. فإذ وُجدا في حالة الحُبِّ أوّلَ الأمر، توافر لديهما الحافز للوعد بالأمانة الدائمة. وهكذا، فإنّ هذه المحبَّة الأكثر هدوءاً تمكّنهما من الوفاء بالوعد. بوقود هذه المحبة يُشغَّل مُحرِّك الزواج؛ أمّا الوقوع في الحبّ فقد كان هو الانفجار الذي أطلق حركته.

إذا كنت تخالفني في الرأي، فلا بدَّ أن تقول: «إنّه لا يعرف شيئاً عن الموضوع، فهو ليس متزوِّجاً.» وقد تكون مُحِقّاً جداً. إنّما قبل أن تقول ذلك، تيقَّن تماماً بأنك تحكم عليَّ على أساس ما تعرفه حقّاً من اختبارك الشخصيّ ومن ملاحظة حياة أصدقائك، لا على أساس أفكارٍ استقيتَها من الروايات والأفلام. وليس القيام بهذا سهلاً كما يحسب الناس. فإنّ اختبارنا بات يصطبغ أكثر فأكثر بما تحويه الكتب والروايات والمسرحيّات والسينما، ولا بدَّ من الصبر والمهارة كي نعزل الأشياء التي تعلّمناها حقّاً بأنفسنا من الحياة.

يستمدُّ الناس من الكتب الفكرةَ القائلة بأنّك حين تتزوّج الشريك الصحيح

يمكنك أن تتوقَّع الاستمرار في حالة الحبّ إلى ما لا نهاية. ونتيجةً لذلك، فعندما يتبيَّن لهم أنْ ليس ذلك واقعَهم يعتقدون أنَّ ذلك برهان على أنَّهم ارتكبوا غلطة ومن حقِّهم إحداثُ تغيير، غير مدركين أنَّه بعد حصولهم على التغيير سيتلاشى الألَق سريعاً من الحبِّ الجديد مثلما سبق أن تلاشى من القديم. ففي هذا النطاق من الحياة، كما في أيِّ نطاقٍ آخر، تأتي رَعشات الطرب في البداية ولا تستمرُّ على حدَّتها. فإنَّ الرَّعشة التي تسري في كيانِ صبيٍّ عندما تخطر في باله فكرة الطيران لن تستمرَّ بعد التحاقة بسلاح الجوّ وتعلُّمه الطيران فعلاً. كما أنَّ البهجة التي تشعر بها لدى رؤيتك مكاناً بهيجاً تتلاشى بعد انتقالك للإقامة في ذلك المكان. أفيعني هذا أنَّه كان خيراً لو لم يتعلَّم المرء الطيران، ولو لم تنتقل للإقامة في المكان الجميل؟ كلاَّ! ففي كلتا الحالين، إذا استمررتَ بالأمر، يحلُّ محلَّ تلاشي البهجة الأُولى نوعٌ من الاهتمام أكثر هدوءاً ودواماً. أضِف إلى ذلك (ولا أكاد أعثر على الكلمات المناسبة لأقول لك كم أعتقد أنَّ هذا الأمر مهمّ) أنَّ أولئك المستعدِّين لتقبُّل فقدان البهجة، والاستقرار على الاهتمام الرزين، هم أنفسهم المرشَّحون جدّاً لاختبار بهجات جديدة في وجهةٍ أُخرى مختلفة تماماً. فالرجل الذي تعلَّم الطيران وصار طيّاراً جيِّداً سيكتشف الموسيقى فجأةً؛ والرجل الذي استقرَّ للإقامة في البقعة الجميلة سيكتشف لذة العمل في الحدائق والزهور.

ذلك هو، في اعتقادي، جزءٌ يسيرٌ ممَّا عناه المسيح بقوله إنَّ شيئاً لن يعيش حقّاً ما لم يُمت أوَّلاً. فبكلِّ بساطة، لا خيرَ في محاولة الإبقاء على أيَّة بهجةٍ استثنائيَّة: إنَّ ذلـك لأسوأُ أمرٍ يمكن أن تفعله. فلتمضِ البهجةُ الاستثنائيَّة، لتمُت، لتجتَز فترة الموت تلك كي تبلغ ما يعقبها منِ اهتمام أكثر هدوءاً وسعادة أكثر سكوناً، فتكتشف أنَّك تعيش في عالمٍ من البهجات الجَديدة كلَّ حين. ولكنْ إذا شئت أن تجعل البهجات الاستثنائيَّة وَجبتك المعتادة وتحاوِل إطالة أمدها بوسائل مصطنعة، تغدو أضعفَ، وأقلَّ فأقلَّ، وتصير هَرِماً مَلُولاً مخدوعاً ما تبقَّى من عمرك. وسبب ذلك أنَّ قلَّةً قليلة من الناس يدركون هذا الواقع بحيث تجد كثيرين ممَّن هُمْ في وسط العمر يهدرون شبابهم الضائع، في العمر عينه الذي فيه ينبغي أن تكون آفاقٌ جديدةٌ آخِذةً في الظهور وأبوابٌ جديدة آخذة في الانفتاح حواليهم. فإنَّها لمتعة أفضل بكثير أن تتعلَّم السباحة من أن تظلَّ إلى ما لا نهاية (وبغير أمل) محاولاً

استرجاع ذلك الشعور الذي خالجك أوّلاً لمّا رحتَ تُخوِّض في الماء أوّل مرّة لمّا كنتَ ولداً صغيراً.

ثمّ إنّنا نستمدُّ من الروايات والمسرحيّات فكرةً أُخرى تقول بأنّ «الوقوع في الحبّ» هو أمرٌ لا يُقاوَم البتّة: أمرٌ يُصيب المرء كيفما اتّفق، كالحصبة مثلاً. ولأنّ بعض المتزوِّجين يعتقدون هذا، فهم يستسلمون حالاً إذ تنهار دفاعاتُهم حين يُلفون أنفسهم منجذبين إلى شخصٍ يتعرّفون به حديثاً. غير أنّي أميل إلى الاعتقاد أنّ هذه المشاعر التي لا تُقاوَم هي في الحياة الواقعيّة أندر بكثيرٍ ممّا هي في الكتب، حين يكون المرء بالغاً على كلّ حال. فعندما نقابل شخصاً جميلاً وذكيّاً وعطوفاً، فلا بدّ لنا طبعاً، بمعنىً محدَّد، من أن نُعجَب بتلك المزايا الطيّبة ونحبّها فيه. ولكنْ أليس في خِيارنا إلى أبعد حدّ أن ندع هذا «الحُبّ»، أو لا ندعه، يتحوّل إلى ما نسمّيه «الوقوع في الحبّ»؟ إذا كانت عقولنا ملأى بالروايات والمسرحيّات والأغاني العاطفيّة، وأجسادنا ملأى بالكحول، فلا شكّ أنّنا سنحوّل أيّ حبٍّ نشعر به إلى ذلك النوع من الحبّ: تماماً مثلما تكون في طريقك قناة فتنصبُّ كلُّ مياه الأمطار فيها، ومثلما تضع على عينيك نظّارة زرقاء فيتحوّل كلُّ ما تراه إلى اللون الأزرق.

وقبل التحوُّل عن مسألة الطلاق، أودُّ التمييز بين أمرين كثيراً جدّاً ما يختلطان؛ أحدهما مفهوم الزواج في المسيحيّة، والآخر هو هذه المسألة المختلفة تماماً: إلى أيّ مدىً ينبغي للمسيحيّين، إذا كانوا ناخبين أو نوّاباً، أن يحاولوا فرض آرائهم في الزواج على سائر أفراد المجتمع بتجسيدها في قوانين الطلاق؟ يعتقد كثيرون جدّاً، على ما يبدو أنّه إذا كنتَ مسيحيّاً بالحقّ فينبغي لك أن تسعى إلى تصعيب الطلاق على كلّ إنسان. غير أنّي لا أعتقد ذلك. على الأقلّ، اعرفُ أنّه لا بدّ لي من الاستياء إذا حاول بعض المتزمّتين منع الباقين منّا أن يقربوا ما يعدُّونه حراماً. فرأيي الشخصيّ هو أنّ على الكنائس أن تقرّ في صراحة بأنّ أغلبيّة الشعب البريطانيّ ليسوا مسيحيّين بالحقّ، وتالياً لا يمكن أن نتوقّع منهم أن يحيوا حياةً مسيحيّة. لذا يمكن أن يتواجد نوعان من الزواج: زواجٌ تتحكّم به الدولة وله قوانين تُفرض على جميع المواطنين، وزواجٌ ترعاه الكنيسة وله قوانين تُلزِم أتباعها. وينبغي أن يكون التمييز حادّاً للغاية، بحيث يعرف المرء أي زوجين متزوّجين زواجاً مسيحيّاً، وأي زوجين ليسا كذلك.

أكتفي بهذا القدر من الكلام عن العقيدة المسيحيَّة المتعلِّقة بدوام الزواج. إنَّما يبقى أمرٌ آخر، أقلُّ شعبيَّةً بعد، ينبغي التطرُّق إليه. فإنَّ الزوجات المسيحيَّات يعدن بأن يُطِعن أزواجهنَّ. وفي الزواج المسيحيِّ يُعتبَر الزوج هو «الرأس». وهنا يثور سؤالان بصورة بديهيَّة: (١) لماذا ينبغي وجودُ رأسٍ أصلاً، فلماذا لا تقوم مساواة؟ (٢) ولماذا ينبغي أن يكون الرأس هو الرجل؟

(١) إنَّ الحاجة إلى وجود رأسٍ ما تأتي مِنْ فكرة كون الزواج دائماً. وطبعاً، ما دام الزوج والزوجة متَّفقين، فلا داعيَ لطرح مسألة وجود رأس. ولنا أن نأمل في أن يكون هذا وضعَ الأمورِ السويَّ في الزيجة المسيحيَّة. ولكنْ إذا حصل خلاف فعليّ، فماذا ينبغي أن يحدث؟ على الزوجين طبعاً أن يتصارحا ليحلاَّ الخلاف؛ غير أنِّي أفترض أنَّهما قد فعلا ذلك، وعلى رغمه لم يتوصَّلا إلى اتِّفاق. فماذا يفعلان تالياً؟ لا يستطيعان إجراء تصويت تفوز فيه الأكثريَّة، لأنْ لا أكثرية في مجلس يضمُّ عُضوَين فقط. فبالتأكيد، لا يمكن أن يحدث إلاَّ أمرٌ من أمرين: إمَّا أن ينفصلا ويذهبا كلٌّ في طريقه، وإمَّا يكون لأحدهما صوتٌ مُرجِّح. وما دام الزواج دائماً، فيجب على أحد الشريكين، كحلٍّ أخير، أن يحوز السلطة لتقرير سياسة العائلة. فلا يمكن قيام اتِّحاد دائم بغير دستور.

(٢) إن كان ينبغي أن يوجد رأس، فلماذا الرجل؟ حسناً، أوَّلَ كل شيء، أهنالك من رغبة جدِّيَّة تماماً في أن تكون الزوجة هي الرأس؟ كما سبق أن قلت، أنا نفسي غير متزوِّج، ولكن بمقدار ما يمكنني أن أرى، فحتَّى المرأةُ التي تريد أن تكون هي رأس بيتها لا تروقُها عادةً أحوالُ الأمور نفسُها حين تجدها جاريةً في بيت جيرانها. ويُرجَّح جدّاً أن تقول: «مسكينٌ فُلان! لماذا يسمح لتلك المرأة الرهيبة بالتسلُّط عليه كما هي فاعلة؟ إنَّ هذا أمرٌ يفوق ما يمكن أن أتصوَّره!» ولستُ أظنُّ أنَّ غرورها يُشبَع كثيراً إذا ذكر شخصٌ ما حقيقة «ترؤُّسها» هي. فلا بدَّ أن يكون في تسلُّط الزوجات على أزواجهنَّ أمرٌ غير سويّ، لأنَّ الزوجات أنفسهنَّ شبهُ خجلات به ويحتقرن الأزواج الذين يتحكَّمنَ بهم. ولكنَّ ثمَّة سبباً آخر أيضاً؛ وهنا أتكلَّم بمنتهى الصراحة بصفتي عزباً، لأنَّه سببٌ يمكنك أن تراه من الخارج بوضوح أكثر ممَّا تراه من الداخل. ذلك أنَّ علاقات العائلة بالعالم الخارجيّ (ما يمكن أن يُسمَّى سياستها الخارجيَّة) ينبغي أن تكون بيد الرجل في نهاية المطاف،

لأنّه ينبغي له دائماً أن يكون أكثر إنصافاً بكثير في معاملة الغُرَباء، وهو يكون كذلك عادةً. فالمرأة تناضل في المقام الأوّل لأجل أولادها وزوجها مواجِهةً باقي العالم. وتكاد مطالبهم، على نحو طبيعيٍّ ومُحِقٍّ بمعنىً ما، تفوق عندها جميع المطالب الأُخرى. إنّها المؤتمنة المُميَّزة على مصالح عائلتها. فوظيفة الزوج هي أن يحرص على ألاّ يجعلَها هذا الإيثارُ الطبيعيُّ فيها تتولّى مركز الرأس. وله الكلمة الحاسمة كي يحميَ سائر الناس من «وطنيّة» زوجته المفرطة على صعيد العائلة. وإن شكَّ في هذا أحد، فلأسأله سؤالاً بسيطاً. إذا عضَّ كلبُكم ابن الجيران، أو إذا آذى ابنكما كلب الجيران، فمع مَن ستُضطرُّ عاجلاً لأنْ تتعامل: ربِّ ذلك البيت أو ربّته؟ أو إذا كنتِ امرأةً متزوِّجة، فدعيني أسألكِ سؤالاً: رغم إعجابك الشديد بزوجك، أفلا تقولين إنّ إخفاقه الرئيسيَّ يكمن في ميله إلى عدم التشبُّث بحقوقه وحقوقك في مواجهة الجيران بمثل ما تودّين من قوّة ونشاط؟ أوَلا تتّهمينه بأنّه يسعى قليلاً إلى استرضائهم؟

٧

الغفران

قلتُ في فصلٍ سابق إنَّ العفَّة هي الفضيلة الأقلُّ شعبيّةً بين الفضائل المسيحيَّة. ولكنِّي لستُ على يقينٍ بأنِّي كنتُ على حقّ. فأنا أعتقد أنَّ هنالك فضيلةً أُخرى أقلَّ شعبيَّةً بعد، ألا وهيَ تلك المرسومة في القاعدة المسيحيَّة القائلة: «تحبُّ قريبك كنفسك.» وذلك لأنَّ «قريبك» في الأخلاق المسيحيَّة يشمل «عدوَّك» أيضاً، وهكذا يبرز أمامنا هذا الواجبُ الرهيب المتمثِّل بالغفران لأعدائنا.

يقول كلُّ امرئٍ إنَّ الغفران فكرةٌ مُحبَّبة، حتَّى يكونَ شيء يستوجب الغفران، مثلما كان لشعبنا في أثناء الحرب. ثُمَّ إنَّ ذِكر هذا الموضوع من أساسه يُثير نوباتٍ من الغضب في وجوهنا. ليس أنَّ الناس يحسبون هذا الأمر فضيلةً أسمى وأصعب من أن يُطبَّق، بل إنَّهم يعدُّونه بغيضاً وحقيراً. فهم يقولون: «مثلُ هذا الحديث يُصيبني بالغثيان!» ونصفكم يريدون توّاً أن يسألوني: «أتساءل عن شعورك حيال الغفران للغستابو لو كنتَ پولنديّاً أو مُضطهَداً مسكيناً؟»

هكذا أتساءل أنا، وأُسائل نفسي كثيراً. كما أنَّني حين تقول لي المسيحيَّة إنَّ عليَّ ألاَّ أُنكِر إيماني لأنجو من الموت أتساءل كثيراً جدّاً عَّما ينبغي لي أن أفعله إذا واجهتُ ذلك فعلاً. ولستُ أسعى في هذا الكتاب لأنْ أقول لك ما يمكنني أن أفعله (وما أقلَّ ما أستطيع أن أفعله!) بل إنِّي أقول لك ما هي المسيحيَّة. وليست هي من اختراعي طبعاً. وهناك تماماً، في مركزها، أجدُ الطّلبة: «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمسيئين إلينا». ولا إشارةَ البتَّة إلى أنَّ الغفران يُقدَّم لنا بأيَّة شروط أُخرى. فمُوضَّحٌ تماماً أنَّه إن كنّا لا نغفر فلا يُغفَر لنا. ولا سبيل آخر إلى ذلك. فماذا ينبغي لنا أن نفعل؟

سيكون ذلك صعباً إلى حدٍّ بعيد، ولكنّي أعتقد على كلّ حال أنّ ثمّة أمرين يمكننا القيام بهما لتسهيله. عندما تباشر تعلُّم الرياضيّات، لا تبدأ بحساب التكامُل والتفاضُل، بل بحساب الجمع البسيط. وعلى غرار ذلك، إذا أردنا حقّاً (إنّما الأمر كلّه يتوقف على الإرادة حقّاً) أن نتعلّم كيف نغفر، فربّما كان أفضل لنا أن نبدأ بشيءٍ أسهل من الغستابو. ففي وسع المرء أن يبدأ بالغفران لزوجته، أو أبويه أو أولاده، أو أقربِ ضابطِ صفٍّ مُعادٍ، عن شيءٍ فعلوه أو قالوه في الأُسبوع الماضي. والأرجح أنّ هذا سيشغلنا في الوقت الراهن. ثمّ إنّنا تالياً قد نحاول أن نفهم تماماً ما يعنيه أن تحبّ عدوّك كنفسك. فعليّ أن أُحبّه كما أحبُّ نفسي. إذاً، كيف أُحبُّ نفسي بالضبط؟

عندما أُفكّر في الأمر، أجد أنْ ليس لديَّ شعورٌ بالإعجاب أو المودّة تجاه نفسي، حتّى إنّني لا أستمتع دائماً بمجتمعي الخاصّ. وهكذا يظهر أنّ محبّتك لقريبك لا تعني أن «تجده جذّاباً» ولا أن «تشعر بالإعجاب تجاهه». وكان ينبغي لي أن أكون قد أدركتُ ذلك قبلاً، لأنّك بالطبع لا يمكنك أن تشعر بالمودّة تُجاه شخص ما من طريق المحاولة. أأُحسِن ظنّاً بنفسي، معتبراً نفسي فتىً ماجداً؟ حسناً، يُخيَّل إليَّ أنّني أفعل ذلك أحياناً (وتكون تلك بالطبع أسوأ لحظاتي)، ولكنْ ليس لهذا أُحبُّ نفسي، بلِ العكس هو الصحيح فعلاً: أنّ حُبّي لنفسي يجعلني أعتبر نفسي لطيفاً، ولكنّ استلطافي لنفسي ليس سبب محبّتي لنفسي. وهكذا، فإنّ محبّتي لأعدائي لا تعني على ما يبدو أن أعتبرهم لطفاء ظرَفاء أيضاً. وفي هذا إراحةٌ شديدة حقّاً. فإنّ كثيرين يتصوّرون أنّ الغفران لأعدائك يعني إثبات كونهم بالحقيقة أشخاصاً غير أردياء رغم كلّ شيء، في حين يتّضح تماماً أنّهم ليسوا صالحين. ولنخطُ خطوةً أخرى بعد. في أجلى لحظاتي بصيرةً، لا أكتفي بحسبان نفسي شخصاً غير صالح، بل أعرف أنّني إنسان سيّئٌ جدّاً. وفي وسعي أن أنظر إلى بعض الأُمور التي فعلتُها نَظرةَ رعبٍ واشمئزاز. فيظهر إذاً أنّ من حقّي أن أعاف وأكره بعض أفعال أعدائي. وإذ أُفكّر في ذلك الآن، أتذكّر ما قاله لي معلّمون مسيحيّون بالحقّ منذ عهد بعيد إنّه يجب عليّ أن أكره أفعال الإنسان الرديء دون أن أكره ذلك الإنسان الرديء، أو كما كانوا يقولون: أكره الخطيّة ولكنْ لا أكره الخاطئ.

وقد بقيتُ زمناً طويلاً أعتبر ذلك تفريقاً تافهاً من قبيل المماحكة: فكيف

يمكنك أن تكره ما يفعله إنسانٌ ما ولا تكره ذلك الإنسان. إنَّما بعد سنين طويلة خطر في بالي أنَّ هنالك إنساناً ما زلتُ أفعل به ذلك طولَ عمري، ألا وهو أنا نفسي. فمهما بلغ مقدار كرهي لجبني أو غروري أو جشعي، ظللتُ ماضياً في محبَّة نفسي. وما واجهتُ في ذلك أدنى صعوبة. وبالحقيقة أنَّ سبب كرهي لتلك المساوئ إنَّما كان حبِّي للإنسان. فلأنَّني أُحبُّ نفسي، كنت آسفاً أن أجد أنَّني كنت إنساناً من النوع الذي يفعل تلك المساوئ. وعليه فالمسيحيَّة لا تريد منَّا أن نُقلِّلَ مثقال ذرَّة من الكره الذي يُداخِلنا تجاه القسوة والخداع والغشّ؛ بل ينبغي لنا أن نكرهها. ولا داعيَ لإسقاط كلمةٍ واحدة ممَّا قد قلناه عنها. إلاَّ أنَّ المسيحيَّة تريد منَّا فعلاً أن نكره هذه المساوئ بالطريقة التي بها نكره مساوئَ في أنفُسنا: بأن يؤسفنا أن يكون ذلك الإنسان قد ارتكب أفعالاً من هذا النوع، آملين، إذا كان ممكناً بأيَّة طريقة وكيفيَّة وفي أيِّ زمانٍ ومكان، لو يتأتَّى له الشفاء والعودة إلى إنسانيَّته من جديد.

وهاك الامتحان الحقيقيّ. هبْ شخصاً قرأ في صحيفة خبر فظائع مروِّعة. ثمَّ هَبْ أمراً يستجدُّ ليوحي أنَّ الخبر ربَّما لا يكون صادقا إلى التمام، أو ليس بمثل الرداءة التي صُوِّر بها. أفيكون أوَّل شعور يراود الشخص: «شكراً لله على كونه بهذه الرداءة تماماً!» أم هو شعور خيبة، بل أيضاً تصميم على التمسُّك بالرواية الأولى لسبب اللذة الخالصة في حسبان أعدائك أردأ ما يمكن؟ إن كان الأمر الثاني، فعندئذ أخشى أن تكون هذه أوَّل خطوة في عمليَّةٍ لو استمرَّت إلى النهاية لحوَّلتنا أشراراً إلى أقصى حدّ. أعني أن يبدأ المرء يرغب في أن يكون الأسود أكثر سواداً بقليل. وإذا سمحنا لتلك الرغبة بأن تستولي علينا، فقد نرغب لاحقاً في أن نرى الرماديَّ أسود، ثمَّ في أن نرى الأبيض ذاته أسود. وأخيراً سوف نصرُّ على أن نرى كلَّ شيء (بما في ذلك الله وأصدقاؤنا وأنفسنا) رديئاً، ولن نتمكَّن من الكفّ عن ذلك؛ ولسوف نعلق إلى الأبد في عالم من البغض المحض!

والآن، خطوة أُخرى إلى الأمام: هل تَعني محبَّتك لعدوِّك عدم معاقبته؟ لا، فإنَّ محبَّتي لنفسي لا تعني أنْ ليس عليَّ إخضاعُ نفسي للعقاب، بل أيضاً للموت. فإن كنتَ قد ارتكبت جريمة قتل، يكون التصرُّف المسيحيّ الصحيح الذي ينبغي لك أن تقوم به هو أن تسلِّم نفسك للشرطة حتَّى تُعدَم. وعليه، ففي رأيي أنَّ من حقِّ القاضي المسيحيِّ تماماً أن يحكم بالإعدام على مجرمٍ قاتل، أوِ الجنديّ

المسيحيّ أن يقتل عدوّاً باغياً. ولطالما كان هذا رأيي منذ أن صرتُ مسيحياً بالحقّ، وقبل الحرب بزمن طويل، وما زلتُ على هذا الرأي الآن بعدما دخلنا زمن السّلم. وليس بنافع أن نقتبس الوصيّة: «لا تقتل!» ففي اليونانيّة كلمتان: الأولى تعني «أمات» عموماً، والثانية «قتل». وحين اقتبس المسيح الوصيّة، استخدم الكلمة الثانية الخاصّة بالقتل عمداً أو إجراماً، وذلك في الأناجيل الثلاثة: متّى ومرقس ولوقا. وقد قيل لي إنّ التمييز عينه موجود في العبريّة. فليست كلّ إماتةٍ قتلاً، كما أنْ ليس كلّ وصالٍ جنسيّ زنى. ولّما جاء إلى يوحنّا المعمدان جنود يسألونه عمّا يفعلون، لم يُلمّح ولو من بعيد إلى وجوب تركهم الجيش، ولا فعل المسيح ذلك لّما قابل رقيباً أوّلَ رومانيّاً، أو قائد مئة كما كان يُسمّى آنذاك. وفكرة الفارس (المسيحيّ الذي يحمل السلاح لنُصرة قضيّة حقّ) واحدةٌ من الأفكار المسيحيّة الجليلة. فالحرب أمر فظيع، وفي وسعي أن أحترم داعية اللاعنف الصادق، مع أنّني أعتبره مخطئاً تماماً. ولكنْ ما لا أستطيع فهمه هو هذا الصنف من شبه اللاعنف الذي يوحي إلى الناس بهذه الفكرة: رغمَ اضطرارك إلى القتال، ينبغي لك القيام بذلك مقطّب الجبين وكما لو كان ذلك أمراً يدعو إلى الخجل. إنّه ذلك الشعور الذي يسلب كثيرين من الشبّان المسيحيّين الرائعين الذين يخدمون في القوّات المسلّحة شيئاً يحقّ لهم أن يحوزوه، شيئاً هو قرين الشجاعة الطبيعيّ، نوعاً من البهجة والولاء الصادق.

كثيراً ما فكّرتُ بيني وبين نفسي، عندما خدمتُ في الجيش إبّان الحرب العالميّة الأولى، ماذا يكون لو أنّنا أنا وأحد الشبّان الألمان قتلنا أحدنا الآخر في وقتٍ واحد، ووجدنا أنفسنا معاً بعد موتنا بلحظة واحدة. فلا يمكنني أن أتصوّر أنّ أيّاً منّا كان من شأنه أن يشعر بأيّ استياء، ولا حتّى بأيّة خيبة، بل أظنّ أنّه كان من شأننا أن نتضاحك في هذا الأمر.

ولنتصوّرْ أنّ شخصاً سيقول: «حسناً، إذا كان يُسمح للمرء بأن يدين أفعال عدوّه ويعاقبه ويقتله، فأيّ فرقٍ يبقى بين الأخلاق المسيحيّة والمفهوم المألوف؟» كلّ ما في الدنيا من فرق! تذكّر أنّنا نحن المسيحيّين نؤمن بأنّ الإنسان يحيا إلى الأبد. وعليه، فما يهمّ حقّاً هو تلك السّمات أو الثنايا الصغيرة في الجزء الداخليّ من النفس، تلك التي سوف تحوّلها، في نهاية المطاف، إلى كائن سماويّ أو جهنّمي.

فلنا أن نُميت إذا دعت الضرورة، ولكنْ يجب علينا ألاَّ نكره وألاَّ نستمتع بالكراهية. ولنا أن نعاقب إذا دعت الضرورة، ولكنْ يجب ألاَّ نستمتع بالمعاقبة. وبكلام آخر، فإنَّ شيئاً في داخلنا، وهو الشعور بالاستياء، الشعور الذي يريد استرجاع حقِّ المرء الشخصيّ، يجب أن يُقتل حقّاً. لستُ أعني أنَّ في وسع أيِّ امرىءٍ أن يقرِّر في هذه اللحظة أنَّه لن يشعر أبداً بذلك الشعور بعد. فليس هكذا تحدث الأُمور. إنَّما أعني أنَّه كلَّما ثار هذا الشعور برأسه، يوماً بعد يوم وسنةً بعد سنة وطوال عمرنا، ينبغي لنا أن نضربه على رأسه. إنَّ هذا عمل صعب، ولكنَّ المحاولة ليست مستحيلة. حتَّى إنَّه فيما نحن نُميت ونعاقب، ينبغي لنا أن نشعر تجاه العدوّ بمثل شعورنا تجاه أنفسنا، أن نتمنَّى لو لم يكن شريراً، أن نرجو له الشفاء، في هذا العالم أو في غيره، أن نتمنَّى له الخير بالحقيقة. ذلك هو المقصود بمحبَّتنا له: أن نتمنَّى له الخير، لا أن نُعجَب به، ولا أن نقول إنَّه لطيفٌ ظريفٌ في حين أنَّه ليس كذلك.

إنَّني أُقِرُّ بأنَّ هذا يعني أن أُحبَّ أُناساً ليس فيهم ما هو مُحبَّب. ولكنْ أيوجد في نفس المرء ما هو محبَّبٌ فيها؟ فأنت إنَّما تحبُّها لأنَّها نفسك فحسب. وفي قصد الله لنا أن نحبَّ كلَّ نفسٍ بالطريقة عينها وللسبب عينه؛ ولكنَّه قد أعطانا النتيجة الحاصلة في حالتنا الخاصَّة ليُبيِّن لنا كيف تفعل فعلها. فعلينا من ثَمَّ أن نمضيَ ونطبِّق هذه القاعدة على جميع النفوس الأُخرى. ولربَّما سهَّل الأمرَ أن نتذكَّر أنَّ الله يحبُّنا بهذه الطريقة: ليس لأيَّة مزايا حسنة جذَّابة نظنُّ أنَّها فينا، بل لأنَّنا تلك الكيانات المدعوَّة نفوساً. فليس فينا بالحقيقة شيءٌ يُحَبّ، ونحن الخلائقُ التي تجد في البغض متعةً فائقة بحيث يكون التخلِّي عنه مثل التخلِّي عن البيرة أو التدخين...

٨

الخطيئة الكبيرة

وصلتُ الآن إلى ذلك الجزء من الأخلاق المسيحيَّة الذي فيه تختلف اختلافاً حاداً عن جميع المفاهيم الأخلاقيَّة الأُخرى. فثمَّة رذيلة ليس من إنسان في الدُّنيا براءً منها، وكلّ إنسان في الدنيا يعافها عندما يراها في أحدٍ سواه، ولا يكاد قومٌ يتصوَّرون أنَّهم مُذنِبون بها، ما عدا المسيحيِّين حقّاً. وقد سمعتُ أشخاصاً يعترفون بأنَّهم سيِّئو الطباع، أو بأنَّهم لا يستطيعون تمالُكَ أنفسهم حيال النساء والشراب، أو بأنَّهم جبناء أيضاً. إنَّما لا أظنُّ أنِّي سمعت يوماً شخصاً غير مسيحيّ أبدى أدنى رحمةٍ تجاهها في الآخرين. وليس من نقيصةٍ أُخرى تجعل الإنسان أقلّ شعبيَّةً، ولا نقيصة أُخرى نحنُ أكثر سهواً عنها في أنفسنا. وكلَّما تفاقمت لدينا نحن، كرهناها لدى الآخرين.

هذه الرذيلة التي أُشير إليها هي الكبرياء أو الغرور. أمَّا الفضيلة المعاكسة لها، في الأخلاق المسيحيَّة، فتدُعى التواضع. ولعلَّك تذكر أنَّني في معرض حديثي عن الأخلاق المتعلّقة بالجنس نبَّهتك إلى أنَّ النقطة المركزيَّة في الأخلاق المسيحيَّة ليس الجنس. وها نحن الآن قد وصلنا إلى المركز. ففي رأي المعلِّمين المسيحيِّين أنَّ الرذيلة الأساسيَّة، أو الشرَّ الأقصى، هي الكبرياء. وما عدمُ العفَّةِ والغضبُ والجشع والسُّكر، وما شابهها، سوى قرصات براغيث مقارنةً بها: فبالكبرياء صار إبليسُ إبليسَ، والكبرياء تُفضي إلى كلِّ رذيلة أخرى، وهي التوجُّه الذهنيُّ المُعادي لله.

أيبدو هذا لك مُبالَغاً فيه؟ إن كان هكذا، فأعِد النظر في الأمر. لقد ذكرتُ قبل قليل أنَّه كلَّما تفاقمت الكبرياء لدى المرء كره الكبرياء لدى الآخرين. فبالحقيقة، إذا أردتَ أن تعرف مدى كبريائك فأسهَل طريقة أن تسأل نفسك: «كم لا يروقني

الأمر حين يهملني الآخرون بازدراء، أو يرفضون إعارتي أيَّ انتباه، أو يُملون عليَّ آراءهم، أو يتعالَون عليَّ، أو يتبجَّحون ويتباهَون؟» بيت القصيد أنَّ كبرياء كلِّ إنسان تُنافِس كبرياء كلِّ إنسانٍ سواه. فلأنِّي أردتُ أن أكون محطَّ الأنظار في الحفلة انزعجتُ كثيراً من كون شخصٍ آخر محطَّ الأنظار. واثنان من أهل مهنةٍ واحدة لا يتَّفقان أبداً. فما ينبغي أن يتوضَّح لديك هو أنَّ الكبرياء تنافُسيَّة في جوهرها، أي بطبيعتها، في حين أنَّ باقي الرذائل تنافُسيَّة عَرَضاً فقط، إن صحَّ التعبير. فالكبرياء لا تنال لذَّةً من حصولها على شيء؛ بل فقط من حصول المرء على مقدارٍ منها يفوق ما لدى الإنسان الآخر. ونحن نقول إنَّ الناس متكبِّرون لكونهم أغنياء، أو أذكياء، أو وُسَماء، غير أنَّهم ليسوا كذلك. إنَّهم متكبِّرون لكونهم أغنى من الآخرين أو أذكى أو أجمل منظراً. فلو صار الجميع أغنياء أو أذكياء أو وُسَماء، لما كان من داعٍ إلى الكبرياء. ذلك أنَّ المقارنة هي ما يجعلك متكبِّراً، إذ تُشعِرك بلذَّةِ كونك فوق الآخرين. وما إن يزولُ عنصر التنافُس، حتَّى تزول الكبرياء. لذلك أقول إنَّ الكبرياء تنافُسيَّة في جوهرها، على خلاف باقي الرذائل. فإنَّ الحافز الجنسيَّ قد يُفضي برجُلين إلى التنافس إذا كانا يريدان المرأة عينها. ولكنَّ ذلك ناشئٌ عن العَرَض فحسب، إذ كان يمكن كذلك تماماً أن يريدا امرأتين مختلفتين. ولكنَّ رجلاً متكبِّراً من شأنه أن ينتزع منك فتاتك، لا لأنَّه يريدها، بل فقط كي يبرهن لنفسه انَّه رجلٌ أفضل منك. وقد يدفع الجشعُ الناس إلى التنافس إذا شحَّت الموارد؛ غير أنَّ الإنسان المتكبر، حتَّى لو حصل على أكثَر ممَّا قد يحتاج إليه، سيحاول أن يحصل على المزيد بعدُ فقط كي يؤكِّد نفوذه. وتكاد جميع الشرور المنتشرة في العالم والتي يوجزها الناس بكونها من قبيل الجشع أو الأنانيَّة أن تكون بالأحرى نتيجةً للكبرياء.

ولننظُر إلى هذا الأمر من زاوية المال. فالجشع سيدفع الإنسان حتماً لأنْ يطلب المال،لأجل بيتٍ أفضل، وعطلات أمتع، ومأكلٍ ومشربٍ أفخر. ولكنَّ ذلك يبقى ضمن حدود معيَّنة. فماذا يجعل رجُلاً مدخولُه السنويُّ عشرة آلاف جنيه توّاقاً لتحصيل عشرين ألف جنيه في السنة؟ طبعاً، ليس الدافع هو الجشع لمزيدٍ من المسرَّات. فالعشرة آلاف جنيه توفِّر للمرء كلَّ تنعُّم يمكن أن يتمتَّع به فعلاً. إنَّما الكبرياء هي الدافع: الرغبة في أن يكون المرء أغنى من شخصٍ آخر غنيّ، وأيضاً

(أكثر من ذلك بعدُ) أن يكون ذا نفوذ. وذلك لأنَّ النفوذ أو السُّلطان هو ما تستمتع به الكبرياء حقّاً: فليس ما يُشعِر الإنسان بأنّه أعلى مقاماً من الآخرين بكثير مثل قدرته على تحريكهم كما لو كانوا جنوداً دُمى. وماذا يجعل الحسناء تبثُّ البؤس أينما ذهبت، حاشدةً حولها المعجبين؟ طبعاً ليس الدافع غريزتها الجنسيَّة، إذ إنَّ امرأةً من هذا النوع غالباً ما تكون باردة جنسيّاً. إنّما هو الكبرياء! وماذا يجعل قائداً سياسيّاً، أو شعباً بكامله، يمضي قُدماً مُطالِباً بالمزيد؟ هي الكبرياء أيضاً! فإنَّ الكبرياء تنافُسيَّة بطبيعتها في ذاتِها، ولذلك تمضي قدماً بغير حدود بادية. وإذا كنتُ إنساناً متكبِّراً، فما دام في العالم إنسانٌ واحد أقوى منّي، أو أغنى أو أذكى، يكون ذلك مُنافسي وخصمي.

إنَّ المسيحيِّين على حقّ: فهي الكبرياءُ ما زالت علَّةَ الشقاء الرئيسة في كلِّ أُمَّة وكلِّ عائلة منذ بدء العالم. فالرذائل الأُخرى قد تُقرِّب الناسَ بعضهم من بعض أحياناً: إذ ربَّما وجدت صداقةً طيِّبة وتنكيتاً ومودَّةً مؤنِسَين بين السكارى أو غير الأعِفّاء. غير أنَّ الكبرياء دائماً تعني العداوة، بل هي العداوة، وليس فقطِ العداوة بين الإنسان والإنسان، بل العداوة لله أيضاً.

وتجِدُ في الله ما هو متفوِّق عليك تفوُّقاً لا حدود له من كلِّ ناحية. وما لم تعرف الله بهذه الصفة (ومن ثَمّ تعرف نفسك باعتبارك لاشيئاً مقارنةً به) فلن تعرفه أبداً. فما دمتَ متكبِّراً، فلا يمكنك أن تعرف الله. ذلك أنَّ المتكبِّر ينظر دائماً باستعلاء إلى الأشياء والأشخاص. وما دمتَ تنظر دائماً إلى تحت، فلا يمكنك أن ترى ما هو فوقك.

وهذا يُثير سؤالاً رهيباً: كيف يُعقَل أنَّ أناساً تنهشهم الكبرياء على نحو واضح يقولون إنَّهم يؤمنون بالله ويَبدون في نظر أنفسهم متديِّنين جدّاً؟ أخشى أنَّ يكون هؤلاء متعبِّدين لإلهٍ من نسج خيالهم. فهم يعترفون نظريّاً بأنَّهم لاشيءٌ في حضرة هذا الإلَه الوهميّ، ولكنَّهم في الواقع يتصوَّرون كلّ حين كيف هو راضٍ عليهم ومعتبِر إيّاهم أفضل من الناس العاديِّين. ذلك أنّهم يؤدُّون له قيراطاً من التواضع يستثمرونه في رطلٍ من الكبرياء تجاه إخوانهم البشر. وأظنُّ أنَّ مثل هؤلاء القوم كانوا في فكر المسيح لَمَّا قال إنَّ بعضاً سيُبشِّرون به ويطردون شياطين باسمه إنَّما كي يسمعوا في آخر الدهر أنَّه لم يعرفهم قطّ. وأيُّ واحدٍ منّا قد يكون في أيِّ

وقت عالقاً في شَرَك الموت هذا. إنمّا من الخير أنّ لدينا اختباراً: كلّما تبيّن لنا أنّ حياتنا الدينيّة تجعلنا نشعر بأنّنا صالحون (وفي المقام الأوّل أنّنا أصلح من شخص آخر سوانا)، أعتقد أنّه يمكننا أن نتيقّن بأنّنا قد خُدعنا لا من قِبَل الله طبعاً، بل من قِبَل إبليس. فالاختبار الحقيقيّ لكوننا في حضرة الله هو أنّك إمّا أن تنسى أمر نفسك كليّاً وإمّا أن ترى نفسك هباءةً صغيرةً قذرة. والأفضل أن تنسى أمر نفسك كليّاً.

إنّه لأمرٌ رهيب أنّ أسوأ رذيلة على الإطلاق قد تنسلّ إلى قلب حياتنا الدينيّة بالذات. ولكنّ في وسعك أن تدرك السبب. ذلك أنّ الرذائل الأُخرى، الأقلّ سوءاً، تنتج من عمل الشيطان للتأثير فينا بواسطة طبيعتنا الحيوانيّة. ولكنّ هذه الرذيلة لا تنتج من طبيعتنا الحيوانيّة أبداً. إنّها تأتينا من جهنّم مباشرةً. فهي روحيّة محض، ولذلك هي أدهى وأفتك بكثير. وللسبب عينه قد تُستخدَم الكبرياء أحياناً لدحر رذائلَ أبسط. فالمعلّمون، في الواقع، غالباً ما يركنون إلى كبرياء الولد، أو كما يسمّونها: احترامه لذاته، كي يحملوه على التصرّف بحُسن سلوك. وما أكثر الرجال الذين تغلّبوا على الجبن أو الشهوة أو حدّة الطّبع بتعلّمهم أن يعتبروها مُهينةً لكرامتهم، أي بالكبرياء. ثُمّ إنّ إبليس يضحك. فهو مبتهجٌ تماماً بأن يراك تصير عفيفاً وشجاعاً وضابطاً لنفسك، على أن يُنصَّب في داخلك كلّ حين دكتاتوريّة الكبرياء، تماماً كما يسرّه أن يراك قد شُفيتَ من مرض بسيط إذا سُمح له، مقابل ذلك، أن يُصيبك بالسرطان. ذلك أنّ الكبرياء سرطانٌ روحيّ؛ إذ تنهش حتّى إمكانيّة المحبّة أو القناعة أو الفِطرة السليمة أيضاً.

وقبل اختتام هذا الموضوع، ينبغي لي أن أنبّه إلى وجوب الاحتراس من بضع إساءات فهم محتملة:

١. إنّ سرور المرء بامتداحه ليس كبرياء. فالولد الذي تُربَّت كتفه لإبلائه حسناً في درسه، والمرأة التي يتمدّح حبيبُها بجمالها، والنفس المُخلَّصة التي يقول لها المسيح «نعمّا»، جميعهم يُسَرّون، وينبغي لهم ذلك. إذ إنّ المسرّة هنا لا تكمن في هويّتك بل في حقيقة كونك جلبت السرور لشخص أردتَ أن تسرّه (وإرادتك لهذا في محلّها). إنّما تبدأ المشكلة حين تنتقل من التفكير: «لقد جلبتُ له السرور وكلّ شيءٍ بخير»، إلى التفكير: «يا لي من شخصٍ رائع إذ فعلتُ هذا! فكلّما زادت

مسرَّتك بنفسك وقلَّ سرورك بالمدح، تصير أسوأ حالاً. وعندما تبتهج كليّاً بنفسك ولا تكترث للامتداح أبداً، تكون قد بلغتَ الدَّرك الأسفل. لذلك كان الغرور، مع أنَّه نوع الكبرياء الذي يظهر أكثر الكلّ على السَّطح، هو بالحقيقة أقلَّ أنواعها سوءاً وأكثرها قابليّةً للاغتفار. فالشخص المغرور يطلب الامتداح والإطراء والإعجاب طلباً يفوق الحدّ، ونجدهُ كلَّ حين يحتال للحصول عليها. وهذه غلطة، لكنَّها غلطة صبيانيَّة، بل أيضاً متواضعة بطريقةٍ غريبة. فهي تبيِّن أنَّك غير راضٍ كلّياً بعدُ عن إعجابك الشخصيّ. فأنت تُقدِّر الآخرين تقديراً كافياً بحيث تريد منهم أن يتطلَّعوا إليك. وهكذا ما تزال في الواقع بشريّاً. إنَّما الكبرياء الشيطانيَّة السوداء حقّاً تحصل حين تنظر باستعلاء إلى الآخرين بحيث لا يهمُّك ما يُفكِّرونه فيك. طبعاً، صحيحٌ جدّاً، وغالباً ما يكون من واجبنا، ألاَّ نهتمَّ بما يفكِّره الناس فينا، إذا فعلنا ذلك بدافع من السبب الصحيح، أي لأنَّنا نهتمُّ أكثر على نحو لا نظير له بما يراه الله فينا. غير أنَّ الإنسان المتكبِّر يحدوه سببٌ مختلف على ألاَّ يهتمّ. فهو يقول: «لماذا يهمُّني استحسان أولئك الرعاع كما لو كان رأيهم يستحقُّ أيَّ التفات؟ حتَّى لو كانت آراؤهم ذات قيمة، أفأنا ذلك الرجُل الذي يتورَّد خدَّاه سروراً لدى إطراءةٍ توجَّه إليه، كما لو كنتُ فتاة خَجِلة ترقص رقصتها الأولى؟ كلاَّ، فأنا شخصٌ راشد مكتمل! فكلُّ ما فعلتُه إنَّما فعلتُه لإرضاء مُثلي العليا الخاصَّة (أو ضميري الفنّي، أو تقاليد أُسرتي)، أو بكلمة وجيزة: لأنّي فتىً كريمٌ ماجد! فإنْ راق الرعاعَ ذلك، كان به. إنَّهم لاشيءٌ في نظري.» بهذه الطريقة قد تقوم الكبرياء الخالصة الحقيقيَّة بدورِ كابح للغرور، لأنَّ إبليس، كما قلتُ منذ هُنيهة، يحبُّ أن «يشفي» علَّةً يسيرة بإعطائكَ علَّةً خطيرة. فيجب علينا أن نحاول ألاَّ نكون مغرورين، إنَّما يجب ألاَّ نستدعيَ كبرياءنا البتَّة كي تشفينَا من غرورنا.

٢. ينبغي التميز بين الفخر والكبرياء. فقد نقول إنَّ المرء فخورٌ بابنه أو أبيه، أو مدرسته أو فوجه. وربَّما نسأل: هلِ الفخر في هذا النطاق خطيَّة؟ أعتقد أنَّ الأمر يتعلَّق تحديداً بما نعنيه بالفخر. فغالباً ما يُستعمل الفخر هنا بمعنى الإعجاب القلبيِّ الشديد. ومثل هذا الإعجاب بالطبع أبعد ما يكون عن كونه خطيَّة. إلاَّ أنَّه قد يعني أنَّ ذلك الشخص يصطنع الكِبَر على أساس أبيه الممتاز، أو لأنَّه ينتمي إلى فوجٍ

شهير. فواضحٌ أنَّ هذا عيب. ومع ذلك، فمن شأنه أن يكون أفضل من كون المرء فخوراً بنفسه فحسب. فأنْ يَروقك ويُعجِبك أيُّ شيء خارج نفسك هو أن تخطوَ خطوةً واحدة بعيداً عن الخراب الروحيّ؛ مع أنّنا لن نكون بخير ما دام يروقنا ويعجبنا أيُّ شيءٍ أكثر ممّا نحبُّ الله ونُعجَب به.

٣. يجب ألاّ نحسب الكبرياء شيئاً يحظره الله لأنّه يستاء منه، أو أنَّ التواضع شيءٌ يطلبه كواجبٍ يؤدّى لجلالته، وكأنَّ الله نفسه متكبّر. فهو غير قَلِقٍ البتّة على كرامته. إنّما بيتُ القصيد أنّه يريد لك أن تعرفه، يُريد أن يُعطيَك ذاته. وأنت وهو كائنان من نوعَين مميَّزين بحيث إنَّك إذا دخلتَ حقّاً في أيِّ تماسٍّ معه فلا بدَّ أن تكون بالحقيقة متواضعاً، متواضعاً على نحوٍ مُبهِج، شاعراً بالراحة اللامحدودة الناجمة عن التخلُّص نهائيّاً من كلِّ ذلك الهُراء التافه عن كرامتك بعدما أقضَّ مضجعك وسبَّب لك الشقاوة طوال حياتك. فهو تعالى يسعى لأنْ يصيِّرك متواضعاً كي يجعل هذه اللحظة ميسورة؛ يسعى لأنْ يجرِّدنا من كثيرٍ من الملابس التنكُّريَّة القبيحة التافهة التي لبسناها كلُّنا ورُحنا نجول فيها متضايقين ونحن نبدو على حقيقتنا... حمقى صغاراً. وأتمنّى لو أنّني أنا شخصيّاً تقدَّمتُ أكثر في مجال التواضع. فلو كان ذلك قد حصل لي، لربّما أمكنني أن أكشف لك المزيد عن الراحة والفَرَج الناجمَين عن خلع تلك الملابس التنكُّريّة، أعني التخلُّص من الذات الزائفة بكلِّ ادّعاءاتها: «انظروا إليَّ!»، «ألستُ أنا فتىً رائعاً؟» وكلِّ استعراضها وموقفها وتوجُّهها. ألا إنَّ مجرَّد الاقتراب من ذلك، ولو قليلاً وإلى لحظة، أشبهُ بشربه ماءٍ بارد لإنسانٍ في صحراء!

٤. لا تتصوَّرْ أنّه إذا قابلتَ إنساناً متواضعاً حقّاً فسيكون ما يدعوه معظم الناس «متواضعاً» هذه الأيّام: فلن يكون شخصاً من ذلك النَّوع الزَّلِق المُتمسكِن الذي لا ينفكُّ بالطبع يقول لك إنّه نَكِرة. وربَّما كان كلُّ ما فكَّرتَ فيه من جهته أنّه سيبدو شخصاً فطيناً مُستبشِراً يهتمُّ فعلاً بما تقوله أنتَ له. وإن كرهتَه فعلاً، فسيكون ذلك لأنّك تشعر بشيءٍ من الحسد تجاه امرئٍ يبدو أنّه يتمتّع بالحياة بمثل تلك السهولة. وهو لن يكون مفكِّراً في التواضع، بل إنّه لن يكون مفكراً في نفسه البتّة.

وإذا ودَّ أحد أن يكتسب التواضع، فأظنُّ أنَّ في وسعي إطْلاعَه على الخطوة الأولى. فأوَّل خطوة هي أن يدرك أنّه متكبّر. وهي خطوة كبيرة نسبيّاً أيضاً. فعلى

الأقلّ، لا شيء على الإطلاق يمكن القيام به قبلها. وإن حسبتَ أنَّك غير مغرور، فذلك يعني أنَّك بالحقيقة مغرور جدّاً.

٩
المحبّة

قلت في فصلٍ سابق إنَّ هنالك أربع فضائل «أساسيَّة» وثلاث فضائل «لاهوتيَّة». فالفضائل اللّاهوتيَّة هي الإيمان والرجاء والمحبَّة. وسنتطرَّق إلى الإيمان في آخِرِ فصلَين من هذا الباب. أمَّا المحبَّة فقد تناولتُها جزئيّاً في الفصل السابع، إلاَّ أنّني ركَّزت على جانب المحبَّة ذاك الذي يُدعى الغفران. وأُريد الآن أن أضيف القليل بعد.

أوّلاً، تعني المحبَّة في الأصل معنىً واسعاً شاملاً. فليس الإحسان سوى جانب واحد من جوانب المحبَّة. والمحبَّة، في المفهوم المسيحيّ، لا تعني عاطفةً فحسب. فهي حالةٌ إراديَّة، لا شعوريَّة، تلك الحالة الإراديَّة التي لنا بالطبيعة تجاه أنفسنا، وينبغي أن نتعلَّم حيازتها تجاه الآخرين.

وقد أشرتُ في الفصل المتعلّق بالغفران إلى أنَّ محبَّتنا لأنفسنا لا تعني أنّنا مُعَجبون بأنفسنا، بل تعني أنّنا نرغب في خيرنا الخاصّ. فبالطريقة نفسها، تختلف المحبَّة المسيحيَّة لقريبنا اختلافاً جوهريّاً عن عاطفة الإعجاب أو المودَّة. ذلك أنّنا «نحبُّ» أو «نستلطف» بعض الناس دون سواهم. فمن المهمّ أن تدرك أنَّ هذا «الاستلطاف» الطبيعيّ ليس خطيَّةً ولا فضيلة، كما أنَّ ما تحبُّ وما تعاف في الأطعمة ليس خطيَّة ولا فضيلة. فهذا الأمر حقيقة واقعة. ولكنَّ ما نفعله بشأنه هو بالطبع إمَّا خاطئ وإمَّا مُنافٍ للفضيلة.

إنَّ حبَّنا الطبيعيّ للناس يُسهِّل علينا أن نُبديَ لهم المحبَّة فعلاً. وعليه، فمن واجبنا عادةً أن نُعزِّز عواطفنا بحيث «نحبُّ» الناس إلى أقصى حدٍّ ممكن (كما يكون من واجبنا في الغالب أن نعزِّز حبَّنا للتمرُّن أو الطعام الصحّيّ)، ليس لأنَّ هذا

الحبَّ هو بعينه فضيلة المحبَّة، بل لأنَّه مِعوانٌ لها. ومن ناحية أُخرى، من الضروريّ أيضاً أن نحترس جيِّداً لئلاَّ يجعلنا حبُّنا لشخصٍ ما عديمي المحبَّة، أو حتَّى غير مُنصِفين، لشخصٍ آخر. حتَّى إنَّ حبَّنا في بعض الحالات يتضارب مع محبَّتنا للشخص الذي يروقنا. فالأُمُّ ذات الشغف الزائد مثلاً قد تُغريها عاطفتُها الطبيعيَّة بأن «تُفسِد» ولدها تدليلاً، أي أن تُلبِّيَ حوافزها العاطفيَّة الخاصَّة على حساب سعادة الولد الحقيقيَّة في ما بعد.

ولكنْ على الرغم من أنَّ ميولنا الطبيعيَّة ينبغي أن تُعزَّز، فسيكون من الخطإ تماماً أن نظنَّ بأنَّ السبيل إلى حيازة المحبَّة وإبدائها هو أن نقعد محاوِلين فبركة مشاعرَ عاطفيَّة. وبعض الناس «باردون» بمزاجهم، وقد يكون ذلك نكداً لهم، غير أنَّه ليس خطيَّة كما أنَّ سوء الهضم ليس خطيَّة، وهو لا يُبعِدهم عن فرصة تعلُّم المحبَّة، ولا يُعفيهم من واجب حيازتها وإبدائها. فالقاعدة لنا جميعاً بسيطةٌ للغاية: لا تهدرِ الوقت في القلق والتساؤل عن حقيقة كونك «تحبُّ» قريبك، بل تصرَّفْ كما لو كنتَ تحبُّه فعلاً. وحالما نفعل هذا، نكتشف واحداً من الأسرار العظيمة: عندما تتصرَّف كما لو أنَّك تحبُّ شخصاً ما، فسرعان ما تصير تحبُّه فعلاً. وإذا جرحتَ شخصاً تكرهه، فستُلفي نفسك كارهاً له أكثر. وإن أدَّيتَ له معروفاً، فستُلفي نفسك كارهاً له أقلّ. إنَّما هنالك بالحقيقة استثناء واحد: إذا أدَّيتَ له معروفاً، لا إرضاءً لله وإطاعةً لقانون المحبَّة، بل كي تُريَه أيَّ فتىً سميح طيِّب أنت، وكي تُودِعه منَّةً، ثمَّ جلستَ تنتظر منه أن يُبدي «عرفانه بالجميل»، فمن المرجَّح أن يخيب أملك. (ليس الناس جهّالاً، فهم يلاحظون بسرعةٍ فائقة أيَّ شيء مثل التباهي أو التبجُّح أو التفضُّل). ولكنْ كلَّما صنعنا خيراً لنفسٍ أُخرى، فقط لأنَّها نفسٌ خلقها الله (مثلنا)، راغبين في هناءتها كرغبتنا في هناءتنا، نكون قد تعلَّمنا أن نحبَّها أكثر بقليل، أو على الأقلّ أن نكرهها أقلّ.

وعليه، فمع أنَّ المحبَّة المسيحيَّة المعطاء تبدو أمراً بارداً جدّاً في نظر الأشخاص الملأى رؤوسُهم بالعاطفيَّة، ومع أنَّها مختلفة تماماً عن العاطفة المجرَّدة، فإنَّها تُفضي إلى الحنان والحنوّ. وليس الفرق بين المسيحيِّ المؤمن والإنسان الدنيويِّ أنَّ الدنيويَّ لديه فقط مشاعر أو «ميول» أمَّا المسيحيُّ فلديه «محبَّة» فقط. فالدنيويُّ يعامل بعض الناس بلطف لأنَّه «يحبُّهم»؛ أمَّا المسيحيُّ، إذ يحاول معاملة كلِّ إنسان بلطف،

فيُلفي نفسه مُحِبّاً أعداداً متزايدة من الناس وهو ماضٍ في ذلك، بمن فيهم أشخاصٌ لم يكن يتصوَّر في البداية أنّه قد يحبُّهم.

هذا القانون الروحيُّ عينه يفعل فعله على نحو رهيب في الاتّجاه المعاكس. فربّما عمد الظالِمون أوّلاً إلى إساءة معاملة المضطهَدين لأنّهم يكرهونهم؛ وبعد ذلك ازدادوا كرهاً لهم لأنّهم أساؤوا معاملتهم. فكلّما ازددتَ قسوةً، تضاعف كرهك للغير؛ وكلّما زاد كرهك، تضاعفت قسوتك... وهكذا دواليك في دُوّامة رهيبة دائماً أبداً.

وبالحقيقة انَّ الخير والشرَّ كليهما يتضاعفان بالفائدة المركَّبة. لذلك تُضفى على القرارات اليسيرة الّتي نقرِّرها أنا وأنت كلَّ يوم أهميَّةٌ غير محدودة للغاية. فأصغر عملٍ صالح اليوم هو استيلاءٌ على موقع استراتيجيّ قد يكون في وسعك، بعد بضعة أشهر، أن تنطلق منه إلى انتصارات ما حلمتَ بها قطّ. كما أنَّ استسلاماً بسيطاً في الظاهر للشهوة أو الغضب اليوم هو خسارةٌ لتلالٍ أو خطٍّ قطار أو رأس جسر يمكن للعدوّ أن يشنَّ منه هجوماً كان من شأنه أن يكون مستحيلاً لولا ذلك.

وبديهيٌّ أنَّ المحبَّة بالمفهوم المسيحيِّ لا تقتصر على أداء دورها بين الكائنات البشريَّة، بل تشمل أيضاً محبَّة الله للإنسان ومحبَّة الإنسان لله. ففي ما يتعلَّق بهذه المحبَّة الأخيرة، غالباً ما يرتبك الناس ويقلقون. إذ يُقال لهم إنَّه يجب عليهم أن يحبُّوا الله. وهم لا يقدرون أن يجدوا في ذواتهم شعوراً من هذا النوع. فماذا يفعلون؟ إنَّ الجواب هو بعينه ما سبق أن ذكرناه: تصرَّف كما لو كنتَ حائزاً مثل هذا الشعور. لا تحاول أن تُفبرِكَ المشاعر وأنت قاعد. بلِ اسأل نفسك: «لو كنت متيقّناً بأنّي أُحبُّ الله، فماذا كنتُ أفعل؟» وعندما تعرف الجواب، فامضِ وافعل ذلك.

وعلى وجه العموم، فإنَّ محبَّة الله لنا موضوعُ التفكيرُ فيه أسلمُ بكثيرٍ من التفكير في موضوع محبَّتنا له. فلا يستطيع أيُّ إنسان أن يحوز دائماً مِشاعر وَرِعة. حتَّى لو كنَّا نستطيع ذلك، فليستِ المشاعر هي ما يَعني ويهم الله في الدرجة الأولى. ذلك أنَّ المحبَّة المسيحيَّة، سواءٌ تجاه الله أو تجاه الإنسان، هي شأنٌ من شؤون الإرادة. فإن كنَّا نحاول أن نعمل بإرادة الله، نكون طائعين للوصيَّة القائلة:

«تحبُّ الربَّ إلهك.» ولسوف يُعطينا هو مشاعر المحبَّة إذا شاء. فنحن لا نقدر أن نُوجِدها من تلقاء أنفسنا، ويجب علينا ألاّ نُطالِب بها كحقٍّ من حقوقنا. غير أنَّ الأمر العظيم الذي ينبغي أن نتذكَّره هو أنَّ محبَّته لنا ثابتة لا تتغيَّر، رغم كون مشاعرنا تأتي وتمضي: فلا تُوهِنُها خطايانا، ولا عدم مبالاتنا، ولذلك فإنَّها لا تكلُّ ولا تملُّ في عزمها على شفائنا من تلك الخطايا، مهما كان الثمن بالنسبة إلينا، ومهما كان الثمن بالنسبة إليه تعالى.

١٠

الرجاء

الرجاء واحدةٌ من الفضائل اللاهوتيَّة. وهذا يعني أن التطلُّع الدائم إلى العالم الأبديّ ليس شكلاً من أشكال التهرُّبيَّة أو التفكير الذي تُمليه الرغبات (على حدّ ما يتصوَّره بعضُ المعاصرين)، بل هو أمرٌ من الأمور التي يُقصَد للمسيحيّ المؤمن أن يقوم بها. ولا يعني هذا أنَّ علينا أن نترك العالم الحاليَّ على ما هو عليه. فإذا قرأتَ التاريخ يتبيَّن لك أنَّ المسيحيِّين الذين أفادوا العالم الحاليَّ أكثر من سواهم بما فعلوه هم فعلاً أولئك الذين كان معظم تفكيرهم في العالم الآتي. ذلك أنَّ الرسل أنفسهم، إذ أطلقوا شرارة هداية الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، والرجال العظماء الذين بنوا حضارة العصور الوسطى، والإنجيليون الإنكليز الذين أبطلوا تجارة العبيد، جميعهم خلَّفوا سِمَتهم على الأرض، تماماً لأنَّ عقولهم كانت تشغلها السماء. فلأنَّ المسيحيِّين كفُّوا إلى حدّ بعيد عن التفكير في العالَم الآخر، صاروا عديمي الفعَّاليَّة للغاية في هذا العالم. فصوِّب سهامك نحو السماء تُصِب الارض أيضاً؛ وصوِّبها نحو الأرض فلا تُصيبَ كلتيهما. قاعدةٌ تبدو غريبة، ولكنَّ شيئاً مثلها يمكن أن نراه ساريَ المفعول في شؤونٍ أُخرى. فالصحَّة مثلاً بركة عظيمة، ولكنَّك حين تجعل الصحَّة واحداً من أهدافك الرئيسة المباشرة تبدأُ تصير مهووساً ومتوهِّماً بأنَّ بكِ علَّةً ما. فأنت لن تكسب الصحَّةَ على الأرجح إلاَّ إذا طلبتَ بالأحرى أُموراً أُخرى، كالطعام والرياضة والعمل والترفيه والهواء الطَّلق. وعلى غرار هذا، فلن نُنقِذ المدنيَّة أبداً ما دامتِ المدنيَّة هدفَنا الرئيسيّ. فيجب علينا أن نتعلَّم طلب شيءٍ آخر طلباً أشدَّ.

يستصعب معظمنا كثيراً أن يطلبوا «السماء» أساساً، إلاَّ بمقدار ما تعني

«السماء» اجتماع شملنا بأحبّائنا الذين رقدوا. ومن أسباب هذه الصعوبة أنّنا لم نُدرَّب التدريبَ الصحيح: فتربيتنا بكاملها تميل إلى تثبيت أذهاننا على هذا العالم. ومن أسبابها ايضاً أنّه حين ينوجد فينا طلبُ السماء حقاً لا ندركه فعلاً. وأغلب الناس، إذا تعلَّموا النظر إلى داخل قلوبهم، فمن شأنهم أن يعرفوا أنّهم يطلبون بالفعل طلباً شديداً، شيئاً لا يمكن الحصول عليه من هذا العالم. وفي هذا العالم أشياء من كلّ صنف تعِد بإعطائك ذلكَ الشيءَ، غير أنّها لا تفي بوعدها أبداً. فالأشواق التي تنبعث فينا حين نقع في الحبّ أوّل مرّة، أو حين نفكر في بلدٍ غريب أوّل مرّة، أو حين نتناول أوّل مرّة موضوعاً نتحمّس له، لهي أشواقٌ لا يمكن أن يُشبِعها أيُّ زواج أو سَفَر أو تعلُّم. لستُ الآن في معرض الكلام عمّا يُدعى في العادة زيجاتٍ ناجحة أو عطلاتٍ مُمتعة أو تحصيلاً علميّاً مفيداً، بل أتكلّم عن أفضل ما يمكن في هذه المساعي كلّها. فقد كان في اللحظات الأولى من تلك الأشواق شيءٌ تطلّعنا إليه وما لبث أن تلاشى في الواقع تماماً. وأعتقد أنّ الجميع يعلمون ما أعنيه. فربّما كانت الزوجة صالحة، والفنادق والمناظر رائعة، والكيمياء تخصُّصاً علميّاً مفيداً على الصعيد المهنيّ؛ ولكنّ شيئاً ما يكون قد فاتنا فعلاً. والآن، ثمّة طريقتان خاطئتان للتعامُل مع هذا الواقع، وطريقةٌ صحيحة واحدة:

١. طريقة الساذج المغفَّل: إذ يُلقي اللَّوم على الأشياء ذاتها. فهو يقضي حياته كلّها حاسباً أنّه فقط لو جرّب امرأةً أُخرى، أو قضى عطلةً أغلى نفقةً، أو مهما كان سوى ذلك، لأُتيح له تلك المرّة فعلاً أن يظفر بذلك الشيء الغامض الذي نطلبه كلّنا. ومعظم الأغنياء الذين يعانون الضجر وعدم الرضى في هذا العالم هم من هذا النوع. فهم يقضون حياتهم بكاملها متنقّلين من امرأةٍ إلى أخرى (بمُحاكمات الطلاق)، ومن قارّةٍ إلى أُخرى، ومن هوايةٍ إلى هواية، متصوِّرين دائماً أنّ الأحدَث في ذلك كلّه هو الضالّة المنشودة أخيراً، إلاّ أنّهم دائماً يخيبون.

٢. طريقة «العاقل» الخائب: فهذا سرعان ما يُقرِّر أن الأمر كلّه كان مجرَّد سراب، ويقول: «طبعاً، ذلك الشعور الحماسيُّ يُداخِل المرء وهو شابّ. ولكنْ عندما تبلغ مثل سنّي، تتخلّى عن مُطاردة الوهم.» ومن ثَمّ يقرُّ قراره ويتعلَّم ألاّ يتوقَّع الكثير، ويقمع من نفسه ذلك الجزء الذي كان من عادته أن «يطلب المستحيل» على حدّ قوله. وهذه بالطبع طريقةٌ أفضل من الأولى بكثير، وهي تجعل الإنسان أسعد بكثير

وأقلّ أذىً للمجتمع. ولئن مالت إلى جعل الإنسان متزمّتاً (إذ يكون ميّالاً بالحريّ إلى الاستعلاء على أولئك الذين يدعوهم «مراهقين»)، فهو عموماً يشقّ طريقه في الحياة بكثيرٍ من الراحة. ومن شأن هذه الطريقة أن تكون أفضل سبيل نسلكه لو كان الإنسانُ لا يحيا إلى الأبد. ولكنْ ماذا لو أنّ السعادة القصوى كانت بالحقيقة هُناك في انتظارنا؟ ماذا لو كان في وسع المرء حقّاً أن يبلغ الضالّة المنشودة؟ في هذه الحالة يكون مدعاةً للرثاء أن يتبيَّن لنا بعد فوات الأوان (بعد الموت بلحظةٍ واحدة) أنّنا «بفطرتنا السليمة» المفترَضة قد خنقنا في نفوسنا إمكانيَّة التمتُّع بها.

٣. الطريقة المسيحيَّة: حيث يقول المسيحيُّ المؤمن: «ليس الخلائق بمولودين ولديهم رغباتٌ معيَّنة إلاّ لأنّ إشباع هذه الرغبات ممكن فعلاً. فإذا شعر الطفل بالجوع، فهناك الطعام. وإذا رغب فرخ البطّ في السباحة، فهناك الماء. وإذا تحرَّكت رغبة الرجل الجنسيَّة، فهناك الجنس. وحين أجد في نفسي شوقاً لا يمكن أن يُلبِّيَه أيُّ اختبار في هذا العالم، يكون التفسير الأكثر احتمالاً أنّني قد صُنِعت لأجل عالَم آخر. وإذا كان لا يُشبِعه أيُّ نوعٍ من مسرَّاتي الدنيويَّة، فلا يبرهن ذلك أبداً أنّ الكون كُلَّه سرابٌ بسراب. فلعلّ المسرَّات الدُّنيويَّة لم يكن قطُّ مقصوداً لها أن تُشبع هذا الشوق، بل أن تُثيره فحسب، كي تنبِّهنا إلى الضالَّة المنشودة الحقيقيَّة. وما دامتِ الحال على هذا المنوال، فعليَّ أن أحرص، من ناحيةٍ، على ألاّ أحتقر أبداً هذه البركات الدنيويَّة، أو ألاّ أكون شكوراً عليها، ومن ناحيةٍ أُخرى على ألاّ أخلط أبداً بينها وبين ذلك الشيء الآخر الذي ليس سوى صورةٍ له، أو صدىً، أو سراب. فعليَّ أن أُحيي في نفسي الشوق إلى وطني الحقيقيّ الذي لن أبلغه ألاّ بعد رحيلي من هنا، وعليَّ ألاّ أدعه أبداً يغيب عن بالي أو يُنحَّى جانباً، بل يجب أن أجعل هدف حياتي الأساسيّ أن أمضي قدماً نحو ذلك الوطن وأُساعد الآخرين على أن يحذُوا حذوي.»

ولا داعيَ لأن يُقلِقنا أولئك المزّاحون الذين يحاولون تسفيه الرجاء المسيحيّ المتعلّق «بالسماء» بقولهم إنّهم لا يرغبون «أن يقضوا الأبديَّة عازفين القيثارات». فالردُّ على أُناس كهؤلاء أنّه إن كانوا لا يقدرون أن يفهموا كُتباً مكتوبةً للراشدين فعليهم ألاّ يتحدَّثوا عنها. ذلك أنّ كلَّ ما ورد في الكتاب المقدَّس من صُوَر بيانيَّة أو استعارات (كالقيثارات والأكاليل والذهب إلخ...) هو بالطبع مجرَّد أسلوب

رمزيّ للتعبير عمّا يفوق التعبير. فالآلات الموسيقيَّة مذكورة لأنَّ الموسيقى في نظر الكثيرين (وليس الجميع) هي ذلك الأمر المعروف في الحياة الحاضرة الذي يوحي على أقوى ما يكون بالبهجة واللامحدوديَّة الفائقتين. والأكاليل أو التيجان مذكورة لتوحي بحقيقة كون أولئك الذين سيتَّحدون بالله في الأبديَّة سيكون لهم نصيبٌ من بهائه وسلطانه وفرحه. والذهب مذكور ليوحي بسرمديَّة السماء (لأنَّ الذهب لا يصدأ) وكرامتها الثمينة جدّاً. فيحسن بأولئك الذين يأخذون هذه الرموز على محمل حرفيّ أن يحسبوا كذلك أنَّ المسيح لمَّا طلب منَّا أن نكون كالحمام عنى أنَّ علينا أن نبيض!

١١

الإيمان

ينبغي أن أتكلَّم في هذا الفصل عمَّا يدعوه المسيحيُّون «الإيمان». فعلى وجه التقريب، يبدو أنَّ المسيحيِّين يستخدمون كلمة «الإيمان» بمعنيَين أو على مستويَين، وسأتطرَّق إليهما على التوالي. فبالمعنى الأوَّل، تعني كلمة مجرَّد التصديق: أي قبول تعاليم المسيحيَّة على أنَّها حقّ. وهذا بسيط إلى أبعد حدّ. إلاَّ أنَّ ما يربك الناس (أو على الأقلّ كان يُربِكني) هو أنَّ المسيحيِّين يعدُّون الإيمان، بهذا المعنى، فضيلة. فطالما سألتُ: كيف يُعقَل أن يكون هذا فضيلة، وما هو الأخلاقيُّ في تصديق جملةٍ من التصريحات أو غيرُ الأخلاقيِّ في عدم تصديقها؟ وكنتُ أقول، على نحو واضح، إنَّ الإنسان العاقل إمَّا يقبل أيَّ تصريح وإمَّا يرفضه، لا لأنَّه يريد ذلك أو لا يريده، بل لأنَّ البيِّنات تبدو له إمَّا جيِّدة وإمَّا سيِّئة. فإذا أخطأ بشأن جودة البيِّنات أو سوئها، فلا يعني ذلك أنَّه إنسان سيِّئ، بل أنَّه فقط محدود الذكاء. وإذا اعتقد أنَّ البيِّنات سيِّئة ولكنَّه أرغم نفسه على التصديق رغم ذلك، يكون ذلك بلاهةً خالصة.

حسناً، أعتقد أنِّي ما زلتُ على رأيي ذلك. ولكنَّ ما لم أُدركه آنذاك (وكثيرون جدّاً ما زالوا لا يدركونه) هو هذا: أنَّني كنت أفترض بديهيّاً أنَّه ما إن يقبل العقل البشريُّ أمراً باعتباره صحيحاً، حتَّى يستمرَّ تلقائيّاً في حسبانه صحيحاً، إلى أن يطرأ داعٍ حقيقيٌّ إلى إعادة النظر فيه. وبالحقيقة أنَّني كنت أفترض بداهةً أنَّ العقل البشريَّ يحكمه المنطق. غير أنَّ الواقع ليس هكذا. فمثلاً، عقلي مقتنع تماماً على أساس البيِّنات الجيِّدة أنَّ أدوية التخدير لن تقضيَ عليَّ وأنَّ الجرَّاحين المدرَّبين حسناً لا يباشرون العمليَّة الجراحيَّة قبل دخولي حالة اللاوعي. ولكنَّ هذا لا يُبدِّل

حقيقة كوني سأشعر بذعرٍ صبيانيٍّ محض يثور في داخلي عندما أُمدَّد على طاولة الجراحة ويوضع على وجهي قناعُ التخدير. فإنّي أبدأ بالتفكير في أنّني سأختنق، وأخشى أن يبضعني الجرّاح قبل فقداني الوعيَ تماماً. وبعبارةٍ أخرى، أفقد إيماني بأدوية التخدير. فليس العقل هو الذي ينزع منّي الإيمان، بل على العكس: إيماني مؤسَّس على العقل، ولكنَّ العلّة في خيالي وعواطفي. وعليه فالمعركة هي بين الإيمان والعقل من جهة، والعواطف والخيال من جهة أخرى.

وعندما تفكّر في الأمر، تجد أمثلةً كثيرة عليه. فرُبَّ شابٍّ يعرف، على أساس بيّنات تماماً، أنَّ شابّةً حسناء من معارفه كذّابةٌ ولا يمكن أن تحفظ سرّاً وينبغي ألاّ تؤتمَن أبداً، غير أنّه حين يُلفي نفسه بصحبتها يفقد عقلُه تصديقَه لتلك المعلومة، ويبدأ يُفكّر: «لعلّها تكون مختلفة هذه المرّة!» ثمّ يتصرّف مرّةً أخرى تصرُّف الساذج المغفَّل ويُخبرها بأمرٍ لم يكن ينبغي له إخبارُها به. فإنَّ أحاسيسه ومشاعره بدّدت إيمانه في ما يَعرِف فعلاً أنّه حقّ. أو هَبْ ولداً يتعلّم السباحة. فعقله يعلم تماماً أنَّ جسماً بشريّاً غير مدعوم لن يغرق بالضرورة في الماء، إذ قد رأى عشراتٍ من الناس يعومون ويسبحون. ولكنَّ السؤال الأساسيَّ هو: هل يقدر أن يبقى مصدِّقاً لذلك حين يُبعِد مدرِّبه يديه عنه ويتركه غير مدعوم في الماء، أم هل يكفُّ فجأةً عن تصديق ذلك ويستولي عليه الرعب ويغوص إلى الأسفل؟

والآن، فإنَّ الأمر عينه تماماً يحصل بالنسبة إلى المسيحيّة. فأنا لا أطلب من أحد أن يقبل المسيحيّة إذا كان تفكيره المنطقيُّ الأفضل يقول له إنَّ أرجحيّة البيّنات مناقضةٌ لها. وليست هذه هي النقطة التي عندها يتدخّل الإيمان. ولكنْ ماذا لو قرّر عقل الإنسان فعلاً أنَّ أرجحيّة البيّنات هي في صفّ المسيحيّة؟ في وسعي أن أقول لذلك الإنسان ما سيحدث له في غضون الأسابيع القليلة المقبلة. سيأتي وقتٌ فيه يتلقّى خبراً سيّئاً، أو يكون في ضيق، أو ينوجد وسط مجموعةٍ من الناس الذين لا يؤمنون بالمسيحيّة، وفجأةً ستثور مشاعره وتشنُّ ما يشبه الغارة الخاطفة على إيمانه. أو قد يأتي وقتٌ فيه يشتهي امرأةً، أو يرغب في الكذب، أو يشعر برضىً بالغ على نفسه، أو تلوح له فرصة لكسب بعض المال بأسلوب غير شريف تماماً، أي وقتٌ مّا فيه يكون مؤاتياً جدّاً ألاّ تكونَ المسيحيّة على حقّ. ومرّةً أخرى تشنُّ عليه رغباته ورغائبه غارةً شعواء. لستُ أتكلّم عن الأوقات التي فيها تبرز أيّة أسباب جديدة

فعليَّة مناهضة للمسيحيَّة. فهذه لا بدَّ من مواجهتها، وتلك مسألةُ أُخرى. إنَّما أتكلَّم عن الأوقات التي فيها يثور مزاجٌ أو طبعٌ يكون مناقضاً للمسيحيَّة.

والآن، فالإيمان، بالمعنى الذي به أستخدِم الكلمة هنا، هو فنُّ التمسُّك بالأمور التي قبلها عقلك مرَّةً، على الرغم من تقلُّب مزاجك. فالأمزجة تتقلَّب حتماً، مهما كانت النظرة التي يقول بها عقلك. وأنا أعلم ذلك بالاختبار. فبعدما صرتُ مسيحيّاً بالحقّ، بتُّ أمرُّ في أمزجةٍ يبدو فيها الأمر كلُّه بعيد الاحتمال للغاية. ولكنْ لَمَّا كنتُ مُلحِداً، كنتُ أمرُّ في أمزجةٍ فيها تبدو المسيحيَّة كثيرة الاحتمال على نحوٍ هائل. فثورة أمزجتك هذه على ذاتك الحقيقيَّة لا بدَّ أن تحدث على كلِّ حال. لذلك كان الإيمان فضيلةً ضروريَّة جدّاً: ما لم تُعلِّم أمزجتك «إلى أين تمضي» فلا يمكنك أبداً أن تكون مسيحيّاً راسخاً، ولا حتَّى مُلحِداً راسخاً، بل مجرَّد مخلوق مترجِّح ذهاباً وإياباً تعتمد معتقداته في الواقع على تقلُّبات الطقس وحالة الهضم لديه. من هنا كان على المرء أن يُنمِّي عادة الإيمان.

وأوَّل خطوة هي أن تدرك حقيقة كون أمزجتك متقلِّبة. والثانية أن تتيقَّن بأنَّه ما إن تقبل المسيحيَّة حتى تغدو بعض تعاليمها معروضةً عمداً أمام عقلك وقتاً ما كلَّ يوم. ولذلك كانت الصلوات اليوميَّة والقراءات الروحيَّة وحضور الخدمات الكنسيَّة مُقوِّمات ضروريَّة للحياة المسيحيَّة. فينبغي أن نُذكَّر دائماً بما نؤمن به. إذ إنَّ هذا المعتقد أو أيَّ معتقد سواه لن يبقى حيّاً في الذهن بصورة تلقائيَّة. فمن الواجب أن يُغذَّى. وبالحقيقة أنه إذا ساءلت مئة شخصٍ مِمَّن فقدوا إيمانهم بالمسيحيَّة فسؤالي: كم واحداً منهم يتبيَّن أنَّهم أنكروا المسيحيَّة بعد تفكيرٍ صحيح مقترن بالحجج الصادقة؟ ألاَ يتحوَّل معظم الناس عن المسيحيَّة على سبيل الانجراف فحسب؟

والآن عليَّ أن أنتقل إلى الإيمان بمعناه الآخر أو الأسمى، وهذا أصعبُ أمرٍ عالجتُهُ على الإطلاق. وأودُّ أن أخلص إليه بالرجوع إلى موضوع التواضع. ولعلَّك تذكر أنِّي قلتُ إنَّ أوَّل خطوة نحو التواضع هي أن يدرك المرء أنَّه متكبِّر. فأريد الآن أن أُضيف أنَّ الخطوة التالية هي بذل محاولة جدِّيَّة لممارسة الفضائل المسيحيَّة. ولا يكفي أسبوعٌ واحد. فالأمور غالباً ما تسير على نحوٍ رائع في الأسبوع الأوَّل. جرِّبْ ستَّة أسابيع! فإذ يكون المرء في غضون ذلك، بمقدار ما يمكنه أن يلاحظ، قد تقهقر

كليّاً، أو أيضاً قد تراجع إلى ما قبل النقطة التي انطلق منها، يكون قدِ اكتشف بعض الحقائق بشأن نفسه. فلا أحدَ يدرك كم هو رديء إلاَّ بعد أن يكون قد بذل أقصى جهده ليكون صالحاً. وثمّة فكرة سخيفة شائعة اليوم تقول بأنَّ الصالحين لا يعرفون معنى التجربة أو الغواية. فهذه كِذبة بلهاء. ذلك أنَّ أولئك الذين يقاومون التجربة وحدهم يعرفون كم هي قويَّة. وبعد، أفلا تعرف قوَّة العدوّ بمحاربته، لا بالاستسلام له؟ كما أنَّك تكتشف قوَّة الريح بمحاولتك أن تسير بعكسها، لا بالانبطاح أمامها. والرجل الذي يستسلم للتجربة بعد خمس دقائق لن يعرف طبعاً ما كان ممكناً أن تكون عليه بعد ساعة. ولذلك، بمعنىً من المعاني، لا يعرف الأشرارُ عن حقيقة الشرّ إلاَّ القليل. فهم قد عاشوا حياةً آمنةً من الصراعات باستسلامهم للتجارب ولن نتبيَّن أبداً قوَّة الميول الشرّيرة في داخلنا ما لم نحاول مقاومتها. ثمَّ إنَّ المسيح، لكونه الإنسانَ الوحيد الذي لم يستسلم للتجربة قطّ، هو أيضاً الشخص الوحيد الذي يعرف إلى التمام ما تعنيه التجربة... إنَّه الواقعيُّ الكامل الوحيد. جيِّدٌ جدّاً إذاً: إنَّ الأمر الجوهريَّ الذي نتعلَّمه من القيام بمحاولة جادَّة لممارسة الفضائل المسيحيَّة هو أنَّنا نُخفِق في ذلك. فإذا كانت لدينا أدنى فكرة بأنَّ الله قد أعدَّ لنا امتحاناً من نوع ما، وأنَّنا قد ننال علاماتٍ باستحقاقنا لها، فإنَّ هذه الفكرة يجب أن تُمحَى تماماً. وإذا كان من فكرةٍ عن صفقةٍ من نوع ما (أيَّة فكرة بأنَّ في وسعنا أن نُوفِّيَ قسطنا من المعاهدة وبذلك نضع الله تحت دَين بأن يتولى هو أن يُوفِّي قسطه من قبيل العدل والإنصاف) فيجب أن تُمحى هذه الفكرة كلِّيّاً.

أعتقد أنَّ كلَّ إنسان لديه إيمانٌ غامضٌ بالله، يظن أن علاقته بالله تحوي امتحاناً أو صفقةً، إلى أن يصير مسيحيّاً بالحقّ. فأوَّل نتيجة من نتائج المسيحيَّة الحقيقيَّة هي تبديد تلك الفكرة تبديداً تامّاً. وعندما يجد بعضهم هذه الفكرة مُبدَّدةً كلِّيّاً، يظنُّون أنَّ ذلك يعني أنَّ المسيحيَّة فاشلة، فيستسلمون. فيبدو أنَّهم يتصوَّرون أنَّ الله ساذجٌ جدّاً. غير أنَّه بالحقيقة يعلم كلَّ شيء عن هذا طبعاً. فواحدٌ من الأمور التي صُمِّمت المسيحيَّة للقيام بها هو تبديدُ تلك الفكرة نهائيّاً. إذ إنَّ الله ما ينفكُّ منتظراً اللحظة التي فيها تكتشف أنْ لا وجودَ لمسألة إحراز علامة نجاح في هذا الامتحان، أو وضع الله تحت دينٍ لك.

ثمَّ يحصل اكتشافٌ آخر: أنَّ كلَّ مَلَكةٍ لديك، قدرتك على التفكير أو تحريك

أطرافك من حين إلى حين، إنَّما هي هبةٌ لك من الله. فلو كرَّستَ كل لحظة من لحظات حياتك لخدمته حصراً، ما كان يمكنك أن تقدِّم له أيَّ شيء لم يكن ملكاً له أصلاً بمعنىً ما. حتَّى إذا تكلَّمنا عن إنسان يفعل كلَّ ما في وسعه خدمةً لله، أو يقدِّم إليه شيئاً ما، فسأقول لك ما يُشبه هذا حقاً. إنَّه يُشبه ذهاب ولدٍ صغير إلى أبيه قائلاً: «بابا، أعطني نصف شِلِن لأَشتريَ لك هديَّةً بمناسبة عيد مولدك!» وبالطبع، يُلبِّي الأبُ الطلب، ويُسَرُّ بهديَّة الولد. فالأمر كلُّه حسن ومناسب جدّاً، ولكنَّ الأبله وحده يظنُّ أنَّ الأبَ أضاف مقدار نصف شلن إلى حساب الولد في إطار الصفقة. فعندما يكتشف الإنسان الاكتشافين المذكورَين هنا، يُمكِن أن يُباشِر الله عمله حقّاً. ولا تبدأ الحياة الحقيقيَّة إلاَّ بعد هذا. فها قدِ استيقظ الإنسان الآن. وفي مقدورنا الآن أن نتقدَّم لنتكلَّم عن الإيمان بمعناه الثاني.

١٢

الإيمان

أُريد أن أبدأ بقول شيءٍ أودُّ أن يلاحظه كلُّ فردٍ بدقَّةٍ وانتباه. وهذا هو: إن لم يعنِ هذا الفصل لك شيئاً، وإن بدا لك أنَّه يحاول أن يجيب عن أسئلةٍ لم تطرحها قطّ، فاصرفْ نظرك عنه حالاً، ولا تقلق بشأنه أبداً. ففي المسيحيَّة أُمور معيَّنة يمكن فهمها من الخارج، قبل أن تصير مسيحيّاً حقيقيّاً. ولكنَّ فيها أُموراً أكثر بكثير لا يمكنك أن تفهمها إلاَّ بعد أن تكون قد قطعتَ شوطاً ما على الطريق المسيحيّ. وهذه الأُمور عمليَّةٌ محض، ولو كانت لا تبدو كذلك. إنَّها توجيهات للتصدِّي لمفارقِ طُرق وعقباتٍ معيَّنة في أثناء الرحلة، وهي غير ذاتِ معنىً إلاَّ بعد وصول المرء إلى تلك الأماكن. فكلَّما وجدتَ أيَّة عبارة في الكتابات المسيحيَّة لا تعني لك شيئاً، فلا تقلق، بل دعْها وشأنها. إذ سوف يأتي يوم، ربَّما بعد عدَّة سنين، فيه تفهم فجأةً ما تعنيه. وإذا تيسَّر للمرء فهمُها الآن، فإنَّها تضرُّ به فحسب.

وبالطَّبع أنَّ هذا كلَّه يضع عقبةً أمامي وأمام أيِّ شخص آخر على السواء. فقد يكون ما أُحاوِل تفسيره في هذا الفصل أبعد من منالي. وربَّما حسبتُ أنَّني وصلتُ إلى هناك وأنا لم أصل بعد. فليس في وسعي إلاَّ أن أطلب من المسيحيِّين المُتنوِّرين أن يراقبوني عن كثب، ويقولوا لي أين أُخطئ؛ ومن الآخرين أن يقبلوا ما أقوله بشيءٍ من التحفُّظ، على أنَّه أمرٌ أعرضه لأنَّه قد يكون مفيداً، لا لأنِّي متيقِّن بأنَّني على حقّ.

إنَّني أسعى إلى التكلُّم عن الإيمان بالمعنى الثاني، وهو الأسمى. وكنتُ قد قلتُ آنفاً إنَّ مسألة الإيمان، بهذا المعنى، تنطرح بعد أن يكون الشخص قد بذل أقصى جهده لممارسة الفضائل المسيحيَّة فتبيَّن له أنَّه مُخفِق وأدرك أنَّه حتَّى لو

نجح لكان يردُّ إلى الله ما هو لله أصلاً. وبكلمة أُخرى، فهو يكتشف إفلاسه. والآن، تقول مرَّةً أخرى إنَّ ما يعني الله ليس هو أفعالنا على وجه التحديد. فما يهمُّه أن نكون خلائق من نوع أو صنفٍ معيَّن: الخلائق الذين قصد لنا أن نكونهم، خلائق مرتبطين به بطريقة معيَّنة. ولستُ أُضيف: «ومرتبطين بعضهم ببعض بطريقة معيَّنة»، لأنَّ ذلك مشمولٌ ضمناً: فإذا كنتَ على علاقةٍ صحيحة به، فلا بدَّ حتماً أن تكون على علاقة صحيحة بجميع الخلائق المُماثِلين لك، تماماً كما يحصل حين تكون قضبان العَجَلة مُثبَّتة في مكانها الصحيح داخل المحور والإطار، إذ لا بدَّ أن تكون حينذاك في مواقعها الصحيحة أحدها من الآخر. وما دام الإنسان يفكِّر في الله تفكيره في مُمتحِنٍ أعدَّ له ورقة أسئلة عليه الإجابةُ عنها، أو في فريقٍ آخرَ في صفقة أو اتِّفاقيَّة ما، ما دامَ يفكِّر في مطالبَ ومطالب مقابلة بينه وبين الله، فلا يكون قد دخل بعدُ في علاقة صحيحة به تعالى. إنَّه يُسيء فهم ماهيَّته وماهيَّة الله. ولا يمكنه أن يدخل في علاقة صحيحة قبل أن يكتشفَ حقيقة إفلاسنا جميعًا.

وعندما أقول «يكتشف»، أعني بالحقيقة «يكتشف»، لا أن يقول ذلك كالببغاء. فإنَّ أيَّ ولدٍ طبعاً، إذا تلقَّى تربيةً دينيَّة معيَّنة، سيتعلَّم سريعاً أن يقول إنَّه ليس لدينا شيءٌ نقدِّمه إلى الله لا يكون له أصلاً، وإنَّنا نجد أنفسنا مُخفِقين في أن نقدِّم حتَّى ذلك دون أن نحتفظ بشيءٍ ما في المقابل. غير أنَّني أتكلَّم عن اكتشاف هذا الأمر حقّاً: أن أتبيَّن أنَّه صحيحٌ من طريق التجربة أو الاختبار.

إنَّما لا يمكننا، من ذلك القبيل، أن نكتشف عجزنا عن حفظ قانون الله إلاَّ ببذل أقصى جهدنا فعلاً (وَ مِنْ ثَمَّ بفشلنا). وما لم نحاول ذلك حقّاً، فمهما قلنا تبقى في قعر عقولنا دائماً الفكرة القائلة بأنَّنا إن بذلنا جهداً أوفر في المرَّة التالية فسننجح في أن نكون صالحين تماماً. وهكذا، من جهة، فإنَّ طريق الرجوع إلى الله هو طريق جهادٍ خُلقيّ، أي بذل جهدٍ مُضاعف بعد جهد. ولكنْ من جهة أُخرى ليس بذل الجهد هو ما سيوصلنا إلى مقصِدنا أبداً. فكلُّ ذلك الجهاد سيُفضي بك إلى اللحظة الحاسمة التي فيها تلتفت إلى الله وتقول: «لا بدَّ أن تتولَّى أنت الأمر. فأنا لا أقدر عليه.» وأُناشدكم ألاَّ تبدأوا تسألون أنفسكم: «هل بلغتُ هذه اللحظة؟» فلا تقعد وتباشر مراقبة ذهنك لترى هل هي آتية. إنَّ هذا يضع قدميك تماماً على الطريق الخطأ. فعندما تحصل أهمُّ الأُمور في حياتنا، يكاد يكون من الغالب تماماً، في

اللحظة عينها، ألاّ ندري بما يجري. فالإنسان لا يقول لنفسه دائماً: «مرحى! إنّني أنمو.» فغالباً حين ينظر إلى الوراء، يدرك حينئذٍ فقط ما قد جرى، ويميِّزه على أنّه ما يدعوه الناس «نموّاً». وفي وسعك أن تتبيَّن هذا في القضايا اليسيرة أيضاً. فالإنسان الذي يبدأ بتشوُّق وتوتُّر مراقبة نفسه ليتبيَّن هل يوشك أن ينام يُرجَّح له جدّاً أن يظلّ مستيقظاً تماماً. وكذلك أيضاً ما أتحدَّث عنه الآن ربّما لا يحدث لكلّ إنسان في لحظة خاطفة مفاجئة، مثلما حدث للرسول بولس أو أغسطينوس أو جان بَنيان؛ بل قد يكون تدريجيّاً للغاية بحيث لا يستطيع امرؤٌ أن يُحدِّد ساعةً معيَّنة، ولا حتّى سنةً معيَّنة. وما يهمُّ فعلاً هو طبيعة التحوُّل في ذاته، لا ما نشعر به عند حدوثه. إنّه التحوُّل عن كوننا واثقين بجهودنا الشخصيَّة إلى الحالة التي فيها نيأس من القيام بأيِّ شيءٍ بأنفسنا ونضع الأمر كلّه في يد الله.

في علمي أن التعبير «نضع الأمر كلَّه في يد الله» يمكن أن يُساء فهمه، ولكن ينبغي أن يبقى على حاله الآن. فالمعنى المقصود من وضع المسيحيّ للأمر كلّه في يد الله أنّه يضع كامل ثقته في المسيح، واثقاً بأنَّ المسيح سوف يُشركه بطريقةٍ ما في الطاعة البشريَّة الكاملة التي عاشها منذ ولادته حتّى صلبه، وبأنَّ المسيح سيجعل الإنسان أشبه به، وبمعنىً مّا يسدُّ نقصاته. وبتعبيرٍ مسيحي، فإنَّ المسيح سيُشركنا في «بنوَّته»، أي يجعلنا «أبناء الله» مثل شخصه. (سأحاول في الباب الرابع تحليل معنى هذه الكلمات أكثر قليلاً.) وإن شئتَ التعبير عن الأمر بطريقة أُخرى، أقول إنَّ المسيح يعرض أن يقدِّم لنا شيئاً مقابل لاشيء، بل إنّه يقدِّم لنا كلَّ شيء مقابل لاشيء. وبمعنىً ما، فإنَّ قوام الحياة المسيحيَّة كلّها هو قبول هذه العطيَّة الرائعة جدّاً. إنّما الصعوبة كامنةٌ في بلوغنا النقطة التي فيها ندرك أنَّ كلَّ ما فعلناه وما يمكن أن نفعله هو لاشيء. وما كنّا نودّه هو لو يحسبُ لنا الله علاماتنا الجيِّدة ويغضُّ النظر عن السيِّئة. وهنا أيضاً يمكننا، بطريقةٍ ما، أن نقول إنّنا لن نستطيع دحر أيَّة تجربة أبداً قبل أن نكفَّ عن محاولة دحرها، مُعلِنين استسلامنا. إلاّ أنّك أيضاً لن تستطيع أن «تكفَّ عن المحاولة» بالطريقة الصحيحة، وللسبب الصحيح، إلاّ بعد أن تكون قد بذلت أقصى جهدك فعلاً. ثمَّ إنَّ تسليم المسيح كلَّ شيء، بمعنىً آخرَ بعد، لا يعني بالطبع أن تكفَّ عن المحاولة. فأن تثق به يعني أن تحاول القيام بكلِّ ما يقوله طبعاً. ولا يكون أيُّ معنىً لقولك إنّك تثق بشخص إن كنت لا تقبل نصيحته. وعليه،

فإن كنتَ حقّاً قد سلّمته ذاتك، يترتّب على ذلك حتماً أنّك تحاول أن تطيعه. ولكنّ المحاولة هنا تكون بطريقة جديدة، بطريقة أقلّ قلقاً وتوجُّساً. ليس أن تقوم بهذه الأُمور لكي تخلص، بل لأنّه قد مدَّ إليك يد الخلاص فعلاً. ليس أن تأمل بالذهاب إلى السماء مكافأةً لك على أفعالك، بل أن ترغب حتماً في التصرُّف بطريقةٍ معيَّنة لأنَّ ومضةً أُولى طفيفة من السماء باتت داخلك فعلاً.

ولطالما تجادل المسيحيُّون في ما يؤدّي إلى الموطن المسيحيّ: أهو الأعمال الصالحة أم الإيمان بالمسيح؟ وليس من حقّي في الواقع أن أتكلّم في هذه المسألة الصعبة، إنّما يبدو الأمر في نظري شبيهاً بالسؤال: أيُّ شفرتَي المقصّ أكثر ضرورة؟ فالجهد الخُلقيُّ الجدّيُّ هو الشيء الوحيد الذي يوصلك إلى حيث تُعلِن استسلامك. والإيمان بالمسيح هو الشيء الوحيد الذي ينقذك من اليأس إذ ذاك؛ ومن ذلك الإيمان به لا بدَّ أن تأتي الأعمال الصالحة حتماً. وثمّة مقولتان ساخرتان تُحرِّفان الحقَّ اتُّهمت فئتان مسيحيَّتان مختلفتان في الماضي من قِبَل باقي المسيحيِّين بأنّهما تؤمنان بهما. فلعلَّ هاتين المقولتين تجعلان الحقَّ أوضح. فإنَّ فئةً اتُّهمت بأنّها تقول: «الأعمال الصالحة هي كلُّ ما يهمّ. وأفضل عملٍ صالح هو المحبّة. وخير تعبيرٍ عن المحبّة هو التصدُّق بالمال. وأفضل مكانٍ نُقدِّم له المال هو الكنيسة. فأعطونا إذاً ١٠,٠٠٠ جنيه، ونحن نتكفَّل بآخرتكم السعيدة.» أمّا الردُّ على هذا الهُراء فيكون بالطبع أنَّ الأعمال الصالحة إذا أُدّيت بذلك الدافع، ووراءها الفكرة القائلة بأنَّ السماء يمكن أن تُشترى شراءً، فلن تكون أعمالاً صالحة البتّة، بل مجرَّد مُضاربات تجاريّة. أمّا الفئة الأُخرى فقدِ اتُّهمت بأنها تقول: «الإيمان هو كلُّ ما يهمّ. وعليه، فإذا كان لديكَ إيمان، فلا يهمُّ ماذا تفعل. امضِ في الخطيّة، يا بُنيَّ، واقضِ وقتاً طيِّباً، والمسيح سيتكفَّل بألاّ يُبدِّل ذلك من مصيرك في شيءٍ آخِرَ الأمر.» أمّا الردُّ على هذا الهُراء فهو هذا: إن كان ما تدعوه «إيمانك» بالمسيح لا ينطوي على أدنى مراعاةٍ منك لِما يقوله، فهو لا يكون إيماناً البتّة، وليس إيماناً أو ثقةً به، بل مجرَّد قبول عقليّ لنظريّةٍ مّا مختصّةٍ به.

ويبدو في الحقيقة أنَّ الكتاب المقدَّس يحسم المسألة حيث يضع الأمرين كليهما معاً في عبارة واحدة مدهشة. فالنصف الأوَّل هو: «تمّموا خلاصكم بخوفٍ ورعدة»، مِمّا يُظهِر كأنَّ كلَّ شيء يتوقَّف علينا وعلى أعمالنا الصالحة. ولكنَّ النصف الثاني

يمضي ليقول: «لأنَّ الله هو العامل فيكم»، ممَّا يُظهر كأنَّ الله يقوم بكلِّ شيء فيما لا نفعل نحن شيئاً. وأخشى أن يكون هذا من الأمور التي نثور عليها في المسيحيَّة. ولئن تحيَّرتُ، فلن أُدهَش. فأنت ترى أنَّنا نحاول الآن أن نستوعب الأمر، وأن نفصل في حُجرَتين ضابطتين للماء بين ما يفعله الله تماماً وما يفعله الإنسان تماماً، في حين أنَّ الله والإنسان يعملان معاً. وطبعاً، نبدأ بالتفكير في ذلك كما لو أنَّ إنسانين يعملان معاً، بحيث يمكنك أن تقول: «هو فعل ذلك، وأنا فعلتُ هذا.» غير أنَّ طريقة التفكير هذه تنهار. فالله ليس كذلك، إذ إنَّه في داخلِك وخارجَك على السواء. وهكذا، فحتَّى لو تسنَّى لنا أن نعرف مَن يقوم بماذا، فلستُ أعتقد أنَّ لغة البشر تستطيع أن تعبِّر عن ذلك حقَّ التعبير. وفي محاولة التعبير عنه، تقول مختلف الكنائس أشياءَ مختلفة. ولكنَّك ستجد أنَّه حتَّى أولئك الذين يصرُّون أشدَّ الإصرار على أهميَّة الأعمال الصالحة يقولون لك إنّك تحتاج إلى الإيمان؛ وحتَّى أولئك الذين يصرُّون أشدَّ الإصرار على وجوب الإيمان يقولون لك أن تعمل أعمالاً صالحة. وعلى كلِّ حال، هذا هو الحدُّ الذي يمكنني الذهابُ إليه.

وأعتقد انَّ من شأن جميع المسيحيِّين أن يوافقوني إذا قلتُ إنَّه ولو بدت المسيحيَّة أوَّلَ الأمر معنيَّةً كلُّها بالأخلاق، وكذلك بالواجبات والقواعد والذَّنْب والفضيلة، فهي مع ذلك تمضي بك قُدماً، خارجَ ذلك كلِّه، إلى ما هو أبعد. ولديَّ لمحةٌ على بلد لا يتحدَّث أهلُه عن هذه الأمور، إلَّا على سبيل الدُعابة على الأرجح. وكلُّ شخص هناك مملوءٌ إلى التمام بما يمكننا أن ندعوه صلاحاً كما أنَّ المرآة مملوءة نوراً. غير أنَّهم لا يدعون ذلك صلاحاً، بل لا يدعونه أيَّ شيء. فهم لا يفكِّرون فيه. إنَّهم مشغولون تماماً بالنظر إلى المصدر الذي منه ينبعث الصلاح. ولكنَّ ذلك البلد قريبٌ من المحطَّة التي عندها تمرُّ الطريق فوق محيط عالمنا. فلا تستطيع عينا أيِّ إنسان أن تريا بعيداً ما وراء ذلك، وإن كانت عيون كثيرين تستطيع أن ترى أبعد ممَّا ترى عيناي.

الباب الرابع

أسمى من الشخصيّة
أو خطوات أولى
في عقيدة الثالوث

I

الخلق يختلف عن الولادة

حذّرني كثيرون من أن أقول لكم ما سأقوله في هذا الباب الأخير. وقد قالوا كلُّهم: «إنَّ القارئ العاديَّ لا يريد لاهوتيّات؛ فأعطه ديانة عمليَّة واضحة.» إلاَّ أنَّني لم أعمل بنصيحتهم. فلا أحسب القارئ العاديَّ مُغفَّلاً إلى حدٍّ رهيب. ذلك أنَّ علم اللاهوت يعني علم الإلهيّات أو الأُمور المتعلّقة بالله. وأعتقد أنَّ أيَّ إنسان يريد أن يفكّر في الله أصلاً يودُّ أن يحوز أوضح الأفكار وأدقَّها عنه تعالى ممَّا هو متوفِّر. إنّكم لستم أولاداً صغاراً، فلماذا تُعامَلون كما لو كنتم أولاداً؟

وبطريقةٍ ما، أفهم تماماً لماذا يصدُّ علم اللاهوت بعضَ الناس. وأنا أذكر مرَّةً، لمّا كنت أُلقي كلمة على أفراد سلاح الجوِّ الملكيّ، أنَّ ضابطاً كبير السنّ قاسيَ الملامح وقف وقال: «لا نفع لي بهذا الكلام كلِّه. إنَّما لا تنسَ أنَّني رجل متديِّن أيضاً. فأنا أعرف أنَّ الله موجود. وقد شعرتُ به، خارجاً وحدي في الصحراء ليلاً، ويا له من سرٍّ هائل! ولهذا السبب عينه لا أُومن بما تقوله عنه من معتقدات وصيَغ ضئيلة منمَّقة. فبالنسبة إلى أيِّ شخصٍ قابل الحقَّ بذاته، تبدو هذه كلُّها تافهة ومُتكلَّفة وغير واقعيَّة.»

والآن، من ناحيةٍ ما، أتَّفق تماماً مع هذا الرجل. فأعتقد أنَّه ربَّما اختبر الله اختباراً حقيقيّاً في الصحراء. ولمَّا تحوَّل عن ذلك الاختبار إلى قوانين الإيمان المسيحيَّة، أعتقد أنَّه بالحقيقة كان يتحوَّل عن شيءٍ حقيقيّ إلى شيءٍ أقلَّ حقيقيَّة. فعلى المنوال عينه، إذا كان رجلٌ قد نظر إلى المحيط الأطلسيِّ من على شاطئ، ثمَّ ذهب ونظر خريطة للأطلسيّ، يكون هو أيضاً متحوِّلاً عن أمر حقيقيّ إلى أمرٍ أقلَّ حقيقيَّة، إذ يتحوَّل عن الأمواج الفعليَّة إلى قطعة ورق ملوَّنة. إنَّما هنا بيت القصيد: صحيحٌ

أنَّ الخريطة مجرَّد ورقة ملوَّنة، ولكنْ يجب أن تتذكَّر بشأنها أمرين. فأوَّلاً، هي مؤسسة على ما اكتشفه مئاتٌ وألوف من الناس بالإبحار في الأطلسي الحقيقيّ. ومن هذه الناحية تكمن وراءها كميّاتٌ وافرة من الاختبار حقيقيّةٌ تماماً مثل الذي كان لك وأنت واقفٌ على الشاطئ؛ إنّما في حين كان اختبارك نظرةً منفردة، رتَّبت الخريطة تلك الاختبارات المتفرِّقة كلَّها معاً. وثانياً، إذا أردتَ ان تُبحِر إلى أيِّ مكان، فالخريطة ضروريَّة ضرورةً مطلقة. وما دمتَ قانعاً بالتمشّي على الشاطئ، تكون نظراتك أكثر إبهاجاً لك من التطلُّع في الخريطة. غير أنَّ الخريطة ستكون أكثر فائدةً لك من التمشّي على الشاطئ إذا شئتَ أن تسافر إلى أميركا.

والآن، علمُ اللاهوت يشبه الخريطة. فمجرَّد التعلُّم والتفكير في العقائد المسيحيَّة، إن أنت توقَّفت هناك، أقلُّ حقيقيَّة ومتعةً من مثل ذلك الاختبار الذي حصل لصاحبنا في الصحراء. فالعقائد ليست هي الله، بل هي أشبه بالخريطة فحسب. غير أنَّ الخريطة مبنيَّةٌ على اختبار مئات الأشخاص الذين كانوا بالحقيقة على اتِّصال بالله، وهي اختباراتٌ إذا قورنت بها أيَّة ارتعاشات سرور أو مشاعر ورع قد نحصل عليها أنا وأنت بأنفسنا كانت أوَّليَّة جدّاً ومشوَّشة كثيراً. ثمَّ إنَّك إذا شئت أن تتقدَّم أبعدَ من ذلك، ينبغي لك أن تستخدم الخريطة. ترى إذاً أنَّ ما حصل لذلك الرجل في الصحراء ربَّما كان حقيقيّاً، وقد كان مشوِّقاً ومُبهِجاً حتماً، ولكنْ لا يطلع منه شيء. فهو لا يؤدِّي إلى أيِّ مكان. وليس من شيءٍ تفعله بشأنه. وبالحقيقة أنَّ هذا هو السبب في كون الديانة الغامضة (كلّ ما يتعلَّق بتلمُّس الله في الطبيعة وما إلى ذلك) جذّابةً جدّاً. فهي كلُّها ارتعاشات طرب، وليس فيها أيُّ عمل: شأنها شأن مشاهدة الأمواج من على الشاطئ. ولكنَّك لن تصل إلى شاطئ الأطلسيّ الآخر بدراستك للمحيط بهذه الطريقة. ولن تنال الحياة الأبديَّة بمجرَّد شعورك بحضور الله في الأزهار أو الموسيقى. كما لن تصل إلى أيِّ مكان بالنظر إلى الخرائط دون رُكوب البحر، ولن تكون أيضاً آمناً جدّاً إذا ركبت البحر بلا خريطة.

وبعبارة أخرى، فإنَّ علم اللاهوت عمليّ، ولا سيّما الآن. ففي الأيّام القديمة، لمّا كانت الثقافة والبحث أقلّ، ربَّما كان ممكناً المضيُّ قدماً بأفكارٍ عن الله بسيطة وقليلة جدّاً. ولكنَّ الأحوال الآن تغيَّرت. فكلُّ امرىءٍ يقرأ، ويسمع أموراً تُناقَش. وعليه، فإذا كنت لا تُصغي إلى اللاهوتيّات، فلن يعني ذلك ألاّ تحوز أيَّة أفكار عن

الله، بل سيعني أن تحوز كثيراً من الأفكار الخاطئة، أفكاراً مشوَّشة فاسدة بالية. فإنَّ كثيراً من الأفكار التي يتمُّ تداولُها اليوم بشأنِ الله على أنَّها من الطرائف ليست في الواقع سوى تلك التي امتحنها اللاهوتيُّون قبل قرونٍ عديدة ورفضوها. وهكذا يكون الإيمان بالديانة الشعبيَّة الشائعة في إنكلترا الحديثة تقهقُراً وَتَراجُعاً، مثله مثل الاعتقادِ أنَّ الأرض مُسطحَّة.

فإذا نظرتَ في حقيقة الأمر، أفلا تجد أنَّ الفكرة الشعبيَّة عن المسيحيَّة هي هذه فحسْب: أنَّ يسوع المسيح كان معلِّم أخلاق عظيماً، وأنَّنا لو قبلنا نصائحه فقط لربَّما تمكَّنا من إقامة نظام اجتماعيٍّ أفضل وتجنَّبنا حرباً أُخرى؟ طبعاً، هذا صحيحٌ تماماً. غير أنَّه يقول لك أقلَّ بكثير جدّاً من الحقيقة الكاملة عن المسيحيَّة، وليست له أهميَّة عمليَّة على الإطلاق.

صحيحٌ تماماً أنَّنا لو عملنا بنصائح المسيح لكنَّا سريعاً نعيش في عالم أسعد. حتَّى إنَّك لستَ بحاجةٍ لأن تصل إلى المسيح. فلو عملنا بكلِّ ما قاله لنا أفلاّطون أو أرسطو أو كُنفوشيوسٍ لتحسَّنت أحوالنا عمَّا هي عليه الآن بمقدارٍ كبيرٍ جدّاً. فماذا إذاً؟ إنَّنا لم نعمل قطّ بنصائح المعلِّمين الكبار. فلماذا يُرجَّح أن نبدأ ذلك الآن؟ ولماذا يُرجَّح أنَّنا سنتَّبع المسيح أكثر من أيِّ واحد من الآخرين: ألأنَّه أفضل معلِّم أخلاقيّ؟ ولكنَّ هذا يُقلِّل كثيراً بالأحرى من احتماليَّة اتِّباعنا له. فإذا عجزنا عن استيعاب الدروس الابتدائيَّة، أفيُرجَّح أنَّنا سنقدر على تلقِّي الدروس الأعلى؟ ولو كانت المسيحيَّة تعني فقط قسطاً إضافيّاً من النصائح الصالحة، لَما كانت ذات أهميَّة على الإطلاق. فما كانت تُعوزنا النصائح الصالحة على مدى آخِر أربعة آلاف سنة. وقسطٌ آخر من النصائح لا يُقدِّم ولا يؤخِّر!

ولكنْ ما إن تطَّلع على أيَّة كتابات مسيحيَّة حقيقيَّة، حتَّى يتبيَّن لك أنَّها تتكلَّم عن شيءٍ مختلفٍ تماماً عن هذه الديانة الشائعة. فهي تقول إنَّ المسيح هو ابن الله (مهما كان معنى ذلك). وتقول إنَّ أولئك الذين يضعون ثقتهم فيه يمكن أن يصيروا أيضاً أبناء الله (مهما كان معنى ذلك). وتقول إنَّ موته خلَّصنا من خطايانا (مهما كان معنى ذلك).

لا نفع في التشكِّي من كون هذه التصريحات صعبة. فالمسيحية تصرِّح بأنَّها تخبرنا عن عالمٍ آخر، عن أمورٍ وراء هذا العالم الذي يمكن أن نلمسه ونسمعه ونراه.

وقد تحسب هذا التصريح باطلاً؛ ولكنْ إذا كان صحيحاً فإنَّ ما يقوله لنا صعبٌ لا محالة، أو على الأقلّ صعبٌ صعوبةَ الفيزياء الحديثة، وللسبب عينه.

والآن، فإنَّ النقطة التي تسبّب لنا أكبر صدمة، بين نقاط المسيحيَّة هي التصريح بأنّنا إذ نرتبط بالمسيح يمكننا أن «نصير أبناء الله». ورُبَّ سائل: «ألسنا أبناء الله أصلاً؟ لا شكَّ أنَّ أبوّة الله هي إحدى الأفكار المسيحيَّة الجوهريَّة؟» حسناً، بمعنىً ما، ليس من شكٍّ في أنّنا أبناء الله فعلاً. أعني أنَّ الله أوجدنا ويحبُّنا ويعتني بنا، وهو من هذا القبيل بمثابة أبٍ لنا. ولكنْ حين يتكلّم الكتاب المقدَّس عن «صيرورتنا» أبناءً لله، فمن البدهيِّ أنّه ينبغي أن يعني شيئاً آخر مختلفاً. وذلك يضعنا في مواجهة لبِّ اللاهوت وجوهره.

يقول أحد قوانين الإيمان إنَّ المسيح هو ابن الله «مولود غير مخلوق،» ثمَّ يُضيف: «مولود من الآب قبل كلِّ الدهور.» أرجو أَنْ يتوضَّح لديك جليّاً أنْ ليس لهذا أيَّة علاقة بحقيقةِ أنَّ المسيح لمَّا وَلِدَ على الأرض إنساناً فقد كان ذلك الإنسان ابنَ عذراءٍ! فنحن لسنا الآن بصدد الحديث عن الولادة من عذراء، بل إنّنا نُفكِّر في أمرٍ أزلي حاصلٍ قبل خلقِ الطبيعة، وقبل بدء الزمان. فما معنى القول إنَّ المسيح مولود، لا مخلوق، «قبل كلِّ الدهور»؟

معلومٌ أنَّ معنى الولادة أن يكون المرء أباً، أمَّا الخلق فهو الصُّنع. وهاك الفرق: عندما تلد، فأنت تلد كائناً من نوعك بعينه. فالإنسان يلد أطفالاً آدميِّين، والسمُّور يلد سمامير صغاراً، والطَّير ينتج بيضاً يتحوّل فراخاً. ولكنك عندما تصنع، فأنت تصنع شيئاً مختلفاً عنك في نوعه. فالطير يصنع عشّاً، والسمُّور يبني سدّاً، والإنسان يصنع جهازَ لاسلكيّ؛ أو قد يصنع شيئاً أشبه به، كالتمثال مثلاً. وإذا كان نحّاتاً بارعاً جدّاً، فقد يصنع تمثالاً يُشبه الإنسان كثيراً. غير أنَّ التمثال بالطبع ليس إنساناً حقيقيّاً، بل إنَّما يبدو شبيهاً به فحسب، ولا يقدر أن يتنفَّس أو يفكِّر، وهو ليس حيّاً.

فالآن، هذا هو أوّل أمرٍ ينبغي فهمه بوضوح: أنَّ الذي هو مولودٌ من الله فهو الله، تماماً كما أنَّ الذي يلده الإنسان يكون إنساناً. أمَّا ما يخلقه الله فليس إلهاً، تماماً كما أنَّ ما يصنعه الإنسان ليس إنساناً. ولذلك فليس البشر أبناءً لله بمعنى كون المسيح ابنَه. قد يكونون مثل الله من نواحٍ معيَّنة، غير أنَّهم ليسوا كائناتٍ من

الصنف ذاته. فهم أشبه بتماثيلَ أو صُوَر لله، إن صحَّ التعبير.

إنَّ التمثال له شكل إنسان، ولكنَّه ليس حيّاً. على هذا الغرار للإنسان «شكلٌ» الله أو شبهه (بمعنىً سوف أُفسّره)، ولكن ليس له نوعُ الحياة الذي لله. ولنتناول أوّلاً النقطة الأولى (مشابهة الإنسان لله). إنَّ لكلٍّ ما صنعه الله بعضَ الشبه به. فالفضاء يُشبِهه في ضخامته: ليس أنَّ عظمة الفضاء هي من نوع عظمة الله بالذات، بل إنَّها نوعٌ من الرمز إليها، أو تعبير عنها في عبارات غير روحيَّة. والمادَّة تشبه الله في كونها ذات طاقة: مع أنَّ الطاقة الطبيعيَّة أيضاً وطبعاً مختلفة عن قدرة الله في نوعها. والعالم النباتيُّ يُشبِه الله لأنَّه عالمٌ حيّ، والله هو «الإله الحيّ». غير أنَّ الحياة بمعناها البيولوجيّ ليست هي بعينها من نوع الحياة الكائنة في الله، بل هي مجرَّد نوع من الرمز أو الظلّ لها. وعندما نصل إلى الحيوانات، نجد أنواعاً أُخرى من المشابَهة فضلاً عن الحياة البيولوجيَّة. فنشاط الحشرات وخصوبتها الوافران، مثلاً، هما مشابَهة أولى باهتة لنشاط الله الدائم وإبداعه السرمديّ. ولدى الثَّدييّات العُليا نجد بدايات العاطفة الغريزيَّة. فليست هذه من نوع المحبَّة الكائنة في الله، ولكنَّها تشبهها: بالحريّ على الطريقة التي بها يمكن للصورة المرسومة على ورقة مسطَّحة أن تكون رغم ذلك «مشابِهة» لمنظرٍ طبيعيّ. حتّى إذا وصلنا إلى الإنسان، فإنّنا نجد أكمل مشابَهة لله نعرفها. (ربَّما تكونُ في عوالم أُخرى خلائقُ أكثر من الإنسان شبهاً بالله، ولكننا لا نعرف من أمرها شيئاً.) فالإنسان لا يحيا فحسب، بل يحبُّ ويفكّر أيضاً: وفيه تبلغ الحياة البيولوجية أسمى مستوى معروف لها.

ولكن ما ليس عند الإنسان، في حالته الطبيعيَّة، هو الحياة الروحيَّة: الحياة الأعلى والمختلفة نوعاً والموجودة في الله. ونحن نستخدم كلمة «الحياة» عينها لكلتيهما. ولكن إذا ظننتَ أنَّه لكونهما تستخدمان الكلمة «حياة» ذاتها يجب أن تكونا من النوع نفسه، فإنَّ ذلك يكون مثل حسبان «عظمة» الفضاء و«عظمة» الله نوعاً واحداً من العظمة. وبالحقيقة أنَّ الفرق بين الحياة البيولوجيَّة والحياة الروحيَّة مهمٌّ جدّاً، حتّى إنّني سأُطلق عليهما تسميتين مختلفتين. فنوع الحياة البيولوجيّ الذي يأتينا من خلال الطبيعة والذي يميل دائماً (شأنه شأن كلٍّ ما في الطبيعة غيره) إلى الانحلال والفساد، بحيث لا يمكن الحفاظ عليه إلاّ بإمدادات من الطبيعة لا تنقطع على شكل الهواء والماء إلخ، هو «بِيُوس» (الحياة الطبيعيَّة). أمَّا

الحياة الروحيَّة الكائنة في الله منذ الأزل، والتي صنعت الكون الطبيعيَّ كلَّه، فهي «زُويِي» (الحياة الأزليَّة). ويقيناً أنَّ «بِيُوس» تنطوي على مُشابَهة رمزيَّة أو ظليلة لـِ «زُويِي»، ولكنَّها لا تعدو كونها من نوع المشابهة القائمة بين صورةٍ ومكان، أو بين تمثالٍ وإنسان. والإنسان الذي تغيَّر من حيازته «بِيُوس» إلى حيازته «زُويِي» يكون قد اجتاز تغييراً هائلاً جدّاً كالتغيير الذي يجتازه صخرٌ منحوت كي يصير إنساناً حقيقيّاً.

وذلك تماماً هو ما تُعنى به المسيحيَّة أساساً. فهذا العالم معرضُ نحّاتٍ كبير، ونحن التماثيل. وفي أرجاء المعرض تسري شائعةٌ بأنَّ بعضاً منّا ستدبُّ فيهمِ الحياة ذات يوم.

٢

الله الثالوثيّ الأقانيم

عُني الفصل السابق بالفرق بين الولادة والصُّنع. فالإنسان يلد ولداً، ولكنَّه يصنع تمثالاً. ولهذا عبرّنا عن بُنوَّة المسيح الأزليَّة بصورة الولادة، في حين نقول إنَّ الله صنع الإنسان صُنعاً. ولكنَّني بذلك أوضحتُ نقطة واحدة عن الله، ألا وهي أنَّ المولود من الله الآب هو الله أيضاً، أي أنَّ له طبيعة الله بالذات. وهكذا، اعتُمِدت حقيقة ولادة الأبِ البشريّ لابنٍ بشريّ صورةً تقريبيَّة، إلاَّ أنَّها ليست كاملة. وعليه، فلا بدَّ أن أُحاوِل تقديم مزيدٍ من التوضيح.

يقول كثيرون من الناس اليوم: «أنا أُومن بإله، ولكنْ ليس بإلهٍ ذي شخصيَّة.» إذ يشعرون بأنَّ ذلك الكائن الغامض الموجود وراء كلّ كائنٍ آخر لا بدَّ أن يكون أسمى من شخصٍ فحسْب. وعلى هذا يُوافِق المسيحيُّون إلى أبعد حدّ. غير أنَّ المسيحيِّين هم وحدَهم مَن يقدِّمون فكرةً ما عن ماهيَّة الكائن الذي هو أسمى من الشخصيَّة. فالآخرون جميعاً، رغم قولهم إنَّ الله أسمى من الشخصيَّة يُفكِّرون فيه بالحقيقة كما لو كان كائناً غير شخصيّ، أي كائناً أدنى من كونه شخصاً. وإن كنتَ تبحث عن كائنٍ فائقٍ للشخصيّ، أي كائنٍ أسمى من الشخصيَّة، فلا خِيار لك بين المسيحيَّة وسواها من المفاهيم، إذ إنَّ المفهوم المسيحيَّ بهذا الشأن هو وحده المطروح في الميدان.

أيضاً يعتقد بعض الناس أنَّه بعد هذه الحياة، أو ربَّما بعد بضع حيوات، سوف «تذوب» النفوس البشريَّة. ولكنْ عندما يحاولون أن يشرحوا ما يقصدونه، يبدو أنَّهم يتحدَّثون عن ذوبان النفوس في الله كما تذوب مادَّةٌ في أُخرى. إذ يقولون إنَّ ذلك يُشبِه انسياب قطرة ماء إلى البحر. ولكنَّ هذا بالطبع يُنهي قطرة الماء أو

يُلاشيها. فإذا كان ذلك هو ما سيحدث لنا، فالذوبان عندئذٍ هو الكفُّ عن الوجود بعينه. إنَّما المسيحيُّون وحدهم لديهم فكرةٌ ما عن كيفيَّة انتقال نفوس البشر إلى قلب حياة الله وبقائها مع ذلك كما هي، بل بالحقيقة صيرورتها على حقيقتها أكثر بكثير ممَّا كانت قبلاً.

لقد نبَّهتُكم إلى انَّ علم اللاهوت أمرٌ عمليّ. فإنَّ جُلَّ القصد من وجودنا هو أن نؤخَذ هكذا إلى داخل حياة الله. ومن شأن الأفكار الخاطئة عن ماهيَّة تلك الحياة أن تجعل علم اللاهوت أصعب. فالآن، لا بدَّ من أن أطلب إليكم أن تُعيروني انتباهاً أكثر، على مدى بضع دقائق.

تعلمون أنَّكم في الفضاء (أو الفراغ) تستطيعون أن تتحرَّكوا في ثلاثة اتِّجاهات: إلى اليسار أو اليمين، إلى الوراء أو الأمام، إلى فوق أو إلى تحت. وكلُّ اتِّجاه فهو إمَّا واحدٌ من هذه الثلاثة، وإمَّا منزلةٌ وَسَط بينها. وتُدعى هذه الاتِّجاهات «الأبعاد الثلاثة». فلاحِظ ما يلي الآن. إذا كنتَ تستخدم بُعداً واحداً فقط، يمكنك أن ترسم فقط خطّاً مستقيماً. وإذا كنت تستخدم بُعدَين، يمكنك أن ترسم شكلاً مُسطَّحاً، كالمربَّع مثلاً. والمربَّع يتكوَّن من أربعة خطوط مستقيمة. ولنخطُ الآن خطوةً أخرى إلى الأمام. إذا كان لديك ثلاثة أبعاد، ففي وسعك عندئذٍ أن تبني ما ندعوه شكلاً مجسَّماً، كالمكعَّب مثلاً: شيئاً يُشبه النَّرد (زهر الطاولة) أو مكعَّب السُّكَّر. ومعلومٌ أن المكعَّب يتكوَّن من ستَّة مربَّعات.

هل فهمتَ المقصود؟ إنَّ عالَماً ذا بُعدٍ واحد من شأنه أن يكون خطّاً مستقيماً. وفي عالَم ذي بُعدَين، ما تزال تحصل على خطوطٍ مستقيمة، ولكنَّ بضعة خطوط تكوِّن شكلاً ما. أمَّا في عالَم ثُلاثيِّ الأبعاد، فإنَّك ما تزال تحصل على أشكال، ولكنَّ بضعة أشكال تكوِّنُ مجسَّماً واحداً. وبكلمةٍ أُخرى: إذا تقدَّمت إلى مستوياتٍ أكثر واقعيَّةً وأكثر تعقيداً، فأنت لا تتخلَّى عن الأشياء التي وجدتها على المستويات الأبسط، بل ما تزال تلك لديك إنَّما متشكِّلةً بطُرق جديدة... بطرق ما كنتَ لتتصوَّرها لو لم تعرف سوى المستويات الأبسط.

والآن، فالفكرة المسيحيَّة عن الله تنطوي على المبدإ عينه تماماً. ذلك أنَّ المستوى البشريَّ مستوىً بسيط وفارغٌ بالأحرى. فعلى المستوى البشريّ، الشخص الواحد كائن واحد، وأيُّ شخصين هما كائنان منفصلان، تماماً كما أنَّه في بُعدَين (على

ورقة مُسطَّحة مثلاً) يكون المربَّع الواحد شكلاً واحداً، وأيُّ مُربَّعَين اثنين يكونان شكلَين منفصلين. أمَّا على المستوى الإلهيّ، فما تزال تجد شخصيَّات، غير أنَّك هنالك تجدها متَّحدةً بطرقٍ جديدة لا يمكننا، نحن الذين لا نعيش على ذلك المستوى، أن نتصوَّرها. ففي البُعد الإلهيّ، إذا جاز التعبير، تجد كائناً ذا ثلاث شخصيَّات (أقانيم) فيما يبقى كائناً واحداً، كما أنَّ المكعَّب هو ستَّة مربَّعات فيما يبقى مكعَّباً واحداً. طبعاً، ليس في وسعنا أن نتصوَّر تماماً كائناً كهذا: تماماً كما لو أنَّنا كُنَّا مخلوقين على نحو لا يمكّننا من إدراك سوى بُعدَين فقط في الفضاء، أو الفراغ، لَمَا كان في وسعنا أبداً أن نتخيَّل مكعَّباً بالطريقة الصحيحة. إنَّما يمكننا أن نكوِّن عنه نوعاً من الفكرة الواهية. حتَّى إذا فعلنا ذلك، نكون عندئذٍ، أوَّلَ مرَّة في حياتنا، مُكوِّنين فكرةً إيجابيَّة، مهما كانت واهية، عن كائن فائق للشخصيَّة، كائنٍ يعدو كونه شخصاً. وهذا أمرٌ ما كان يمكننا أن نحزره قطعاً، ومع ذلك فما إن يقال لنا حتَّى يشعر المرء بأنه كان ينبغي له أن يحزره، لأنَّه يتناسب جيِّداً مع جميع الأمور التي نعرفها فعلاً.

ولعلَّك تسأل: «ما دمنا لا نستطيع أن نتصوَّر كائناً ثُلاثيَّ الشخصيَّات (ثالوثي الأقانيم)، فأيُّ خيرٍ في التكلُّم عنه؟» حسناً، لا خيرَ البتَّةَ في التكلُّم عنه. إنَّما الأمر المهمُّ حقّاً هو أن ننجذب فعلاً إلى تلك الحياة ذات الشخصيَّات الثلاث. ومن الممكن أن تباشر هذا في أيِّ وقت، بلِ الآن إذا شئت!

وهاك ما أعنيه. إنَّ المسيحي المؤمن البسيط يجثو لكي يُصلِّي وهو يحاول أن يتواصل مع الله. وإن كان مؤمناً فهو يعلم، أنَّ ما يحثُّه على الصلاة أيضاً هو الله: الله الساكن في داخله، إن جاز التعبير. إلاَّ أنَّه يعلم أيضاً أنَّ معرفته الحقيقيَّة لله تأتي كلُّها عبر المسيح، الإنسان الذي كان الله، كما يعلم كذلك أنَّ المسيح واقف بجانبه، مساعداً إيَّاه على الصلاة، ومصليّاً لأجله. أترى ما هو حاصل؟ إنَّ الله هو الكائن الذي إليه يُصلِّي المؤمن: أي الهدف الذي يَنشد بلوغه. ثمَّ إنَّ الله هو أيضاً الكائن الذي في داخله والذي يحثُّه: أي القُدرة الحافزة. كما أنَّ الله أيضاً هو الطريق أو الجسر الذي عليه يُحثُّ المؤمن لنشدان ذلك الهدف. وعليه، فإنَّ كامل الحياة الثُلاثيَّة للكائن الثلاثي الشخصيَّات (أو الأقانيم) ناشطةٌ فعلاً في ذلك المخدع البسيط حيث يرفع إنسانٌ عاديٌّ بسيط صلاته. ذلك أنَّ هذا الإنسان منجذبٌ

إلى نوع الحياة الأسمى: الحياة الروحيَّة التي سمَّيتُها «زُوِيي»، حيث يجذبه الله إلى رحاب حياة الله، فيما يبقى هو نفسَه.

هكذا بدأ علم اللاهوت. فقد كان الناس يعرفون عن الله بطريقةٍ غامضة. ثم جاء إنسانٌ صرَّح بأنَّه هو الله. إلاَّ أنَّه لم يكن إنساناً من النوع الذي يمكنك أن تصرفه باعتباره مجنوناً. فقد جعل قوماً يؤمنون به مُصدِّقين. ثمَّ قابلوه من جديد بعد أن شاهدوه يُقتل. ومن ثَمَّ، بعدما شكَّلوا جماعةً صغيرةً أو مُجتمعاً صغيراً، وجدوا الله على نحو ما في داخلهم أيضاً، مُرشِداً لهم ومُقدِّراً إيَّاهم على القيام بأُمور لم يكونوا يستطيعون فعلها من قبل. ولمَّا تدبَّروا الأمر، تبيَّن لهم أنَّهم قد أدركوا التعريف المسيحيَّ لله الثلاثي الشخصيَّات أو الأقانيم.

وليس هذا التعريف شيئاً اختلقناه اختلاقاً. فعلم اللاهوت، بمعنىً من المعاني، علمٌ اختباريّ. والديانات البسيطة هي تلك المُختلَقة. وحين أقول إنَّه علمٌ اختباريّ «بمعنىً من المعاني»، أعني أنَّه مثل العلوم الاختباريَّة الأُخرى من بعض النواحي، لا من كلِّ ناحية. فإن كنتَ جيوليوجيّاً تدرس الصخور، ينبغي لك أن تمضي وتجد الصخور. إذ إنَّها لن تأتيَ هي إليك. وإذا ذهبتَ إليها، فلا يمكنها أن تهرب منك. فالمبادرة هي بيدك كليّاً. والصخور لا تقدر أن تُعينك ولا أن تعيقك. إنَّما افترض أنَّك عالمٌ بالحيوان وتريد أن تلتقط صُوَراً للحيوانات البرِّيَّة في مأويها الأصليَّة. فهذا يختلف قليلاً عن دراسة الصخور. ذلك أنَّ الحيوانات البرِّيَّة لن تأتي إليك، بل يمكن أن تهرب منك. وما لم تظلَّ هادئاً جدّاً، فإنَّها تهرب حتماً. وعدم هربها هو بحدِّ ذاته شيء يُعتبَر مبادرةً منها.

والآن نرتقي درجةً أعلى: افترض أنَّك تريد أن تتعرَّف بشخص بشريّ. فإن كان عازماً على ألاَّ يسمح لك، فلن تبلغ معرفته أبداً. عليك أن تكسب ثقته. وفي هذه الحالة تتوزَّع المبادرة بالتساوي؛ والصداقة تستوجب وجود شخصين.

وعندما نصل إلى التعرُّف بالله، فالمبادرة في يده هو. فإن كان لا يُظهِر ذاته، فلا شيءَ تقدر أن تفعله يُمكِّنك من أن تجده. وهو بالحقيقة يُظهِر من ذاته لبعض الناس أكثر بكثير ممَّا يُظهِر للآخرين، ليس لأنَّه يُحابي أُناساً، بل لأنَّ من المستحيل أن يُظهِر ذاته لإنسانٍ ذهنُه وخُلقه منصرفان كليّاً في الاتِّجاه الخطأ: تماماً كما لا يمكن لنور الشمس، رُغم عدم محاباته، أن ينعكس في مرآة مغبَّرة بمثل الوضوح الذي به

ينعكس في مرآة نظيفة.

ومن الممكن أن نعبِّر عن الأمر بطريقة أُخرى، بقولنا إنَّ الأدوات التي تستخدمها في العلوم الأخرى هي أشياء خارجيَّة بالنسبة إلى ذاتك (كالميكروسكوب والتليسكوب ونحوهما)، أمّا الأداة التي بواسطتها ترى الله فهي نفسك بكاملها. وإذا كانت نفس الإنسان لا تُحفَظ نظيفة ونيِّرة، فإنَّ رؤيته لله ستكون مضطربة ... كما لو كنتَ تُعاين القمر بواسطة تليسكوب متَّسِخ. لذلك كانت للأُمم الرهيبة أديانٌ رهيبة: فلطالما كانت تنظر إلى الله عبرَ عدسة قذِرة.

فلا يمكن أن يُظهِر الله ذاته على حقيقته إلاّ لأُناسٍ حقيقيِّين. وهذا لا يعني فحسْبُ لأُناسٍ صالحين فرديّاً، بل لأُناسٍ متَّحدين معاً في كيانٍ واحد، مُحبِّين بعضُهم بعضاً، مساعدين أحدُهم الآخر، مُظهِرينَ الله بعضُهم لبعض. فعلى هذه الصورة قصد الله للبشريَّة أن تكون: كالعازفين في فرقةٍ واحدة، أوِ الأعضاء في جسد واحد.

وعليه، فإنَّ الأداة الوحيدة الوافية تماماً للتعلُّم عن الله هي الجماعةُ المسيحيَّة بكاملها، التي تنتظره معاً. فالأُخوَّة المسيحيَّة، إذا جاز التعبير، هي العُدَّة التِّقنيَّة لهذا العلم؛ أو مُعدَّات مُختبرِه. ولهذا السبب، فإنَّ أولئك الذين يطلعون كلَّ بضع سنوات بديانةٍ مُبسَّطة من اختراعهم الخاصّ كبديل من المسيحيَّة الأصيلة المتوارثة إنَّما يُضيِّعون وقتهم عبثاً. كأنَّ رجلاً ليس له من أداةٍ سوى منظار حربيٍّ عتيق، ينطلق لكي يُصحِّح آراء جميع علماء الفلك الحقيقيِّين؛ فقد يكون رجلاً ذكيّاً، بل ربَّما كان أذكى من بعض علماء الفلك الحقيقيِّين، غير أنَّه لا يعطي لنفسه فرصةً. ثمَّ تمرُّ سنتان، فإذا بالجميع ينسَون أمره، إلاّ أنَّ العلم الصحيح ما يزال ماضياً إلى الأمام.

فلو كانت المسيحيَّة شيئاً من صُنعنا نحن، لكُنَّا جعلناها أسهل بالطبع. غير أنَّها ليست كذلك. وليس في وسعنا أن نتنافس، في البساطة، مع أولئك الذين يبتدعون أدياناً. وأنّى يكون لنا ذلك؟ فنحن إنَّما نتناول الحقيقية. وطبعاً، في وسع أيِّ امرىءٍ أن يُبديَ البساطة إذا لم تكن لديه حقائق يُعنَى بها!

٣

الزمان وما وراء الزمان

فكرةٌ سخيفة جدّاً أنَّه يجب عليك عند قراءة كتابٍ ما ألاّ «تتخطّى» أيَّ فقرة. فجميع العاقلين يتخطَّون بحرِّيَّة فصلاً يَصِلون إليه إذا تبيَّن لهم أنَّه لن يكون مفيداً لهم. وفي هذا الفصل سأتكلَّم عن موضوع قد يكون مفيداً لبعض القرّاء، إلاَّ أنَّه قد يبدو في نظر آخرين مجرَّد «تعقيد» لا داعيَ له. فإذا كنتَ من صنف القرَّاء الثاني، أنصحك بألاَّ تكلِّف نفسك عناء قراءة هذا الفصل إطلاقاً، بل تخطَّهُ إلى التالي.

كان عليَّ في الفصل السابق أن أتطرَّق إلى موضوع الصلاة. وبينما لا يزال هذا الموضوع حاضراً في ذهنك وذهني، أودُّ التطرُّق إلى صعوبة يلقاها بعض الناس بشأن فكرة الصلاة بكاملها. وقد عبَّر عنها أحدهم إذ قال لي: «يمكنني أن أومِن بالله جيِّداً، ولكنَّ ما لا أقدر أن أهتضمه هو فكرة إصغائه إلى بضع ملايين من البشر فيما يُخاطِبونه في وقتٍ واحد.» وتبيَّن لي أنَّ عدداً لا بأس به من الناس يرَون هذا الرأي.

والآن، فأوَّل أمرٍ تنبغي ملاحظته هو أنَّ العقدة الكأداء تكمن في الكلمات «في وقتٍ واحد». فمعظمنا يمكن أن يتصوَّروا الله مصغياً إلى أيِّ عدد من المصلِّين إن هم فقط قصدوا إليه واحداً فواحداً وكان لديه وقتٌ غير محدود لفعل ذلك. وعليه، فما يكمن وراء هذه الصعوبة حقّاً هو فكرة اضطرار الله إلى حشر عدَّة أُمور في لحظةٍ واحدة من الوقت.

أجل، إنَّ ذلك بالطبع هو ما يحدث لنا نحن. فحياتنا تأتينا لحظةً فلحظة. إذ تتلاشى لحظةٌ قبل أن تأتي التالية، ولا يتَّسع المجال في كلِّ لحظة إلاَّ للقليل جدّاً. هكذا هو الوقت فعلاً. وبالطبع، نميل أنا وأنت إلى التسليم بديهيّاً بأنَّ تتالي الزمان

هذا- أي نسق الماضي والحاضر والمستقبل- ليس هو فقط طريقة إقبال الحياة إلينا بل أيضاً طريقة وجود كلّ شيء حقّاً. فنحن نميل لأنْ نفترض أنَّ الكون كلّه والله ذاته يتحرَّكان كلَّ حين قُدماً من الماضي إلى المستقبل كحالنا نحن. غير أنَّ كثيرين من المثقَّفين لا يوافقوننا في الرأي. وقد كان اللاهوتيُّون أوَّل مَن أطلقوا فكرة وجود بعض الأشياء خارج إطار الزمان كليّاً، وفي ما بعد تلقَّف الفلاسفة الفكرة منهم، والآن يحذو بعض العلماء حذوهم.

فالله، بكلِّ تأكيد، ليس داخل إطار الزمان. إذ إنَّ حياته لا تتكوَّن من لحظاتٍ تلي إحداها الأخرى. فإن كان ملايين الأشخاص يُصلُّون إليه في الساعة العاشرة والنصف هذه الليلة، فلا وجوب لأنْ يُصغي إليهم في تلك اللُّحَيظة التي ندعوها العاشرة والنصف. ذلك أنَّ العاشرة والنصف، وكلَّ لحظة أخرى منذ بدء العالم، هي الحاضر عنده دائماً. واذا شئتَ عبَّرنا عن هذا بقولنا إنَّ لديه الأزليَّة كلَّها ليُصغيَ فيها إلى تلك الصلاة التي لا تدوم سوى كسرٍ من الثانية والتي يرفعها إليه طيَّارٌ فيما تتحطَّم طائرته وتشتعل.

أعرفُ أنَّ هذا صعب. فلأحاولْ إعطاء شيء يشبهه قليلاً، وإن لم يكن تماماً. هبْني أكتب رواية، وأخطُّ هذه الجملة: «ألقت مريم شغلها من يدها، وفي اللحظة التالية سمعتٍ قرعاً على الباب!» فبالنسبة إلى مريم المُضطرَّة أن تعيش في زمن قصَّتي الخيالي، ليس من فترة فاصلة بين إلقائها الشغل وسماعها القرع. ولكنِّي أنا، صانعَ مريم، لا أعيش في ذلك الزمن الخيالي أبداً. فبين كتابة أوَّل نصفٍ من الجملة والثاني، قد أجلس ثلاث ساعات وأُفكر في مريم بثبات. وفي وسعي أن أُفكِّر في مريم كما لو كانت الشخصيَّة الوحيدة في الكتاب، وطوال الوقت الذي أشاؤه. ثمَّ إنَّ الساعات التي أقضيها في ذلك لا تظهر أبداً في زمان مريم، أيِ الزمان الذي تنطوي عليه الرواية.

ليس هذا بالطبع توضيحاً كاملاً. إلاَّ أنَّه يمكن أن يُعطيَ ولو لمحةً على ما أعتقد أنَّه الحقّ. فإنَّ الله ليس مستعجلاً على طول مجرى الزمن الخاصِّ بهذا العالم، كما أنَّ الروائيَّ ليس مستعجلاً على طول الزمن الخيالي في روايته. فلديه انتباهٌ غير محدود يوفِّره لكلِّ واحدٍ منّا. وليس مُضطرّاً لأنْ يتعامل معنا ونحن وسط حشد. فأنت وحدك في حضرة الله تماماً كما لو كنتَ الكائن الوحيد الذي خلقه

على الإطلاق. ولمّا مات المسيح، فقد مات لأجلك شخصيّاً كما لو كنتَ الإنسان الوحيد في العالم.

ولكنَّ الناحية التي فيها ينهار توضيحي هي هذه. ففيه يخرج المؤلّف من تَتالٍ زمنيٍّ معيَّن (ذاك الذي في الرواية) فقط بانتقاله إلى داخل تَتالٍ زمنيٍّ آخر (هو التتالي الواقعيّ). غير أنَّ الله، حسْبما أعتقد، لا يحيا في إطار أيّ تتالٍ زمنيٍّ أبداً. فليست حياته مُتقطِّرةً لحظةً فلحظة مثل حياتنا: فما زال الزمان لديه، إذا جاز التعبير، سنة ١٩٢٠ وقد أصبح فعلاً ١٩٦٠. إذ إنَّ حياته هي ذاتُه.

فإذا تصوَّرت زمننا كخطٍّ مستيقم علينا أن نرحل على طوله، ينبغي لك عندئذٍ أن تتصوَّر الله كما لو كان كاملَ الصَّفحة التي رُسِم عليها ذلك الخطّ. ونحن نبلغ أجزاء الخطّ واحداً فواحداً: فعلينا أن نغادر النقطة «أ» قبل أن نصل إلى النقطة «ب»، ولا يمكننا أن نصل إلى «ج» إلاّ بعد مغادرتنا «ب» غير أنَّ الله، من فوقُ أو من خارج أو من كلّ جهةٍ حوالَينا، يحتوي الخطَّ بكامله ويراه بمُجمَله.

هذه الفكرة جديرة بالاستيعاب، لأنَّها تُبدِّد شيئاً من الصعوبات الماثلة في المسيحيَّة. فقبل أن صرتُ مسيحيّاً حقيقيّاً، كان أحد اعتراضاتي هو التالي. قال المسيحيُّون إنَّ الله الأزلي الحاضر في كلّ مكان، والمحرِّك والضابط للكون كلّه، صار ذات مرَّة كائناً بشريّاً. فقلتُ: حسناً إذاً، فكيف ظلَّ الكون كلُّه سائِراً حين كان طفلاً أو فيما هو نائم؟ كيف يُعقل أن يكون هو في الوقت عينه الله العليم بكلِّ شيء وأيضاً إنساناً يسأل تلاميذه: «مَن لمسني؟» ولا بدَّ أن تلاحظ أنَّ العقدة تكمن في الكلمات المتعلّقة بالزمن: «حين كان طفلاً... فيما هو نائم ... كيف يُعقل ... في الوقت عينه؟» بعبارةٍ أخرى، كنتُ أفترض أنَّ حياة المسيح من حيثُ كونه الله كانت في الزمان، وأنَّ حياته من حيث كونه يسوعَ الإنسان في فلسطين كانت فترةً زمنيَّة أقصر اقتُطِعت من ذلك الزمان، تماماً كما كانت خدمتي في الجيش فترةً أقصر اقتُطِعت من حياتي كلّها. وبهذه الطريقة ربَّما مال معظمنا إلى التفكير في الأمر. فنحن نتصوَّر الله حيّاً طوال فترةٍ من الزمان فيها كانت حياته البشريَّة ما تزال طيَّ المستقبل، ثُمَّ منتقلاً إلى فترة صارت فيها تلك الحياة حاضراً، ثمَّ متقدِّماً إلى فترةٍ فيها باتت أمراً من الماضي يمكنه أن يلقي عليه نظرة إلى الوراء. ولكنَّ هذه الأشياء كلّها ربّما لا توازي شيئاً في الحقائق الفعليَّة. فليس في وسعك أن تضع حياة

المسيح على الأرض في فلسطين داخل إطار أيّة علاقات زمنيَّة بحياته بصفتِهِ الله ما وراء المكان والزمان كليّاً. إنَّها في الواقع، كما أرى، لَحقيقةٌ سرمديَّة عن الله أنَّ الطبيعة البشريَّة، والاختبار البشريَّ المتعلّق بالضعف والنوم وقلّة المعرفة، مشمولان على نحوٍ ما في حياته الإلهيَّة بمُجملها. فهذه الحياة البشريَّة في الله، من زاوية نظرنا نحن، هي فترة زمنيَّة محدَّدة في تاريخ عالَمنا (من السنة الأولى للميلاد حتّى الصَّلب). ومن ثَمَّ نتصوَّر أنَّها أيضاً فترةٌ في تاريخ وجود الله بالذات. غير أنَّ الله ليس له تاريخ. فهو حقيقيٌّ تماماً وكلّيّاً بحيث لا يُعوزه تاريخ. ذلك انَّ حيازة المرء لتاريخ مّا يعني بالطَّبع فقدانَه جزءاً من حقيقته (إذ قدِ انساب فعلاً إلى داخل الماضي) وعَدم حيازته بعدُ جزءاً آخر (لأنَّه ما زال طيَّ المستقبل)، وفي الواقع عدم حيازته لشيءٍ سوى الحاضر الضئيل اليسير الذي يكون قد مضى قبل تمكنك من التكلُّم عنه. فحاشا لنا أن نُفكِّر في الله على أنَّه هكذا! حتَّى نحن أنفسُنا نرجو ألاَّ نُحدَّد دائماً على هذا النحو.

هذا، وتواجهنا صعوبةٌ أُخرى إذا تصوَّرنا أنَّ الله يحدُّه الزمان. فإنَّ كلَّ من يؤمن بالله أصلاً يؤمن بأنَّه تعالى يعرف ما سنفعله أنا وأنت غداً. ولكنْ ما دام يعلم أنَّني سأفعل كذا وكذا، فكيف يمكن أن أكون حُرّاً لأفعل غير ذلك؟ حسناً، هنا أيضاً تأتي الصعوبة من ظنّنا أنَّ الله يتقدَّم مثلنا على طول خطّ الزمان، إنَّما الفرق الوحيد أنَّه يقدر أن يرى ما سيكون فيما لا نقدر نحن. فأقول إنَّه لو صحَّ ذلك، أي لو سبق الله فرأى أفعالنا، لكان صعباً علينا جدّاً أن نفهم كيف يُعقل أن نكون أحراراً في ألاَّ نفعلها. ولكنْ لنفترضْ أنَّ الله هو خارجَ خطّ الزمان وفوقه. ففي هذه الحالة، يكون ما ندعوه نحن «غداً» مَرئيّاً لديه تماماً مثلَ ما ندعوه «اليوم». إذ إنَّ جميع الأيَّام هي «الآن» لديه. فهو لا يتذكَّر قيامك بالأمور أمسِ، بل إنَّما يراك قائماً بها، لأنَّه وإن كنتَ أنت قد فقدتَ يوم أمس فهو لم يفقده. وهو لا «يرى مُسبَّقاً» قيامك بالأمور غداً، بل إنَّما يراك قائماً بها، لأنَّه وإن لم يكن الغد في حوزتك بعد فهو ماثلٌ أمامه فعلاً. وأنت لم تحسب قطُّ أنَّ أفعالك في هذه اللحظة كانت أقلَّ حرّيَّةً لأنَّ الله يعلم ما أنت فاعل. وهو أيضاً يعلم أفعال غدك بالطريقة عينها تماماً: لأنَّه موجودٌ أصلاً في الغد ويستطيع أن يراقبك بكلِّ يُسر. فبمعنىً ما، هو لا يعرف فعلك حتّى تكونَ قد فعلتَه، ولكنْ عندئذٍ تكون اللحظة التي فيها قمتَ به هي «الآن» بالنسبة له.

هذه الفكرة ساعدتني كثيراً. فإن كانت لا تساعدك، فدعْك منها. إنَّها «فكرة مسيحيَّة» بمعنى أنَّ مسيحيِّين كباراً وحكماء قالوا بها، وليس فيها ما يُناقِض المسيحيَّة في شيء. غير أنَّها ليست مذكورة بصراحة في الكتاب المقدَّس، ولا في أيّ من قوانين الإيمان. ففي وسعك أن تكون مسيحيّاً صالحاً تماماً بغير أن تقبل هذه الفكرة، أو في الحقيقة بغير أن تفكّر في المسألة إطلاقاً.

٤

العدوى الصالحة

أستهلُّ هذا الفصل بأن أطلب منك تصوُّرَ صورة واضحة في ذهنك. تصوَّرْ كتابَين موضوعَين على طاولة، أحدهما فوق الآخر. فمن البدهيّ أنَّ الكتاب السُّفليّ يُبقي الكتاب الآخر في الأعلى، إذ يدعمه. فبسبب الكتاب السُفليّ، يستقرُّ العُلويُّ على ارتفاع يُقارب خمسة سنتيمترات عن سطح الطاولة، بدل أن يُلامِسها. ولندعُ الكتاب السُّفليّ «أ» والعلويّ «ب». فوضعيّة «أ» تُسبِّب وضعيّة «ب». أهذا واضح؟ والآن لنتصوَّرْ أنَّ ذينك الكتابين ما زالا على تلك الوضعيّة منذ الأزل (طبعاً، هذا لا يمكن حدوثه فعلاً، ولكنّنا نفترضه افتراضاً للتوضيح). ففي تلك الحالة، تكون وضعيّة «ب» ناتجةً كلَّ حين من وضعيّة «أ». ولكنْ رغم ذلك، ما كانت وضعيّة «أ» لتتوجد قبل وضعيّة «ب». وبكلمة أخرى، فإنَّ النتيجة لا تأتي بعد السبب. من غير ريبٍ أنَّ النتائج دائماً تلي الأسباب: فأنت تأكل الخيار ثُمَّ يُصيبك سوء الهضم في أعقاب ذلك. ولكنْ ليست هذه حالَ جميع الأسباب والنتائج. وسوف ترى بعد لحظة لماذا أعتبرُ هذا مهمّاً.

ذكرتُ قبل صفحات قليلة أنَّ الله كائنٌ يشتمل على ثلاث شخصيّات (أقانيم) فيما يظلُّ كائناً واحداً، مثلما يتكوَّن المكعَّب من ستَّة مربَّعات فيما يبقى مُجسّماً واحداً. ولكنْ ما إن أبدأ بمحاولة شرح الكيفيَّة التي بها تترابط هذه الأقانيم، حتَّى أُضطرَّ إلى استخدام كلمات تجعل الأمر يبدو كما لو أنَّ واحداً منها كان موجوداً قبل الآخرَين. فالأُقنوم الأوَّل يُدعى الآب، والثاني الابن. ونحن نقول إنَّ الأوَّل ولد الثانيَ أو أنتجه أزلاً، وهذا مدلول التعبير «مولود غير مخلوق»، لأنَّ الناتج هو من ذات طبيعة المُنتج. ومن هذه الناحية، تكون كلمة «الآب» هي الكلمة الوحيدة

الممكن استخدامها. ولكنَّ المؤسف أنَّ هذه الكلمة توحي أنّه موجودٌ في الأوَّل، مثلما يكون الأبِ البشريُّ موجوداً قبل ابنه تماماً. ولكنَّ الحقيقة غيرُ ذلك. فليس الأوَّل والثاني هنا بمعنى السابق واللاحق. لذلك أحسبه أمراً مهمّاً أن أُوضِح كيف يمكن أن يكون شيءُ ما مصدراً أو سبباً أو أصلاً لآخر بغير أن ينوجد قبله. فالابن موجود لأنَّ الآب موجود، ولم يكن قطُّ أيُّ زمان سبق «ولادة» الآب للابن.

ولربّما كانت أفضل طريقة للتفكير بهذا الأمر هي هذه. لقد طلبتُ منك قبل قليل أن تتصوَّر ذينك الكتابَين، ولعّلك فعلتَ ذلك. أعني أنّك قمتَ بفعل تصوُّر، ونتيجةً لذلك تكوَّنت لديك صورةٌ ذهنيَّة. فمن الواضح تماماً أنَّ فعلك التصوُّريَّ كان السبب، وأنَّ الصورة الذهنيَّة كانتِ النتيجة. ولكنَّ هذا لا يعني أنّك قمتَ أوَّلاً بالتصوُّر ثمَّ حصلتَ على الصورة. فلحظةَ قيامك بالتصوُّر، حصلتِ الصورة. وكانت إرادتك حافظةً للصورة أمامك كلَّ حين. إلاَّ انَّ فعل الإرادة ذاك والصورة بدأا في اللحظة عينها تماماً وانتهيا في اللحظة عينها أيضاً. فإذا كان هنالك كائنٌ ما يزال موجوداً كلَّ حين، وكان دائماً يتصوَّر أمراً واحداً، فإنَّ فعله هذا لا بدَّ أن يكون مُنتِجاً كلَّ حين لصورة ذهنيَّة، ولكنَّ الصورة لا بدَّ أن تكون أزليَّة، مثلها مثل فعل التصوُّر تماماً.

بهذه الطريقة، إذا جاز التعبير، علينا أن نفكِّر في الابن كلَّ حين منبعثاً من الآب انبعاثَ النور من المصباح، أو الحرارةِ من النار، أو الأفكار من الذهن. إنَّه التعبير الذاتيُّ عن الآب: ما يريد الآب أن يقوله. وما كان قطُّ زمانٌ فيه لم يكن قائلاً له. إنّما هل لاحظتَ ما هو حاصل؟ إنَّ هذه الصُّوَر كلَّها، عن النور أو الحرارة، تجعل الأمر يبدو كما لو أنَّ الآب والابن كانا شيئين، لا شخصين. وعليه، ففي نهاية المطاف تبدو صورة العهد الجديد عن الآب وابنه أدقَّ بكثير جدّاً من أيِّ شيءٍ نحاول أن نستبدله بها. وذلك هو ما يحصل دائماً حين تبتعد بعيداً عن كلمات الكتاب المقدَّس. لا بأس في الابتعاد عنها هُنيهةً لتوضيح نقطةٍ ما. ولكنْ ينبغي لك دائماً أن تعود إليها. فبطبيعة الحال أنَّ الله يعرف كيف يصف نفسه أفضل بكثير ممّا نعرف نحن أن نصفه. فهو يعرف أنَّ علاقة الآب والابن أكثرُ شبهاً بالعلاقة بين الأقنومَين الأوَّلين من أيِّ شيءٍ آخر يمكننا أن نفكِّر فيه. وأهمُّ أمر على الأرجح ينبغي أن نعرفه هو أنَّها علاقةُ محبَّة. فالآب يبتهج بابنه، والابن يرنو إلى أبيه.

إنَّما قبل المُضيِّ قُدماً، لاحظ الأهميَّة العمليَّة لهذه الحقيقة. فمختلف أنواع الناس يروقهم جدّاً تكرار العبارة المسيحيَّة القائلة إنَّ «الله محبَّة». ولكنْ يبدو أنَّهم لا يلاحظون أنَّ الكلمتين «الله محبَّة» لا تعنيان أيَّ معنىً حقيقيّ إلاَّ إذا اشتملت الذات الإلهية على شخصين أو أُقنومين، على الأقلّ. فالمحبَّة أمرٌ يكنُّه شخصٌ لشخصٍ آخر. ولو كان الله شخصاً مُفرداً، لما كان محبَّةً قبل خلق العالم. فطبعاً ما يعنيه هؤلاء القوم حين يقولون إنَّ الله محبَّة غالباً ما يكون أمراً مختلفاً تماماً، إذ يَعنون بالحقيقة أنَّ «المحبَّة هي الله». إنَّهم يعنون بالحقيقة أنَّ مشاعر المحبَّة لدينا، كيفما وأينما ثارت، ومهما كانت النتائج التي تُسفِر عنها، يجب أن تُعامَل باحترام كبير. وربَّما كان الأمر كذلك، غير أنَّه أمر مختلف تماماً عمَّا يعنيه المسيحيُّون بالعبارة: «الله محبَّة». فإنَّهم يؤمنون أنَّ نشاط المحبَّة الحيَّ الفعّال ما زال جارياً في الله منذ الأزل، وهو قد خلق كلَّ شيءٍ آخر.

وبالمناسبة، ربَّما كان ذلك هو أهمَّ فرق بين المسيحيَّة وباقي الأديان: أنَّ الله في المسيحيَّة ليس شيئاً، ولا حتَّى شخصاً، جامداً بل هو نشاطٌ فعّالٌ نابض: حياةٌ أو حتَّى دراما من نوع ما. وأكاد أقول، إن كنتَ لن تحسبني عديم التوقير، إنَّه نوعٌ من الحركة بين اثنين على إيقاع. ثمَّ إنَّ الاتِّحاد بين الآب والابن هو أمرٌ حيٌّ حقيقيٌّ وملموس بحيث إنَّ هـذا الاتِّحاد عينه هو أيضاً شخص أو أُقنوم. في علمي أنَّ هذا مستحيلٌ إدراكه تقريباً، ولكنِ انظرْ إليه على هذا النحو: أنت تعلم أنَّه بين الكائنات البشريَّة، حين يتحَّد الناس في عائلة، أو نادٍ أو نقابة، يتحدثون عن «روح» تلك العائلة أو ذلك النادي أو تلك النقابة. وهم يتحدَّثون عن «روح» تلك الكِيانات لأنَّ الأعضاء الأفراد، حين يكونون معاً، يكتسبون بالفعل طرائق معيَّنة في التكلُّم والتصرُّف ما كانت لتكون لهم لو كانوا متفرِّقين. (وهذا التصرُّف الجماعيُّ يمكن بالطبع أن يكون إمَّا أحسن من التصرُّف الفرديّ وإمَّا أسوأ منه). فكأنَّما شخصيَّة مشتركة برزت إلى الوجود. طبعاً، ليست هذه شخصاً حقيقيّاً، ولكنَّها بالأحرى تشبه شخصاً فحسب. إلاَّ أنَّ ذلك هو مجرَّدُ واحدٍ من الفروق بين الله وبيننا. فالذي يطلع من الحياة المشتركة بين الآب والابن هو شخص (أقنوم) حقيقيّ، بل هو بالحقيقة ثالثُ أُقنوم من الأقانيم الثلاثة التي هي الله.

هذا الشخص الثالث يُدعى، في اللغة التِّقنيَّة: الروح القدس، أو «روح» الله.

فلا تقلق ولا تُفاجأ إذا وجدته بالحريّ أكثر غموضاً أو إبهاماً في ذهنك من الآخرين. وأظنُّ أنَّ ثمّة سبباً لوجوب كون الحال كما هو عليه. ففي الحياة المسيحيَّة، لا تكونُ في العادة ناظراً إليه، بل إنَّه دائماً عاملٌ بك. وإذا فكّرت في الآب كشخص موجودٍ «هناك في الخارج» أمامك، وفي الابن كمَن هو واقفٌ بجانبك، مساعداً إيّاك على الصلاة، وساعياً إلى تحويلك ابناً آخر، فعليك عندئذٍ أن تُفكّر في الأُقنوم الثالث كشخصٍ ساكنٍ في داخلك، أو واقفٍ وراءك. وربَّما وجد بعضُهم أسهل عليهم أن يبدأوا بالأُقنوم الثالث ثم يعودوا بأفكارهم إلى الوراء. فإنَّ الله محبَّة، وهذه المحبَّة تعمل من خلال البشر، ولا سيَّما من خلال جماعة المسيحيِّين بكاملها. غير أنَّ روح المحبَّة هذا هو، منذ الأزل، محبَّةٌ جارية بين الآب والابن.

والآن، ما أهميَّة الأمر كلِّه؟ إنَّه أمرٌ أهمُّ من كلِّ ما في الدُّنيا. فإنَّ كامل حركة إيقاع هذه الحياة الثُّلاثيَّة الأشخاص، أو الدراما أو النموذج المتعلِّقين بها، يجب أن تُمثَّل فعلاً في كلِّ واحدٍ منَّا؛ أو (إن شئنا التعبير بالطريقة المعاكسة) ينبغي لكلٍّ منّا أن يدخل ذلك النموذج شاغلاً مكانَهُ في الحركة الإيقاعية. وليس من سبيلٍ آخر إلى السعادة التي لأجلها قد صُنِعنا. وكما تعلم، فإن الأمور الصالحة، شأنها شأن الطالحة، تُكتسَب بنوع من العدوى. فإن أردت أن تدفأ، ينبغي أن تقف بقرب النار؛ وإن أردت أن تتبلَّل، ينبغي أن تدخل الماء. وإن أردتَ الفرح والقوَّة والسلام والحياة الأبديَّة، فينبغي أن تقترب، بل أن تدخل أيضاً، إلى حيث تجد هذه الأمور جميعاً. فهي ليست نوعاً من الجائزة التي يستطيع الله، إذا شاء، أن يقدِّمها إلى أيِّ إنسان. إنَّها نبع عظيم من الطاقة والبهاء يتدفق من قلب الحقيقة بالذات. فإذا كنت على مقربةٍ منه، يبلِّلك رذاذه؛ وإلاّ بقيت جافّاً. وإذا ما اتَّحد الإنسان بالله، فكيف لا يسعه أن يحيا إلى الأبد؟ أمّا إذا كان منفصلاً عن الله، فماذا يسعه أن يفعل سوى الذبول والموت؟

ولكنْ كيف له أن يتَّحد بالله؟ كيف يمكننا أن ننجذب إلى قلب حياة الأقانيم الثلاثة؟

لعلّك تذكر ما قلته في الفصل الأوَّل من هذا الباب عن «الولادة» و«الصُّنع». فنحن غير مولودين من الله، بل مصنوعون بيده فقط: ففي حالتنا الطبيعيَّة، نحن لسنا أبناءً لله، بل مجرَّد تماثيل (إن صحَّ التعبير). وليس لدينا «زُويِي» أو الحياة

الروحيَّة، بل فقط «بِيُوس» أو الحياة البيولوجيَّة التي سوف تتوقَّف وتموت عمَّا قريب. فالآن، هذا هو كامل العرض الذي تقدِّمه المسيحيَّة: أنَّ في إمكاننا، إذا سمحنا لله بأن يعمل عمله، أن نُقبِل إلى الاشتراك في حياة المسيح. فإذا فعلنا ذلك، فسنكون حينئذٍ مشتركين في حياةٍ «مولودة»، غير مصنوعة، طالما وُجِدت كلَّ حين وستبقى موجودة دائماً أبداً. إنَّ المسيح هو ابن الله. فإن صارت لنا شركة في نوع هذه الحياة، فنحن أيضاً سنصير أبناء الله. وسنحبُّ الآب كما يحبُّه المسيح، ويمكث الروح القدس ويفيض فينا. فقد جاء المسيح إلى هذا العالم وصار إنساناً لكي يمدَّ الناس الآخرين بنوع الحياة الذي له... بما أدعوه «العدوى الصالحة». وعلى كلِّ مسيحيٍّ أن يصير مسيحاً صغيراً. فليس كامل الغرض من صيرورة المرء مسيحيّاً بالحقّ أيَّ شيء آخر سوى هذا!

٥

الجنود الدُّمى العنيدون

لقد صار ابن الله إنساناً كي يُمكِّن الناس من أن يصيروا أبناءً لله. ولسنا نعلم (على كلِّ حال، أنا لا أعلم) كيف كانت الأُمور ستسير لو أنَّ الجنس البشريَّ لم يعصِ الله قطُّ وينضمَّ إلى العدوِّ. فربَّما كان من شأنِ كلِّ إنسان أن يكون «في المسيح»، أي أن يشترك في حياة ابن الله، منذ لحظة ولادته. وربَّما كان من شأن الحياة الطبيعيَّة (بيُوس) أن تنجذب إلى داخل الحياة غير المخلوقة (زُويِي) فوراً وبطبيعة الحال. غير أنَّ هذا حزرٌ وتخمين. فأنت وأنا مَعنيَّان بالأمور كما هي سائرة الآن.

وإليك وصفاً لحالة الأمور الحاضرة. إنَّ نوعَي الحياة ليسا فقط مختلفين (فمن شأنهما أن يكونا كذلك دائماً) بل هما متعارضان فعلاً. فالحياة الطبيعيَّة في كلِّ واحدٍ منّا أمرٌ مركزُه الذات: أمرٌ يريد أن يُدلَّل ويحظى بالإعجاب، ويستغلَّ الحَيَوات الأُخرى، ويُسخِّر الكون كلَّه لمصلحته. وهي تُريد على الخصوص أن تُترك لذاتها: أن تظلَّ بعيدةً تماماً عن أيِّ أمرٍ أفضل منها أو أقوى أو أسمى... أيِّ أمرٍ قد يُشعِرها بأنَّها صغيرة. فهي تخشى نور العالم الروحيِّ وهواءه، تماماً كما يخشى الاستحمامَ من تربَّوا على القذارة. وهي، بمعنىً ما، على حقٍّ تماماً. إذ إنَّها تعلم أنَّه إذا استولت عليها الحياة الروحيَّة فسوف تقضي على أنانيَّتها وإراداتها الذاتيَّة، أو عنادها، وهي متأهِّبة للقتال بكلِّ ضراوة للحيلولة دون ذلك.

هل فكَّرتَ مرَّةً، لمَّا كنتَ ولداً، أيَّ مَرَح يكون لك لو أُتيح للدُّمى التي تلعب بها أن تدبَّ فيها الحياة؟ حسناً، هَبْها قد صارت حيَّةً بالفعل. وتصوَّر أنَّ جنديّاً من قصدير تحوَّل إلى رجُلٍ صغير حقيقيّ. فلا بدَّ أن يشتمل ذلك على تحويل القصدير إلى جسد بشريّ. وافترض أنَّ جنديَّ القصدير لم يعجبه ذلك. فالجسد

البشريُّ لا يثير اهتمامه، إذ كلُّ ما يراه هو أنَّ القصدير قد فسد. فهو يحسب أنَّك تقتله، وسيبذل كلَّ ما في وسعه ليحول دون ذلك. إنَّه يرفض أن يصير إنساناً إذا أمكنه ذلك.

لستُ أدري ما كان ممكناً أن تفعله بجنديِّ القصدير ذاك. ولكنَّ ما فعله الله لأجلنا هو هذا: أنَّ ثانيَ أُقنوم في اللاهوت، أي الابن، صار هو نفسُه كائناً بشريّاً. فقد وُلِد في العالم إنساناً حقيقيّاً: إنساناً حقيقيّاً ذا قامةٍ معيَّنة، وشعرٍ من لونٍ محدَّد، متكلِّماً لغةً مخصوصة، ووزنُه مقدارٌ معيَّن من الكيلوغرامات. إنَّ الكائن الأزليَّ، العليمَ بكلِّ شيء وخالقَ الكون كلِّه، صار إنساناً بعد أن كان طفلاً، ومن قبلُ جنيناً في رحم امرأة. وإن شئتَ أن تدرك مغزى الأمر، ففكِّر كم يعجبك أن تصير نملةً أو أرنباً!

وقد كانت نتيجة ذلك أنْ صار لدينا الآن إنسانٌ واحد هو بالحقيقة كلُّ ما قُصِد للبشر جميعاً أن يكونوه: إنسانٌ واحد فيه استطاعت الحياة المخلوقة، المستمدَّةُ من أُمِّه، أن تستحيل بالكمال والتمام إلى الحياة المولودة. فالكائن البشريُّ الطبيعيُّ فيه اتَّحد كليّاً بالابن السماويّ. وهكذا، ففي حالةٍ واحدة بلغتِ البشريَّة غايتها، إن صحَّ التعبير، إذِ انتقلَت إلى قلب حياة المسيح. ولأنَّ الصعوبة كلَّها بالنسبة إلينا هي أنَّ الحياة الطبيعيَّة، بمعنىً ما، ينبغي أن «تُقتل»، فقدِ اختار سيرةً أرضية تنطوي على قتل الرغائب البشريَّة عند كلِّ منعطف: من فقرٍ، وسوء فهم من قبل أسرته الخاصَّة، وخيانة أحد أصدقائه المقرَّبين له، واستهزاءِ العسكر به ومعاملته بخشونة، وتعذيبٍ وإعدام. وبعد ذلك، فإنَّ الكائن البشريَّ فيه، بعد قتله هكذا وقتله كلَّ يوم بمعنىً ما، عاد حيّاً من جديد: لأنَّه كان متَّحداً بالابن الأزليّ. فالإنسان في المسيح قام من بين الأموات، وليس الله فقط. تلك هي القضيَّة كلُّها. فهذه أوَّلُ مرَّة رأينا إنساناً حقيقيّاً تماماً. إنَّ جنديَّ قصديرٍ واحداً، من قصديرٍ حقيقيٍّ مثله مثل الباقين، قد دبَّت فيه الحياة بملئها وبهائها الكاملَين.

إنَّما هنا بالطبع نصل إلى النقطة التي فيها ينهار إيضاحي المستعار من جنديِّ القصدير. ففي حالة الجنود الدُّمى أو التماثيل الحقيقيِّين، إذا انبعث واحدٌ منهم حيّاً، فمن البديهيِّ ألاَّ يُحدِث ذلك أيَّ فرقٍ بالنسبة إلى الآخرين. إنَّهم جميعاً منفصلون بعضهم عن بعض. ولكنَّ الخلائق البشريِّين ليسوا كذلك. فهم يبدون

منفصلين لأنّك تراهم يتنقّلون منفردين. إلاّ أنّنا أيضاً مصنوعون بحيث لا يمكننا أن نرى سوى اللحظة الحاضرة. ولو تسنّى لنا أن نرى الماضي، لبدا الأمر عندئذ مختلفاً بالطبع. فقد كان زمنٌ فيه كان كلُّ إنسان جزءاً من أُمّه، وكذلك أيضاً جزءاً من أبيه (في زمنٍ أبكرَ بعد)؛ وزمنٌ كان أبواه فيه جزءاً من أجداده. ولو قُدِّر لك أن ترى البشر منتشرين عبر الزمان، كما يراهم الله، لَما بدا المنظر شبيهاً بعددٍ غفير من الكائنات المنفصلة منتشرةً هنا وهناك. وإنّما كان سيبدو شبيهاً بكائنٍ واحدٍ نام، بل بالحريّ أشبه بشجرة معقّدة جدّاً. وسيظهر كلُّ فردٍ مرتبطاً بكلّ فردٍ آخر. وليس ذلك فقط، بل إنّ الأفراد ليسوا منفصلين بالحقيقة عن الله، كما أنّهم ليسوا منفصلين أحدُهم عن الآخر. فكلُّ رجل وامرأة وطفل في جميع أنحاء العالم يحسُّ ويتنفّس هذه اللحظة، فقط لأن الله، إن جاز التعبير، «يُبقيه حيّاً».

وعليه، فعندما يصير المسيح إنساناً، لا يكون ذلك بالحقيقة كما لو أُتيح لك أن تصير أنت جنديَّ قصدير معيَّناً. بل إنّ ذلك يكون كما لو أنّ شيئاً مؤثّراً دائماً قد حلَّ في الكتلة البشريّة بطريقة جديدة. ومن تلك النقطة ينتشر التأثير في كل البشريّة كلِّها. يبدأ عند نقطة محدَّدة بالتأثير في مُجمَل الكتلة البشريّة كلِّها. وسيُحدِث الأمر فرقاً بالنسبة إلى الناس الذين عاشوا قبل المسيح، وكذلك أيضاً بالنسبة إلى الناس الذين عاشوا بعده. كما أنّه سيُحدِث فرقاً بالنسبة إلى أولئك الذين لم يسمعوا بالمسيح قطّ. فذلك أشبه بأن تُسقِط في كأس ماء قطرةً واحدة من مادّةٍ تُعطي مذاقاً جديداً أو تُضفي لوناً جديداً على المُحتوى كلِّه. ولكنْ بالطبع يبقى كلُّ تشبيه من هذا القبيل ناقصاً من بعض الأوجه. ففي نهاية المطاف، ليس الله أحداً سوى ذاته، وما يفعله لا يُشبِه أيَّ شيء آخر. وأنت لا تكاد تتوقّع أن تكون الحال على غير هذا المنوال.

فما هو إذاً الفرق الذي أحدثه المسيح بالنسبة إلى الكتلة البشريّة بكاملها؟ هو هذا تماماً: أنّ مشروع صيرورة الإنسان ابناً لله، بتحوُّله من كيانٍ مخلوق إلى كيانٍ مولود، وانتقاله من الحياة البيولوجيّة الوقتيّة إلى الحياة «الروحيّة» الأبديّة، قد أُنجِز لنا. فالبشريّة «مُخلَّصة» فعلاً من حيث المبدأ، وعلينا نحن الأفرادَ أن نستفيد شخصيّاً من هذا الخلاص. ولكنّ العمل الشاقّ حقّاً، ذاك الذي لم يكن في وسعنا أن نعمله نحن أنفُسنا، قد أُكمِل لنا. فليس علينا أن نحاول الارتقاء إلى الحياة

الروحيَّة بمجهوداتنا الشخصيَّة، إذ إنَّ تلك الحياة قد نزلت فعلاً إلى وسط الجنس البشريّ. وإن نحنُ فقط فتحنا باب أنفسنا لذلك الإنسان الفرد الذي فيه كانت تلك الحياة حاضرة حضوراً كليّاً، والذي هو، رغم كونه الله، إنسانٌ حقيقيٌّ أيضاً، فإنَّه يفعل ذلك فينا ولنا. أتذكُر ما قلتُه عن «العدوى الصالحة»؟ إنَّ واحداً من بني جنسنا له هذه الحياة الجديدة، فإنِ التصقنا به نلتقطها منه.

طبعاً، يمكنك التعبير عن هذه الحقيقة بطُرقٍ شتَّى. فلك أن تقول إنَّ المسيح مات من أجل خطايانا. ولك أن تقول إنَّ الآب قد غفر لنا لأنَّ المسيح فعل لأجلنا ما كان ينبغي أن نفعله نحن وعجزنا عنه. ولك أن تقول إنَّنا مغسولون بدم الحمل. ولك أن تقول إنَّ المسيح قد قهر الموت. فهذه التعابير كلُّها صحيحة. وإن كان أيٌّ منها لا يروقك، فدعْه وامضِ بالصيغة التي تروقك. إنَّما مهما فعلت، فلا تبدأ تجادل الآخرين لأنَّهم يستخدمونَ صيغةً تختلف عن صيغتك.

٦

ملاحظتان

استبعاداً لسوء الفهم، أُضيفُ ها هُنا ملاحظتَين بشأن نقطتين أثيرتا في الفصل السابق.

(١) كتب إليَّ ناقدٌ نبيه يسألني: «إذا كان الله قد أراد أبناءً، لا «جنوداً دُمى»، فلماذا لم يلد أبناءً كثيرين منذ البداية، بدلاً من صنع جنودٍ دُمى ثُمَّ إحيائهم بمثل تلك العمليَّة الصَّعبة والمؤلمة؟» إنَّ جزءاً من الجواب عن هذا السؤال سهلٌ تقريباً؛ أمَّا الجزء الآخر فربَّما كان يفوق المعرفة البشريَّة كلّيّاً. والجزء السهل هو هذا: أنَّ عمليَّة التحوُّل من مخلوقٍ إلى ابنٍ لم يكن من شأنها أن تكون صعبة أو مؤلِمة لو أنَّ الجنس البشريَّ لم ينصرف بعيداً عن الله منذ قرونٍ كثيرة. وقد تمكَّن البشر من فعل ذلك لأنَّ الله قد أعطاهم حرِّيَّة الإرادة، وهو أعطاهم حرِّيَّة الإرادة لأنَّ عالماً يضمُّ مجرَّد ناسٍ آليِّين لا يمكنه أبداً أن يُحِبَّ، وتالياً أن يعرف السعادة أبداً. أمَّا الجزء الصَّعب فهوَ هذا. إنَّ جميع المسيحيِّين يُجمِعون على أنَّ هنالك ابناً لله وحيداً، بالمعنى الكامل والأصليّ. فإذا أصَررنا على السؤال: «ولكنْ، أمَا كان ممكناً أن يوجد أبناء كثيرون أصلاً؟» نجد أنفسنا خائضين غمار مياهٍ عميقة جدّاً. فهل يكون للكلمتين «كان ممكناً» أيُّ معنى على الإطلاق إذا استُخدمتا بالإشارة إلى الله؟ يمكنك أن تقول إنَّ شيئاً محدوداً معيَّناً «كان ممكناً» أن يكون مختلفاً عمَّا هو عليه لأنه كان يمكن أن يكون مختلفاً لو أنَّ شيئاً آخر كان مختلفاً؛ وذلك الشيء الآخر كان يمكن أن يكون مختلفاً لو أنَّ شيئاً ثالثاً كان مختلفاً، وهكذا دواليك. (فالحروف في هذه الصفحة كان يمكن أن تكونَ حمراء لو أنَّ الطبَّاع استعمل حبراً أحمر؛ وكان يمكنه أن يستعمل حبراً أحمر لو طُلب منه ذلك، وهكذا دواليك.) ولكن حين نكون في

معرض الحديث عن الله (أي عن الصخر الأساس، الحقّ الذي يستحيل إنقاصُه، والذي عليه تقوم الحقائق الأُخرى جميعاً)، يكون من السفسطة أن نسأل أكان ممكناً أن يكون الأمر مختلفاً عمَّا هو عليه. فهو ما هو، وانتهى الأمر! ولكنْ بمعزلٍ عن هذا، أجد صعوبةً في ذات فكرة ولادة الآب لأبناء كثيرين في الأزل. فلكي يكونوا كثيرين، ينبغي أن يكونوا على نحوٍ ما مختلفين بعضهم عن بعض. فإنَّ فلسَين مثلاً لهما شكلٌ واحد، فكيف يكونان اثنين؟ باحتلالهما مكانين مختلفين واحتوائهما ذرَّات مختلفة. بكلام آخر، كي نُفكِّر فيهما باعتبارهما مختلفين، كان ينبغي أن نُدخِل في الحسبان المكَانَ والمادَّة؛ بل كان علينا في الواقع أن نستحضر «الطبيعة» أو الكون المخلوق. وفي وسعي أن أفهم التميُّز بين الآب والابن بغير استحضار الزمان أو المادَّة، لأنَّ الواحد والد والآخر مولود أزلاً. فعلاقة الآب بالابن ليست مُماثِلةً تماماً لعلاقة الابن بالآب. ولكنْ إذا كان هنالك عدَّة أبناء، يكونون كلُّهم في علاقة بعضهم ببعض وبالآب بالطريقة نفسها. فكيف يكونون مختلفين بعضهم عن بعض؟ إنَّ المرء لا يلاحظ وجه الصعوبة في الحال طبعاً، إذ يحسب أنَّه يستطيع أن يكوِّن فكرة وجود عدَّة «أبناء». ولكن عندما أُفكِّر مليّاً، يتبيَّن لي أنَّ الفكرة بَدَت ممكنةً فقط لأنَّني تصوَّرتـهم بغموض أشخاصاً بشريِّين واقفين بعضهم بقرب بعض في مكانٍ ما. بكلماتٍ أُخـرى: مع أنِّي تظاهرتُ بأنَّني أفكِّر في شيءٍ ما موجودٍ قبل خَلقِ أيِّ عالَم، فقد كنتُ في الواقع أستحضر خلسةً صورة عالَم ما وأضع ذلك الشيء في داخله. حتَّى إذا توقَّفتُ عن القيام بذلك وبقيتُ أحاول أن أفكِّر في الآب والِداً لأبناءٍ كثيرين «قبل كلِّ الدهور»، يتبيَّن لي أنَّني لا أُفكِّر في أيِّ شيءٍ حقّاً. إذ إنَّ الفكرة تتلاشى لتغدو مجرَّد كلام. (هل خُلِقت الطبيعة، المكان والزمان والمادَّة، تحديداً بُغية جعل أيَّة كثرة ممكنة؟ أليس من طريقة أُخرى، على وجه الاحتمال، لإيجاد أرواحٍ خالدة كثيرة إلاَّ بصُنع خلائق طبيعيَّة كثيرة أوَّلاً، في عالَمٍ ما، ثُمَّ بإعطاءها طبيعةً روحية من بَعد؟ غير أنَّ هذا كلَّه بالطبع حزر وتخمين!)

(٢) إنَّ فكرة كون الجنس البشريِّ كلِّه، بمعنىً ما، كِياناً واحداً (كائناً عضويّاً ضخماً واحداً، كالشجرة) يجب ألاَّ تُخَلط بالفكرة القائلة بأنَّ الفروق الفرديَّة غير مهمَّة، أو بأنَّ البشر الحقيقيِّين، أمثالَ سعيد وجميل وسعاد، أقلُّ أهميَّة نوعاً ما

من الأشياء الجمعيَّة، مثل الفئات والأجناس وما إليها. ففي الحقيقة أنَّ هاتين الفكرتين متعارضتان ذلك أنَّ الأشياء التي هي أجزاءٌ لكائنٍ عُضويٍّ واحد قد تكون مختلفة بعضُها عن بعض كثيراً؛ أمَّا الأشياء التي ليست كذلك، فقد تكون متشابهة كثيراً. فإنَّ ستَّة فلوس مثلاً منفصلةٌ تماماً بعضُها عن بعض ومتشابهة جدّاً. إنَّما أنفي ورئتاي مختلفةٌ جدّاً، ولكنَّها حيَّةٌ فقط تماماً لأنَّها أجزاء من جسمي وتشاركه في حياته المشتركة. فالمسيحيَّة تفكِّر في البشر الأفراد ليس فقط باعتبارهم مجرَّد أعضاء في مجموعة أو بنودٍ في لائحة، بل بوصفهم أعضاءً في جسم: مختلفين بعضهم عن بعض ومُساهمين كلٌّ في ما لا يستطيعه أيُّ واحدٍ آخر. وعندما تجد نفسك محاولاً أن تجعل أولادك أو تلاميذك، أو حتَّى جيرانك، أشخاصاً مُتشابِهين لك تماماً، فتذكَّر أنَّ الله ربَّما لم يقصد لهم أن يكونوا كذلك. فأنت وهم أعضاء مختلِفة، مقصودٌ لها أن تؤدِّي وظائف متنوِّعة. وفي المقابل، حين تُغرى بألاَّ تهتمَّ بضيقات شخص سواك لأنَّها «ليست من شأنك»، فتذكَّر أنَّه وإن كان مختلفاً عنك فهو جزءٌ من الكائن العُضويِّ الواحد، شأنه شأنك. فإذا نسيت أنَّه ينتمي مثلك إلى الكائن الحيِّ عينه، تصير فَردانيّاً. وإذا نسيتَ أنَّه عضوٌ مختلف عنك، وأردتَ أن تُبدِّد الفروق وتجعل الناس جميعاً متشابهين، تصير دكتاتوريّاً. ولكنَّ المسيحيَّ الحقيقيَّ لا ينبغي أن يكون فردانيّاً ولا دكتاتوريّاً.

وأشعر برغبة قويَّة لأنْ أقول لك (كما أتوقَّع منك أن تشعر برغبةٍ قويَّة لأنْ تقول لي) أيُّ هذين الخطأين أسوأ. فذلك هو إبليس يتصدَّى لنا بدهاء. إذ إنَّه دائماً يبعث الضلالات إلى العالم اثنتين اثنتين، إحداهما مُعارِضة للأُخرى. وهو دائماً يشجِّعنا على أن نقضي كثيراً من الوقت ونحن نفكِّر أيُّهما أسوأ. أنت تدرك سبب ذلك طبعاً؟ إنَّه يركن إلى كرهك المفرط لإحدى الضلالتين كي يجتذبك تدريجيّاً إلى نقيضتها. ولكنْ لا ننخدعنَّ! فينبغي أن نُبقي أعيُننا شاخصةً إلى الهدف، ونمضي نحوه مباشرةً بين كلتا الضلالتين. وليس لنا بأيَّة واحدة منهما شأنٌ آخر سوى ذلك.

٧

لنتظاهر

هل لي أن أبدأ مرَّةً أُخرى بوضع صورتين، أو بالحريِّ قصَّتين، في أذهانكم؟ إحداهما هي القصَّة الذائعة الصيت «الحسناء والوحش». ولعلَّكم تذكرون أنَّ تلك الفتاة الجميلة اضطُرَّت، لسببٍ ما، أن تتزوَّج وحشاً. وإذ تزوَّجت به، قبلَته كما لو كان إنساناً. وعندئذٍ تحوَّل فعلاً إلى إنسان وسار كلُّ شيء حسناً، الأمرُ الذي أفرجها وأبهجها. أمَّا القصَّة الأُخرى فعن شخصٍ اضطُرَّ إلى أن يضع على وجهه قناعاً: قناعاً جعله يبدو أجملَ ممَّا كان في الواقع. وكان عليه أن يلبس القناع عدَّة سنين. ثمَّ لمَّا خلعه، تبيَّن له أنَّ وجهه صار على شاكلته. فإنَّه غدا أجملَ فعلاً الآن. وما بدا تنكُّراً تحوَّل فعلاً إلى واقع. وأعتقد أنَّ هاتين القصَّتين كلتيهما قد تساعدانني (بطريقةٍ خياليَّة طبعاً) على توضيح ما أودُّ قوله في هذا الفصل. فحتَّى الآن، ما برحتُ أُحاوِل وصف حقيقتين: ما هو الله وماذا فعل. أمَّا الآن فأُريد أن أتكلَّم عن الممارسة: ماذا نفعل تالياً؟ أيَّ فرقٍ تُحدِث هذه اللاهوتيَّاتُ كلُّها؟ ومن الممكن أن تبدأ بإحداث فرقٍ الليلة: فإذا كنتَ قد اهتممتَ كفايةً حتَّى قرأتَ لحدِّ الآن، فربَّما أنت معنيٌّ كفايةً بأن نتأمَّل قليلاً في موضوع الصلاة: ومهما كان ما تقوله في صلاتك، فإنَّك على الأرجح ستتلو «الصلاة الربَّانيَّة».

إنَّ أوَّل كلمة في تلك الصلاة هي «أبانا». فهل تعي الآن ما تعنيه هذه الكلمة؟ إنَّها تعني بمنتهى الصراحة أنَّك تضع نفسك في موضع ابن الله. وبتعبير أبسط، أنت تلبس المسيح. وإن شئتَ فقلْ إنَّك تتظاهر: لأنَّك بالطبع لحظةَ تدرك ما تعنيه الكلمة، تفهم أنَّك لستَ ابناً لله. فأنت لست كائناً مشابهاً لابن الله الوحيد الذي إرادتُه واهتماماته متوافقة تماماً مع إرادة أبيه واهتماماته، بل أنت حزمة من

المخاوف الأنانيَّة والآمال والمطامع وضروب الحسد والغيرة والغرور، محكومٌ عليها بالموت كليّاً. حتَّى إنَّ ظهورك هكذا بمظهر المسيح لَهو ضربٌ من ضروب الوقاحة الفاضحة. ولكنَّ الأمر العجيب هو أنَّه هو أمرنا بذلك.

فلماذا؟ وأيُّ خيرٍ في التظاهر بأنَّك ما لستَ إيّاه؟ حسناً، حتَّى على الصعيد البشريّ، ثمَّة نوعانِ من التظاهر كما تعلم. فهنالك نوعٌ رديء، حيث يكون التظاهر بديلاً من انعدام الشيء الحقيقيّ، كما يحصل حينما يتظاهر إنسان بأنَّه سيُساعِدك، بدل أن يساعدك فعلاً. ولكنَّ هنالك أيضاً نوعاً جيِّداً، حيث يؤدِّي التظاهر إلى الشيءِ الحقيقيّ. فحينما لا تكون شاعراً بالمودَّة على نحوٍ مخصوص، ولكنَّك تعلم أنَّه ينبغي لك أن تكون كذلك، فأفضل شيءٍ يمكنكَ أن تفعله في أغلب الأحيان هو أن «تلبس لباس» شخصٍ ودود وتتصرَّف كما لو كنت شخصاً ألطف ممَّا أنت في الواقع. وما إن تمضي بضعُ دقائق، كما لاحظنا جميعاً، حتَّى تُلفي نفسك بالحقيقة شاعراً بأنكَّ ألطف ممَّا أنت فعلاً. وما أكثر ما تكون الطريقة الوحيدة لاكتساب مزيَّةٍ في الواقع هي أن تبدأ بالتصرُّف كما لو كانت لديك فعلاً! لهذا السبب تُعتبَر ألعاب الأولاد مهمَّة جدّاً. فهم يتظاهرون دائماً بأنَّهم راشدون، كما حين يلعبون لعبة العسكر أو لعبة أصحاب الدكاكين. ولكنَّهم كلَّ حين يُمرِّنون عضلاتهم ويشحذون ذكاءهم، بحيث يساعدهم تظاهرُهم بأنَّهم راشدون على أن ينموا نموّاً جدّيّاً.

والآن، حالَما تُدرِك ما تُعبِّر عنه بقولك: «هأنذا، لابسٌ المسيح» يُرجَّح جدّاً أن ترى في الحال طريقةً مّا بها يمكن أن يُجعل التظاهر أقلَّ تظاهُراً وأكثر واقعيَّةً. فسوف تجد بضعة أُمور جائلةً في ذهنك ما كانت لتجول لو كنتَ حقّاً ابناً لله. حسناً، أوقِفها، وإلاَّ فستجد أنَّه بدلاً من رفع صلاتك ينبغي لك أن تجلس إلى المكتب وتخطَّ رسالة، أو تساعد زوجتك في غسل الأواني.

أتدري ما يجري؟ إنَّ المسيح نفسَه، ابنَ الله الذي هو إنسانٌ (مثلك تماماً) كما أنَّه الله (مثل أبيه تماماً) هو بالفعل إلى جانبك وقد بدأ في تلك اللحظة يحوِّل تظاهُرك إلى حقيقة واقعة. وليست هذه مجرَّد طريقة خياليَّة للقول إنَّ ضميرك يقول لك ما ينبغي أن تفعله. فإن سألت ضميرك، تحصل على نتيجة معيَّنة؛ وإن تذكَّرتَ أنَّك لابس المسيح، تحصل على نتيجة مختلفة. فهنالك أُمور كثيرة ربَّما لا يدعوها

ضميرُك بشكل واضح ومحدَّد خاطئة (ولا سيّما أُمورٌ في ذهنك)، ولكنَّك ستدرك في الحال أنَّك لا تقدر أن تستمرَّ في فعلها إن كنتَ تحاول جادّاً أن تتشبَّه بالمسيح، إذ لا تعود تُفكِّر بعدُ فقط بشأن الصواب والخطأ، بل تحاول أن تلتقط العدوى الصالحة من شخصٍ مجيد. وذلك أشبه برسم صورةٍ شخصيَّة منه بإطاعة مجموعة قوانين. وأعجبُ شيءٍ أنَّه وإن كان ذلك من ناحيةٍ أصعبَ بكثير من إطاعة القوانيـن فهو، من ناحيـة أُخرى، أسهل منها بكثير.

إنَّ ابن الله الحقيقيَّ بجانبك. وهو يبدأ بتحويلك إلى المعدن الذي هو منه تماماً. إنَّه يبدأ، إن جاز التعبير، بأن «يحقن» في داخلك نوع حياته وفكره، أي تلك «الزُويِي» الخاصَّة به؛ يبدأ بتحويل جنديِّ القصدير إلى إنسان حيٍّ حقّاً. أمَّا جزْؤك الذي لا تروقه هذه العمليَّة فهو الجزء الذي ما يزال من قصدير.

قد يشعرِ بعضُ منكم أنَّ هذا يختلف كثيراً عن اختبارهم. فلعلَّك تقول: «لم أُحِسَّ قطُّ بحصولي على المساعدة من قِبَل مسيح غير مرئيّ، ولكنِّي غالباً ما تلقَّيتُ المساعدة من خلائق بشريِّين آخرين.» فذلك أشبه بما قالته إحدى النساء في أثناء الحرب العالميَّة الأولى من أنَّها غير قلِقة بشأن حصولِ نقصٍ في الخبز لأنَّها هي وعائلتها يأكلون الخبز المحمَّص دائماً. ولكنْ حيث ينقطع الخبزُ فسينقطع الخبز المحمَّص أيضاً. ولولا معونة المسيح، ما كانت أيُّ معونة من البشر الآخرين. فهو يتعامل معنا بطُرقٍ شتَّى، وليس فقط من خلال ما نحسبه «حياتنا الدينيَّة». إنَّه يعمل عبرَ الطبيعة، وعبرَ أجسادنا، وعبرَ الكُتب، وأحياناً عبر اختباراتٍ تبدو (في حينها) مضادَّةً للمسيحيَّة. فعندما يحدث أنَّ شاباً اعتاد ارتياد الكنيسة بطريقة روتينيَّة يدرك أنَّه لا يؤمن بالمسيحيَّة وينقطع عن حضور الكنيسة (على أن يفعل ذلك من أجل الصدق والصراحة لا لإغاظة والدَيه فحسب) فقد يكون روح المسيح أقربَ إليه ممَّا كان قبلاً في أيِّ يوم. ولكنَّ المسيح يتعامل معنا بعضنا من خلال بعض أكثر من أية طريقة أخرى.

فالناس مرايا أو «ناقلون» للمسيح إلى غيرهم من الناس. وأحياناً يكونون نَقَلَةً بغير وعيٍ منهم. وهذه «العدوى الصالحة» يمكن أن ينقلها أشخاصٌ ليست لديهم في ذواتهم. فإنَّ أشخاصاً لم يكونوا مسيحيِّين بالحقّ ساعدوني على الإقبال إلى المسيحيَّة. ولكنَّ أولئك الذين يعرفون المسيح هم عادةً من يحملونه إلى الآخرين.

من هنا الأهميَّةُ البالغة للكنيسة، كامل جماعة المسيحيِّين، إذ يُظهِرُهُ بعضُهم لبعض. ولك أن تقول إنَّه حين يتَّبع المسيحَ مسيحيّان معاً لا يحصل فقط مقدارٌ من المسيحيَّة يكون ضِعفَي ما يحصل حين يتَّبعانه منفردَين، بل بالحريِّ ستَّة عشر ضعفاً.

إنَّما لا تنسَ هذا: أنَّه من الطبيعيِّ أوَّلاً أن يتناول الطفل حليب أُمِّه من دون أن يعرفها. وطبيعيٌّ بالمثل أن نرى نحن الإنسان الذي يساعدنا من دون أن نرى المسيح وراءه. إنَّما لا ينبغي أن نظلَّ أطفالاً. فعلينا أن نتقدَّم لنُميِّز المُعطيَ الحقيقيَّ. ومن الجنون ألاَّ نفعل هذا، لأنَّنا إن لم نفعله، نكون متَّكلين على خلائق بشريِّين؛ الأمر الذي سيخذلنا حتماً. فأفضل البشر سيرتكبون أخطاءً؛ وجميعهم سوف يموتون. وفي حين ينبغي لنا أن نكون شاكرين لجميع الذين ساعدونا، إذ ينبغي أن نكرمهم ونحبَّهم، يجب عليك فعلاً ألاَّ تُعلِّق كامل ثقتك أبداً بأيِّ كائن بشريّ، حتَّى لو كان الأفضل والأحكم في الدُّنيا كلِّها. فهنالك كثير من الأشياء الحسنة التي يمكنك أن تصنعها بالرمل، ولكنْ لا تحاولنَّ أن تبنيَ به بيتاً.

والآن يمكننا أن نبتدئ نرى عمَّا يتكلَّم كتابُ العهد الجديد دائماً. فهو يتكلَّم عن كون المسيحيِّين «مولودين ثانيةً»، وعن كونهم «لابسين المسيح»، وعن «تصوُّر المسيح فيهم»، وعن كون «فكر المسيح فيهم».

انزعْ من رأسك حالاً الفكرة القائلة بأن هذه التعابير ليست سوى طُرق خياليَّة للقول إنَّ من واجب المسيحيِّين أن يقرأوا ما قاله المسيح وأن يحاولوا تنفيذه، مثلما قد يقرأ امرؤ ما قاله أفلاطون أو ماركس ويحاول تطبيقه. فهي تعني شيئاً أكثر من ذلك بكثير. إنَّها تعني أنَّ شخصاً حقيقيّاً هو المسيح، في المكان والزمان الحاليَّين، في ذلك المُخدع الذي فيه ترفع صلاتك، يعمل أعمالَه لك وفيك. وليست المسألة أنَّ إنساناً صالحاً مات منذ ألفَي سنة وكفى. إنَّها مسألةُ إنسانٍ حيّ، ما زال إنساناً بمقدار كونك إنساناً وما زال إلهاً بمقدار ما كان لمَّا خلق الكون، يتقدَّم فعلاً ويتداخل في نفسك ذاتها، مُميتاً الذات الطبيعيَّة القديمة فيك، ومستبدلاً بها ذاتاً من نوع ذاته؛ في البداية، لحظاتٍ فقط، وبعدئذٍ فتراتٍ أطول؛ وأخيراً، إذا سار كلُّ شيءٍ حسناً، يحوِّلك بصورة دائمة إلى كائنٍ من نوعٍ مختلف، إلى مسيح صغير جديد، كائنٍ بطريقته الصغيرة الخاصَّة لهُ نوعُ حياة الله تماماً، وله نصيبٌ في قدرته وفرحه ومعرفته

وأبديَّته. ثمَّ إنَّنا سريعاً نكتشف اكتشافَين آخرين.

(١) نبدأ نُلاحِظ، فضلاً عن أفعالنا الخاطئة الخاصَّة، طبيعتنا الخاطئة؛ إذ نبدأ نتنبَّه ليس فقط إلى ما نفعله، بل إلى ما نحن عليه. قد يبدو هذا الأمر صعباً بالأحرى، ولذلك سأحاول أن أوضحه من حياتي الخاصَّة. فعندما أصِل إلى صلاتي المسائيَّة، وأُحاول حسبان خطايا يومي، أجد في تسع من عشر مرَّات أنَّ أوضحها خطيَّةٌ ما بحقِّ المحبَّة: فقد عبستُ أو خاشنتُ أو هزَئتُ أو زجرتُ أو جافَيت. وإذا بالعُذر الذي يتبادر إلى ذهني حالاً أنَّ الاستفزاز كان مفاجئاً وغير متوقَّع، إذ أُخِذتُ على غفلةٍ منِّي، ولم يُتِح لي الوقت أن أتمالك أو أتماسك. والآن، قد يكون ذلك ظرفاً مُخفِّفاً في ما يتعلَّق بتلك الأفعال المخصوصة: إذ كان من شأنها أن تكون، بصورة بديهيَّة، أسوأ لو كانت متعمَّدة أو مقصودة قصداً. هذا من ناحية؛ ومن الناحية الأُخرى فإنَّ ما يفعله الإنسان حين يؤخذ على حين غرَّة لَهو يقيناً أفضل دليل على أيِّ نوع من الناس هو. أوليس ما يطلع فوراً قبل أن يُتاح للمرء وضعُ قناع هو الحقيقة؟ فإذا كان في قبوٍ فئران، يُرجَّح جدّاً أن تراها إذا دخلْتَ فجأةً تماماً. ولكنَّ الفُجائيَّة لا تُوجِد الفئران، بل إنَّما تحول دون اختبائها فقط. على هذا المنوال، لا تجعلني فُجائيَّة الاستفزاز إنساناً سيِّئ المزاج، بل إنَّما تُبيِّن أيَّ إنسان سيِّئُ الطباع أنا. فالفئران موجودة دائماً في القبو، ولكنْ إذا دخلتَ صائحاً وضاجّاً فإنَّها تختبئ قبل إشعالك الضوء. والبادي أنَّ فئران الغيظ والحقد قابعةٌ دائماً في قبوِ نفسي. وهذا القبو بعيدٌ عن متناول إرادتي الواعية. وفي وسعي إلى حدٍّ ما أن أُسيطِر على أفعالي، إنَّما ليس سيطرةً مباشِرة على مزاجي. وإذا كان ما نحن عليه (كما سبق أن قلتُ) أهمَّ ممَّا نفعله حقّاً، وإذا كان ما نفعله يهمُّ بالحقيقة كدليل على ما نحن عليه، فيصحُّ بالضرورة أنَّ التغيير الذي أحتاج إلى حصوله فيَّ أمسَّ احتياج هو تغيير لا تستطيع جهودي الاختياريَّة المباشرة أن تُحدِثه. وينطبق هذا على أفعالي الصالحة أيضاً. فكم واحداً منها قمتُ به بدافع سليم؟ وكم واحداً فعلته خوفاً من الرأي العامّ أو رغبةً بالتباهي؟ وكم واحداً بدافع نوع من العناد أو الإحساس بالتفوُّق كان يُمكن، في ظروف مختلفة، أن يؤدِّي على السواء إلى فعلٍ طالح جدّاً؟ غير أنَّني لا أستطيع، بالجهد الخُلقيِّ المباشر، أن أُزوِّد نفسي بدوافع جديدةً.

فبعد خطواتنا القليلة الأولى في الحياة المسيحيَّة، نُدرِك أنَّ كلَّ ما ينبغي حقّاً أن

يجريَ في نفوسنا لا يمكن أن يُجريَه إلاّ الله وحده. وهذا يوصلنا إلى أمرٍ في كلامي طالما كان مُضلِّلاً جداً حتَّى الآن.

(٢) ما برحتُ أتكلَّم كما لو كُنَّا نحن مَن يقوم بكلِّ شيء. إنَّما الله طبعاً هو من يفعل كلَّ شيء. أمَّا نحن، فأقصى ما نستطيعه هو أن نسمح بحدوث ذلك لنا. فبمعنىً ما، يمكنك أيضاً أن تقول إنَّ الله هو مَن يقوم بالتظاهُر. ذلك أنَّ الله الثالوثي الأقانيم، إن جاز التعبير، يرى أمامه بالحقيقة «حيواناً» بشريّاً أنانيّاً جَشِعاً مُتذمِّراً عاصياً. غير أنَّه تعالى يقول: «لنتظاهرْ بأنَّ هذا ليس مجرَّد مخلوق، بل هو ابنُنا. فهو مثل المسيح بقدْر ما هو إنسان، لأنَّ المسيح صار إنساناً. ولنتظاهْر أيضاً بأنَّه مثل المسيح في الروح. ولنعاملْه كما لو أنَّه كان ما ليس هو في الواقع. لنتظاهرْ بُغية أن نجعل التظاهُر حقيقة.» ذلك أنَّ الله ينظر إليك كما لو كنتَ مسيحاً صغيراً؛ والمسيح يقف بجانبك لكي يحوِّلك إلى شخص كهذا. وأحسب أنَّ هذه الفكرة بشأن نوع من التظاهُر الإلهيّ تبدو بالحريِّ غريبةً أوّل الأمر. ولكنْ، أهي غريبة حقّاً؟ أليس بهذه الطريقة يرفع الأعلى الأدنى دائماً؟ فالأُمّ تُعلِّم طفلها التكلُّم بأن تتكلَّم إليه كما لو كان يفهم، قبل زمنٍ طويلٍ من مباشرته الفهمَ حقّاً. ونحن نعامل حيواناتنا الأليفة كما لو كانت «عاقلةً تقريباً»؛ ولذلك تصير بالحقيقة كأنَّها «عاقلة تقريباً» في نهاية المطاف.

٨

أصعبة المسيحيّة أم سهلة؟

عكفنا في الفصل السابق على التأمُّل في الفكرة المسيحيَّة التي تخصُّ «لبْس المؤمن للمسيح»، أو أوّلاً «لبْسه لباس ابن الله» حتّى يُتاح له أخيراً أن يصير ابناً حقيقيّاً لله. وما أُريد أن أُوضحه هو أنَّ ذلك ليس واحداً من جملة أعمالٍ كثيرة ينبغي للمسيحيِّ أن يقوم بها، كما أنَّه ليس نوعاً من التمرين الخاصّ لفئة متقدِّمة. إنَّه المسيحيَّةُ بكاملها. فالمسيحيَّة لا تقدِّم أيَّ شيءٍ سوى هذا. وأودُّ أن أُبيِّن كيف تختلف المسيحيَّة عن الأفكار المألوفة بشأن «الأخلاق» و«كون المرء صالحاً».

وهذه هي الفكرة المألوفة التي لدينا جميعاً قبل أن نصير مسيحيِّين بالحقّ. فنحن نتَّخذ نقطة انطلاقٍ لنا نفسنا العاديَّة بمختلف رغباتها واهتماماتها. ومن ثَمَّ نقرُّ بأنَّ شيئاً آخر (سمِّه «الأخلاق» أو «التصرُّف اللائق» أو «مصلحة المجتمع») له مطالبُ من هذه النفس تتدخَّل في رغباتها الخاصَّة. وما نعنيه «بكون المرء صالحاً» هو الإذعان لهذه المطالب. إذ يتبيَّن أنَّ بعضاً من الأُمور التي ترغب النفس العاديَّة أن تفعلها هي ما ندعوها «خاطئة»، ولذلك ينبغي أن نتخلّى عنها؛ في حين يتبيَّن أنَّ أُموراً أُخرى لا ترغب النفس في فعلها هي ما ندعوها «صائبة»، ولذلك ينبغي أن نقوم بها. غير أنَّنا نأمل دائماً أنَّه بعد تلبية جميع المطالب ستبقى لدى النفس الطبيعيَّة المسكينة فرصةٌ ما ووقتٌ ما للمضيِّ قدماً بحياتها الخاصَّة والقيام بما يروقها. وبالحقيقة أنَّنا نشبه كثيراً إنساناً صادقاً يؤدِّي ضرائبه. فهو يؤدِّيها حتّى آخر فلس، إلاّ أنَّه يرجو فعلاً أن يبقى لديه ما يكفيه ليعيش به. وذلك لأنَّنا ما نزال متَّخذين نفسنا الطبيعيَّة نقطة انطلاقٍ لنا.

وما دمنا نفكِّر بهذه الطريقة، يُرجَّح أن يحدث أمرٌ أو آخر من اثنين. فإمَّا نتخلّى

عن السعي لأنْ نكون صالحين؛ وإمَّا نغدو غير سعداء للغاية. فاعلمْ يقيناً أنّه إذا كنت فعلاً ستحاول أن تلبِّي جميع المطالب المتوخَّاة من النفس الطبيعيَّة فلن يبقى لها ما يكفيها لتعيش به. فكلَّما مضيتَ قُدماً في إطاعة ضميرك، زادت مطالب ضميرك منك. وهكذا، فإنَّ نفسك الطبيعيَّة، إذ تُجوَّع وتُعوَّق وتضطرب عند كلِّ منعطف، يزداد غضبُها أكثر فأكثر. وفي النهاية، فإمَّا أن تتخلَّى عنِ السعي لأنْ تكون صالحاً، وإمَّا أن تغدو واحداً من أولئك الذين فيما يقولون «عِش لأجل الآخرين» إنَّما بطريقة تتميَّز بعدم الرضى وبالتذمُّر يتساءلون دائماً لماذا لا يلاحظ الآخرون ذلك أكثر، جاعلاً ذاتك شهيداً كلَّ حين. وما إن تغدو كذلك حتَّى تصير لأيِّ شخص مُضطرٍّ لأن يعيش معك مصيبةً أسوأَ ممَّا كان ممكناً أن تكون لو بقيتَ أنانيّاً على نحوٍ صريح.

إنَّما الطريق المسيحيُّ مختلف، فهو أصعب وأسهل. فالمسيح يقول: «أعطِني كلَّ شيء. أنا لا أُريد هذا المقدار من وقتك، وذاك المقدار من مالك، وذلك المقدار من عملك، بل أُريدك أنت. فأنا لم آتِ لأُعذِّب نفسك الطبيعيَّة، بل لأُميتها. وما من حلولٍ وسط تنفع البتَّة. فلستُ أُريد أن أقطع غصناً من هنا وغصناً من هناك، بل أُريد قطع الشجرة كلِّها. لا أُريد أن أثقب الضرس، ولا أن أُلَبِّسه، ولا أن أُسكِّن ألمه، بل أُريد أن أخلعه. سلِّمني نفسك الطبيعيَّة بكاملها، جميعَ الرغبات التي تحسبها غير بريئة وتلك التي تحسبها شرِّيرة، سلِّمني العُدَّة كلَّها. فأنا سأُعطيك نفساً جديدة عوضاً عنها. بالحقيقة، سأُعطيك نفسي: فإنَّ إرادتي الخاصَّة ستكون لك.»

وهذا أصعب وأسهل معاً ممَّا نحن جميعاً ساعون إلى فعله. وأغلب ظنِّي أنَّك قد لاحظتَ أنَّ المسيح نفسه أحياناً وصف الطريق المسيحيَّ بأنَّه صعب جدّاً، وأحياناً بأنَّه سهل جدّاً. فهو يقول: «احمل صليبك!» بعبارةٍ أُخرى، سيكون ذلك أشبه بأن تُضرَب حتَّى الموت في معسكر اعتقال. ثمَّ لا يلبث أن يقول: «نيري هيِّن وحِملي خفيف.» وهو يعني كِلا الأمرين. وفي وسع المرء أن يتبيَّن تماماً لماذا كِلا الأمرين صحيحان.

من شأن المعلِّمين أن يقولوا لك إنَّ أكسل تلميذ في الصفّ هو مَن يعمل عملاً شاقّاً في نهاية المطاف. وإليك ما يعنُونه. إذا أعطيت تلميذين مسألة هندسيَّة، مثلاً،

كي يحلاَّها، فإنَّ التلميذ المستعدَّ لتحمُّل العناء سيحاول أن يفهمها. أمَّا الكسول فسيحاول أن يحفظها عن ظهر قلب، لأنَّ ذلك، في الوقت الراهن، يتطلَّب جهداً أقلّ. ولكنْ بعد ستَّة أشهر، حين يكونان بصدد الاستعداد للامتحان النهائيّ، يقضي الكسلان ساعاتٍ وساعات من الكدح الشاقّ في أُمور يفهمها التلميذ الآخر، بل يستمتع بها فعلاً، في بضع دقائق. وعليه، فالكسل يعني مزيداً من العمل في نهاية المطاف. أو انظرْ إلى الأمر على هذا النحو: في معركةٍ ما، او عند تسلُّق الجبال، غالباً ما يكون أمرٌ واحدٌ يستلزم القيام به كثيراً من العزم والإقدام، ولكنَّه في نهاية المطاف أسلَمُ ما ينبغي القيام به. فإذا أحجمتَ عن ذلك الأمر فستجد نفسك، بعد عدَّة ساعات، وسط خطر أسوأ بكثير. كما أنَّ التصرُّف الجبان هو أيضاً أخطر الأُمور جميعاً.

فالحال هنا على هذا المنوال. ذلك أنَّ الأمر الرهيب، الأمر الذي يكاد أن يكون مستحيلاً، هو ان تُسلِّم المسيح نفسك بكاملها، بجميع آمالك ومخاوفك. ولكنَّ هذا الأمر هو أسهل بكثير ممَّا نحاول جميعاً أن نفعله بدلاً من ذلك. فإنَّ ما نحاول أن نفعله هو أن نبقى ما ندعوه «أنفسنا»، وأن نُبقيَ السعادة الشخصيَّة هدفنا الأعظم في الحياة، وأن نكون رغم ذلك «صالحين» في الوقت عينه. إنَّنا جميعاً نحاول أن ندع فكرنا وقلبنا يسلكان سبيلهما الخاصّ (مركِّزَين على المال أو المطامح)، ورُغم ذلك نرجو أن نتصرَّف باستقامة وعفَّة واتِّضاع. وذلك بعينه هو ما نبَّهنا المسيح إلى عدم جواز القيام به. فكما قال، لا يمكن أن يُنتِج الشوك تيناً. فإذا كنتُ حقلاً ليس فيه إلاَّ بزور العشب، يستحيل عليَّ أن أُنتج قمحاً. ولئن أمكن أن يُبقي الجزُّ العشبَ قصيراً، فسأظلُّ مع ذلك أُنتج عشباً، لا قمحاً. فإذا أردتُ أن أُنتج قمحاً، يجب أن يحصل التغير على مستوى أعمق من السطح الظاهر. إذ يجب أن أُفلَح، ويُعادَ زرعي.

لذلك السبب تأتي المشكلة الحقيقيَّة في الحياة المسيحيَّة حيث لا يبحث عنها الناس عادةً. فهي تأتيك لحظةَ تستيقظُ كلَّ صباح. فإنَّ جميع أشواقك وآمالك لذلك اليوم تندفع عليك كحيوانات مفترسة. ويكون أوَّل عمل تقوم به كلَّ صباح أن تبعدها عنك بعيداً فحسْب، بإصغائك إلى ذلك الصوت الآخر، وتبنِّيك ذلك الرأيَ الآخر، وسماحك لتلك الحياة الأُخرى، الأرحب والأقوى والأهدأ، بأن

تتدفّق عليك وتفيض فيك. وهكذا دواليك، اليومَ كلَّه: الانكفاء عن جميع اهتماماتك واضطراباتك الطبيعيَّة، والاختباء من وجه الريح.

سنتمكّن من القيام بذلك للحظاتٍ في بادئ الأمر. ولكنْ من تلك اللحظات ستكون الحياة الجديدُ نوعُها آخذةً في الانتشار إلى جميع أجزاء الكيان، لأنّنا آنذاك نكون سامحين لله بأن يعمل عمله في الجزء اللازم منّا. ذلك هو الفرق بين الطلاء الذي يوضع فقط على السطح الخارجيّ والصبغة أو التلوينة التي تتخلّل المادّة كلَّها. فالمسيح لم يكن ينطق هذراً غامضاً خياليّاً. إذ إنّه لمّا قال: «كونوا كاملين،» كان يعني ما يقول؛ كان يعني أنَّ علينا أن نخضع للعلاج بكامله. إنّه أمرٌ صعب، ولكنَّ ذلك النَّوع من التسوية التي نتوق إليها كلّنا توقاً شديداً أصعب منه، بل إنّه في الحقيقة مستحيل. فقد يكون صعباً على البيضة أن تنقلب طائراً، ولكنْ سيكون أصعبَ بكثير جدّاً أن تتعلّم البيضة الطيران وهي ما تزال بيضة. ونحن الآن نُشبه البيض. وليس في وسعك أن تظلّ إلى ما لا نهاية بيضةً عاديَّة حسنة. فينبغي أن نفقس، وإلاّ نفسد.

والآن، هل لي أن اعود إلى ما قلتُه سابقاً؟ هذه هي المسيحيَّة كلُّها. وليس من شيءٍ آخر. ويسهل جدّاً أن نتشوَّش بشأن ذلك. إذ يسهل أن نحسب أنَّ الكنيسة تملك كثيراً من الأمور المختلفة: كالتربية والتعليم والمباني والإرساليّات وإقامة الخدمات. كما يسهل كذلك تماماً أن نحسب أنَّ الدولة تملك كثيراً من الأمور المختلفة: كالجيش والسياسة والاقتصاد وما شابه. غير أنَّ الأُمور، بطريقةٍ ما، أبسط من ذلك بكثير. فالدولة إنّما هي موجودة كي تُعزّز وتصون السعادة العاديَّة للكائنات البشريَّة في هذه الحياة. رجلٌ وزوجته يتسامران قربَ موقد، أو صديقان يلعبان لعبة سهام في نادٍ، أو رجلٌ يقرأ كتاباً في مخدعه أو ينقب في بستانه: ذلك هو ما وُجِدت لأجله الدولة. وجميع القوانين والبرلمانات والجيوش والمحاكم والشرطة ونُظم الاقتصاد وغيرها، ما لم تكن عاملةً على مضاعفة مثل تلك اللحظات وإطالتها وحمايتها، ليست سوى مضيعةٍ للوقت فحسْب. وعلى هذا الغرار، ليس الغرض من وجود الكنسية سوى اجتذاب الناس إلى المسيح، لجعلهم مُسحاءَ صغاراً. فإن لم تكن الكنيسة قائمةً بهذا، فإنَّ جميع المباني والكاتدرائيَّات، ورجال الدين والإرساليّات والعظات، بلِ الكتاب المقدَّس أيضاً، ليست سوى مضيعةٍ

للوقت فحسب. إذا لم يصر الله إنساناً إلا ليصير الناسُ مسحاءَ صِغاراً. حتَّى إنَّه من المشكوك فيه، كما تعلم، أنَّ الكون كُلَّه قد خُلق لأيِّ غرض آخر. فقد جاء في الكتاب المقدَّس أنَّ الكون كُلَّه صُنع لأجل المسيح، وأنَّ كلَّ شيءٍ سوف يُجمَع معاً في المسيح. ولستُ أعتقد أنَّ أيَّ واحدٍ منّا يستطيع أن يفهم كيف سيحصل هذا على صعيد الكون كلِّه. فلسنا نعلم ماذا يعيش (إن كان يعيش شيء) في أجزاء الكون تلك التي تبعد عن هذه الأرض ملايين الأميال. بل على هذه الأرض بالذات، لا نعلم كيف سينطبق ذلك على الأشياء الأُخرى خلاف البشر. وبعد، أفليس ذلك هو ما ينبغي أن نتوقَّعه؟ ونحن قد أُطلِعنا على المشروع فقط بمقدار ما يتعلَّق بنا نحن البشر.

يروقني أحياناً أن أتصوَّر بأنَّ في إمكاني فقط أن أعيَ كيف يمكن أن ينطبق ذلك على الأشياء الأُخرى. فأعتقد أنَّني أستطيع أن أعيَ كيف تُجتَذب الحيوانات العُليا إلى مثل حالة الإنسان عندما يحبُّها ويجعلها (كما هو فاعل غالباً) إنسانيَّة تقريباً أكثر بكثير جدّاً ممّا قد تكون لولا ذاك. حتَّى إنَّني أستطيع أن ألمح طريقةً بها تُجتذب الأشياء الجامدة والنبات إلى قلب عالَم الإنسان فيما هو يدرسها ويستعملها ويقدِّرها. وإذا كان في العوالم الأُخرى مخلوقاتٌ عاقلة، فلعلَّها تفعل ذلك عينه بعوالمها. فقد يحصل أنَّه عند اتِّحاد المخلوقات العاقلة بالمسيح ربَّما، بتلك الطريقة، تصطحب جميع الأشياء الأُخرى لتَّتحد به أيضاً. غير أنَّني لا أعلم حقيقة الأمر، بل هذا مجرَّد تخمين.

أمَّا ما أُطلِعنا عليه حقّاً فهو كيف يتأتّى لنا نحن البشر أن نُجتذَب إلى الاتِّحاد بالمسيح، أن نصير جزءاً من تلك الهديَّة العجيبة التي يريد أميرُ الكون الفتيُّ أن يقدِّمها إلى أبيه، تلك الهديَّة التي ما هي إلاّ هو ذاته، وبالتالي نحن فيه. هذا هو الغرض الوحيد الذي صُنعنا لأجله. وفي الكتاب المقدَّس تلميحاتٌ مؤثِّرة وعجيبة إلى أنَّه عند ضمِّنا إلى المسيح كلِّيّاً ستبدأ أشياءُ عظيمة وكثيرة أُخرى في الطبيعة تُسوَّى وتُصحَّح. إنَّ الكابوس سيزول، والفجر المجيد سيبزغ.

٩

حسابَ النفقة

تبيَّن لي أنَّ كثيرين قد أزعجهم ما قلتُه في الفصل السابق عن قول ربِّنا يسوع: «كونوا كاملين.» ويبدو أنَّ بعضهم حسبوا أنَّ ذلك يعني: «ما لم تكونوا كاملين، فلن أُساعدكم»؛ وبما أنَّه لا يمكننا أن نكون كاملين، فإذا كان المسيح قد قصد ذلك، يكون وضعُنا عندئذٍ معدوم الرجاء. غير أنَّني لا أعتقد أنَّ المسيح قصد ذلك، بل أعتقد أنَّه قصد هذا: «المساعدة الوحيدة التي سأُقدِّمها لكم، هي مساعدتكم على أن تكونوا كاملين. ربَّما تطلبون شيئاً أقلّ، غير أنِّي لن أُعطيكم أقلَّ من هذا.»

وإليك الشرح. لمَّا كنتُ ولداً، كان يُصيبني وجع الأسنان كثيراً، وقد علمتُ أنَّه إن ذهبت إلى أُمِّي تُعطيني شيئاً يسكِّن الألم ويجعلني أنام تلك الليلة. غير أنَّني لم أكن اذهب إلى أُمِّي، على الأقلّ، حتَّى يشتدَّ الألم كثيراً. أمَّا سبب عدم ذهابي فهو هذا: لم أكن أشكُّ في أنَّها ستعطيني الأسپيرين، ولكنِّي كنتُ أعلم أنَّها ستفعل أيضاً أمراً آخر... كنتُ أعلم أنَّها ستصطحبني إلى طبيب الأسنان صباحَ اليوم التالي. فما كان في وسعي أنْ أحصل على ما أُريده منها بغير الحصول على شيءٍ إضافيّ ما كنتُ أُريده. كنتُ أُريد أن أستريح مباشرةً من الألم، ولكنْ لم يكن يسعني الحصول على ذلك بغير إصلاح ضرسي بصورة دائمة. وقد عرفتُ أولئك الأطبّاء الذين يعالجون الأسنان: عرفتُ أنَّهم يبدأون يعبثون بجميع الأسنان الأُخرى التي لم يبتدئ الوجع فيها بعد. إنَّهم يُقلِقون راحة من يُريد أن يستريح، وإذا أعطيتَهم بُوصة أخذوا منك ذراعاً.

والآن، إذا جاز لي التعبير على هذا النحو، فإنَّ ربَّنا يُشبِه طبيب الأسنان. فإذا أعطيته بُوصة، يأخذ منك ذراعاً. وعشراتٌ من الناس يقصدون إليه كي يشفيَهم

من خطيَّة معيَّنة يخجلون بها (كالعادة السرِّيَّة أو الجبانة الطبيعيَّة)، أو تُفسِد حياتهم اليوميَّة على نحوٍ واضح (كحدَّة الطبع أو السُّكر). وفي الواقع أنَّه سيشفيهم من تلك العلَّة حقّاً، غير أنَّه لن يقف عند الحدّ. فربَّما كان ذلك كلَّ ما طلبتَه؛ ولكن ما إن تدعوه إلى دخول حياتك حتَّى يعالجك العلاج الكامل.

لذلك نبَّه ربُّنا الناس إلى وجوب إجراء «حساب النفقة» قبل صيرورتهم مسيحيِّين حقّاً. وهاك فحوى قوله: «كُن على ثقة بأنِّي سأجعلك كاملاً إن سمحتَ لي. فلحظةَ تضع نفسك بين يديَّ، تخطو أوَّل خطوة في هذه المسيرة، ولا شيء أقلَّ من ذلك أو غيره. لديك حريَّة الإرادة، وإذا شئتَ يمكنك أن تدفعني بعيداً. ولكنْ إذا لم تدفعني بعيداً، فاعلمْ أنَّني سأُعنى بإنجاز هذا العمل إلى التمام. فمهما كلَّفك ذلك من معاناة في حياتك الأرضيَّة، ومهما كلَّفك ذلك من تطهير وتنقية بعد موتك معي، ومهما كلَّفني الأمر، فلن أستريح، ولن أدعك تستريح، حتَّى تصير كاملاً حقّاً: حتَّى يتيسَّر لأبي أن يقول بلا تحفُّظ إنَّه راضٍ عليك كلَّ الرضى، مثلما قال إنَّه قد سُرَّ بي كلَّ السرور. هذا أستطيعه، ولسوف أفعله. غير أنَّني لن أفعل أيَّ شيءٍ أقلَّ منه.»

وعلى الرُّغم من ذلك (وهذا هو الجانب الآخر والمهمُّ على السواء في الأمر) فإنَّ هذا المُعين الذي لن يكتفي، في نهاية المطاف، بأيِّ شيءٍ أقلَّ من الكمال المطلق سوف يسرُّه أوَّل مجهود واهٍ متعثِّر تبذله غداً لأداء أبسط واجب. وعلى حدِّ ما أشار إليه كاتبٌ مسيحيٌّ كبير (هو جورج مكدونلد)، فإنَّ كلَّ أبٍ تسرُّه المحاولة الأولى التي يبذلها الطفل للمشي، ولكنْ ما من أبٍ يُرضيه من ابنه الراشد أيُّ شيءٍ أقلَّ من المِشية الرجوليَّة القويَّة الثابتة. وبالطريقة عينها، كما قال، «من السهل أن نسرَّ الله، ولكنْ من الصعب أن نُرضيَه إلى التمام.»

أمَّا الفحوى العمليَّة فهي هذه. من ناحية، لا داعيَ لأن يُثبِّط عزيمتك ولو قليلاً مطلب الله بشأن الكمال، في مساعيك الراهنة لأنْ تكون صالحاً، ولا حتَّى في إخفاقاتك الحاليَّة. فكلَّما سقطتَ يأخذ بيدك حتماً ويُقيمك. وهو يعلم تمام العلم أنَّ مجهوداتك الخاصَّة لن تُوصِلَك البتَّة إلى أيِّ موضع قريب من الكمال. ومن ناحية أُخرى، عليك أن تدرك من البداية أنَّ الهدف الذي نحوه قد بدأ يوجِّهك هو الكمال المطلق؛ وليس في الكون كلِّه، ما عداك أنت نفسك، أيَّة قوَّة تقدر أن

تمنعه من أخذك إلى ذلك الهدف. فلأجل ذلك الهدف أنت منطلق. ومن المهمّ جدّاً أن ندرك هذه الحقيقة. وإلاّ، فمن المرجَّح جدّاً أن نبدأ بالتراجع وبمقاومة الربّ بعد نقطةٍ ما. وأظنُّ أنّ كثيرين منّا، بعد أن يعطينا المسيح القدرة على دحر خطيّة أو خطيَّتين كانتا حماقةً بلهاء، ميّالون لأنْ يشعروا بأنّهم الآن صالحون كفاية (وإن كانوا لا يعبّرون عن ذلك بالكلام). فهو قد فعل كلَّ ما أردناه منه، ونكون شاكرين إذا تركنا الآن وشأننا. وكما تقول: «لم أتوقَّع قطُّ أن أصير قدّيساً، بل أردتُ فقط أن اغدو إنساناً عاديّاً شريفاً.» ونحن نتصوَّر أنّنا متواضعون إذ نقول ذلك.

ولكنَّ هذه هي الغلطة الفاتكة. فبالطَّبع، نحن لم نُرد قطّ، ولا طلبنا قطعاً، أن نصير من نوع الخلائق الذي سيُحوِّلنا إليه. ولكنَّ المسألة ليست ما قصدنا نحن لأنفسنا أن نكون، بل هي ما قصده هو لنا أن نكون لمّا صنعنا. فهو المخترع، وما نحن إلاّ المَكَنة. وهو الرسّام، وما نحن إلاّ الصورة. وكيف عسانا أن نعرف ما يقصد لنا أن نكونه؟ أنت ترى أنّه سبق أن صنعنا شيئاً مختلفاً جدّاً عمّا كنّا عليه. فمنذ زمنٍ طويل، قبل ولادتنا، لمّا كنّا في أرحام أُمّهاتنا، اجتزنا مراحل شتّى. وقد كنّا حيناً أشبه بالخضار، وحيناً أشبه بالسمك؛ ولم نصر أشبه بالأطفال البشريّين إلاّ في مرحلة متأخّرة. ولو كنّا واعين في تلك المراحل الباكرة، لكنّا راضين تماماً، كما أحسب، بأن نظلَّ كالخضار أو السمك، وما كنّا لنرغب في أن نُجعل أطفالاً. ولكنَّ الله كان عليماً كلَّ حين بخطّته لنا، وعاقداً العزم على تنفيذها. والآن يحدث لنا شيءٌ شبيهٌ بهذا كثيراً على مستوىً أعلى. وربّما كنّا راضين بأن نبقى ما ندعوه «أناساً عاديّين»؛ غير أنّه هو مُصمّم على تنفيذ خُطّةٍ أُخرى مختلفة تماماً. فأن ننكمش نافرين من تلك الخطّة ليس تواضعاً، بل هو كسل وجبن. أمّا الخضوع لها فليس غروراً ولا جنون عظمة، بل هو طاعة.

وإليك طريقةً أُخرى للتعبير عن ناحيَتي الحقّ. فمن جهة، علينا ألاّ نتصوَّر البتّة أنَّ مجهوداتنا الخاصّة من دون مساعدة يمكن أن يُركَن إليها لتحملنا ولو عبر الأربع والعشرين ساعةً التالية بوصفنا أُناساً «شرفاء». ولولا معونةُ الربِّ لنا، ما كان أيُّ واحدٍ منّا بمنأى من السقوط في خطيّة من الخطايا الفاضحة. ومن الجهة الأُخرى، ما من درجة ممكنة من القداسة أو البطولة سُجّلت يوماً لأعظم القدّيسين هي خارج نطاق ما هو مُصمِّمٌ أن يُنتِجه في كلِّ واحدٍ منّا في نهاية المطاف. ولن يُنجَز

العمل في هذه الحياة، غير أنَّ الله يقصد أن يوصلنا إلى أبعد حدٍّ ممكن قبل الوفاة.

لذلك يجب ألاّ نُفاجأ إذا اجتزنا وقتاً عصيباً. فعندما يتوب شخصٌ ما إلى المسيح ويبدو أنَّه على ما يُرام (بمعنى أنَّ بعضاً من عاداته السيّئة قد قُوِّمت الآن)، يشعر في الغالب أنَّه سيكون من الطبيعيّ الآن أن تسير الأُمور على أهون ما يكون. وعندما تُقبِل الضيقات، من مرض وعسر ماديّ وتجارب من أنواع جديدة، يخيب ويخور. فقد يرى أنَّ مثل هذه الأمور ربّما كانت ضروريّة لحثّه وحمله على التوبة في أيّامه السيّئة الماضية؛ ولكنْ لماذا تحصل الآن؟ ذلك لأنَّ الله يدفعه إلى الأمام، أو إلى فوق، نحو مستوىً أعلى: واضعاً إيّاه في ظروفٍ يُضطرُّ فيها لأنْ يكون أشجع بكثير، أو أكثر صبراً أو محبَّة، ممّا حلم به يوماً من ذي قبل. إنّما يبدو ذلك كلّه في نظرنا غير ضروريّ. ولكنَّ سبب ذلك هو أنْ ليس لدينا بعدُ أدنى فكرة عن الصورة البهيَّة التي ينوي أن يجعلنا عليها.

وأرى أنَّ عليَّ أن أستعير مثلاً آخر بعد من جورج مكدونلد. تصوَّر نفسك كما لو كنتَ بيتاً حيّاً، وأنَّ الله يتدخَّل كي يُعيد بناء هذا البيت. فربّما تفهم في أوّل الأمر ما هو فاعل. إذ إنَّه يُصلح مصارف الماء ويوقف الارتشاح في السقف، وما إلى ذلك؛ فأنت على علمٍ بأنَّ هذه الأعمال ينبغي أن تُعمل، ولذلك لا تُفاجأ. ولكنَّه لا يلبث أن يباشر الطَّرق والدقَّ في أنحاء البيت بطريقة مؤذية على نحو بغيض ولا تبدو ذات معنىً معقول. تُرى، أيُّ شيء يرمي البنّاء إليه؟ إنَّ تفسير ذلك أنَّه يبني بيتاً مختلفاً تماماً عن ذاك الذي فكَّرتَ فيه ... ناشراً هنا جناحاً جديداً، ومُنشئاً هناك طابقاً إضافيّاً، ومُعمِّراً أبراجاً، وباسطاً ساحات. وقد كنتَ تحسب أنَّه سيصنع منك كوخاً صغيراً لائقاً؛ غير أنَّه يعكف على بناء قصر. وهو ينوي أن يأتي بنفسه ويُقيم فيه.

إنَّ الوصيَّة «كونوا كاملين» ليست وهماً مثاليّاً. كما أنَّها ليست أمراً بأن نفعل المستحيل. فالربُّ سوف يُحوِّلنا إلى خلائق قادرين على إطاعة تلك الوصيَّة. وقد قال في الكتاب المقدَّس إنَّنا «آلهة»، ولَسوف يُثبت صحَّة كلامه. فإن سمحنا له (إذ يمكننا أن نمنعه إذا شئنا) فسيجعل أضعفنا وأقذرنا «إلهاً» أو «إلاهةً»، مخلوقاً خالداً مُذهلاً باهراً، نابضاً في مُجمله بطاقةٍ وفرحٍ وحكمةٍ ومحبَّةٍ ما كنّا لنتصوَّرها كلَّها، مرآةً مصقولة نقيَّة تعكس لله على نحوٍ كامل (وإنْ كان بالطَّبع على نطاقٍ أصغر)

قدرته ومسرَّته وصلاحه الخاصَّةَ غيرَ المحدودة. وستكون العمليَّة طويلة، ومؤلمة جدّاً في بعض أجزائها، غير أنّنا لأجل ذاك الهدف نُخضَع لهذه كلِّها، وليس لأجل أيِّ هدفٍ آخر أقلَّ منه. وقد عنى الربُّ حقّاً ما قاله.

١٠

ناسٌ طيّبون أو أناسٌ جُدد

نعم، لقد عنى الربُّ حقّاً ما قاله. فإنَّ أولئك الذين يضعون أنفسهم في يديه سيصيرون كاملين، كما أنّه هو كامل ... كاملٌ في المحبّة والحكمة والفرح والجمال والخلود. ولن يكتمل التغيير في هذه الحياة، لأنَّ الموت جزءٌ مهمٌّ من العلاج. أمّا المدى الذي سيكون التغيير قد بلغه قبل الوفاة في أيِّ مسيحيٍّ بعينه فأمرٌ غير مؤكّد.

واعتقد أنَّ اللحظة الحاضرة مُناسِبة تماماً للنظر في سؤالٍ غالباً ما يُطرح: إذا كانت المسيحيَّة صحيحة فلماذا ليس جميع المسيحيِّين، كما هو واضح، أحسن خُلقاً من غير المسيحيِّين أجمعين؟ فما يكمن وراء هذا السؤال منطقيٌّ جدّاً في جزءٍ منه، وغير منطقيٍّ البتّة في الجزء الآخر. أمّا الجزء المنطقيُّ فهو هذا: إذا كان الاهتداء إلى المسيحيَّة لا يُحدِث أيَّ تحسين في أفعال الإنسان الخارجيَّة (إذا ظلَّ متصلّفاً أو حاقداً أو حاسداً أو جشِعاً كما كان من قبل) فأعتقد أنَّ علينا أن نشكَّ في حقيقة «اهتدائه» باعتبار كونه وهميّاً إلى أبعد حدّ. وبعد اهتداء المرء اهتداءً أصيلاً، فكلّما حسب أنّه أحرز تقدُّماً ما، يكون هذا هو المحكَّ الذي ينبغي استخدامه. ذلك أنَّ المشاعر الرقيقة والتبصُّرات الجديدة والاهتمام الزائد بأمور «الدين» لا تعني شيئاً ما لم تجعل سلوكنا الفعليَّ أفضل، تماماً كما أنَّ «الشعور بالتحسُّن» في حال المرض لا يكون دليلَ خير إذا أشار ميزان الحرارة إلى أنَّ حرارة المرء آخذة في الارتفاع. وعلى هذا النحو، فالعالَم الخارجيُّ على حقٍّ تماماً في الحكم على المسيحيَّة بنتائجها. وقد علّمنا المسيح أن نحكم بحسب النتائج. فالشجرة تُعرَف من ثمرها؛ أو كما نقول: «التجربة أكبر برهان». وعندما نُسيء نحن المسيحيِّين

التصرُّف، أو نُخفق في أن نُحسِن التصرُّف، نجعل المسيحيَّة تبدو أمراً لا يُصدَّق في نظر العالَم الخارجيّ. لقد ظهرت في زمن الحرب مُلصقات كُتب عليها: «الكلام الطائش يُكلِّفك حياتك». وكذلك صحيحٌ بالمِثل أنَّ الحياة الطائشة تُكلِّف كلام انتقاد. ذلك أنَّ عيشنا حياةً طائشة يُطلِق للعالم الخارجيّ عِنان الكلام؛ ونحن نوفِّر لأهل العالم أساساً للتكلُّم بطريقة تُلقي الشكَّ على حقيقة المسيحيَّة عينها.

غير أنَّ هنالك طريقةً أخرى في تطلُّب النتائج قد يكون العالَم الخارجيُّ غير منطقيٍّ فيها إلى أبعد حدّ. فربَّما لا يكتفون بأن يطلبوا وجوب تحسُّن حياة كلِّ إنسان إذا صار مسيحيّاً، بل قد يطلبون أيضاً قبل أن يؤمنوا بالمسيحيَّة أن يروا العالَم مقسوماً بوضوح إلى معسكرين، مسيحيٍّ وغير مسيحيّ، وأن يكون جميع أهل المعسكر الأوَّل في أيَّة لحظة من اللحظات أشرف وألطف بكلِّ جلاء من أهل المعسكر الثاني أجمعين. غير أنَّ هذا غير عقلانيّ على أساس بضعة أسباب.

(١) في المقام الأوَّل، الوضعُ في العالَم الواقعيُّ أكثر تعقيداً من ذلك. فليس في العالم مَن هم مسيحيُّون مئة بالمئة، ومن هم غير مسيحيِّين مئة بالمئة. فهنالك أُناس (وما أكثرهم) يكفُّون تدريجيّاً عن أن يكونوا مسيحيِّين ولكنَّهم ما يزالون يدعون أنفسهم بهذا الاسم، وبعضُهم رجال دين. وهنالك آخرونَ يصيرون مسيحيِّين بالتدريج مع أنَّهم لا يدعون أنفسهم بهذا الاسم. وهنالك أُناس لا يقبلون كامل التعليم المسيحيّ عن المسيح، إلاَّ أنَّهم منجذبون إليه بشكل قويّ جدّاً بحيثُ يُعتبَرون مِن خاصَّته بمعنىً أعمق ممَّا يفهمونه هم أنفسُهم. وبين أتباع الأديان الأخرى أُناسٌ يرشدهم تأثيرُ الله السرِّيُّ إلى التركيز على ما يوافق المسيحيَّة في أديانهم، وهكذا ينتمون إلى المسيح على غير علم منهم. فإنَّ بوذيّاً حسن النيَّة مثلاً قد يُرشَد إلى التركيز أكثر فأكثر على التعليمِ البوذيّ المتعلِّق بالرحمة، وإلى إبقاء التعاليم البوذيَّة بشأن أُمورٍ أُخرى في الناحية الخلفيَّة (رغمَ أنَّه قد يقول إنَّه ما زال يؤمن بها). وربَّما كان كثيرون من الوثنيِّين قبل ولادة المسيح بزمن طويل في هذا الموقع عينه. وثمَّة بالطبع في كلِّ حين ناسٌ كثيرون مُشوَّشو الذهن ولديهم كثير من المعتقدات المتضاربة مختلطة بعضها ببعض. وعليه، فليس من نفع كثير في محاولة إصدار أحكام على المسيحيِّين بصورة تعميميَّة. ثمَّة بعض النفْع في مقارنة الخيل والجِمال، أو حتَّى الرجال والنساء، على وجه الإجمال، لأنَّه في ذلك

المجال يعرف المرءُ هؤلاء الواحدَ من الأخر بشكل واضح ومحدَّد. ثُمَّ إنَّ حيواناً ما لا يتحوَّل (لا تدريجيّاً ولا فجأةً) من جملٍ إلى حصان. ولكنْ حين نقارن المسيحيِّين عموماً بغير المسيحيِّين عموماً، لا نكون في العادة مفكِّرين أبداً في أُناس حقيقيِّين نعرفهم، بل فقط في فكرتين غامضتين استمدَدناهما من الروايات والصُّحف. فإذا شئت أن تقارن بين المسيحيِّ الرديء والمُلحِد الصالح، يجب عليك أن تفكِّر في عيِّنتين حقيقيَّتين قابلتَهما فعلاً. فما لم ننزل إلى ساحة الحقائق الواقعيَّة على هذا النحو، نكُن كل ما نعمله هو إضاعة وقتنا سدىً.

(٢) هَبنا نزلنا إلى ساحة الواقع ونحن لا نتحدَّث الآن عن مسيحيٍّ خياليّ وغير مسيحيٍّ خيالي، بل عن شخصين حقيقيَّين في جوارنا. ففي هذه الحالة أيضاً ينبغي لنا أن نحرص على طرح السؤال الصحيح. إذ نقول: إذا كانت المسيحيَّة صحيحة، فعندئذٍ لا بدَّ أن يترتَّب على ذلك: (أ) أنَّ أيَّ مسيحيٍّ سيكون ألطف وأشرف ممّا كان من شأنه أن يكون لو كان غير مسيحيّ؛ (ب) أنَّ أيَّ إنسان يصير مسيحيّاً سيكون أحسن خُلقاً ممّا كان قبلاً. وعلى المنوال نفسه تماماً: إذا كانت دعايات معجون الأسنان المُبيِّض صحيحة، فعندئذ يترتَّب على ذلك حتماً: (أ) أنَّ أيَّ شخصٍ يستعمل هذا المعجون ستكون له أسنان أحسن ممّا كان ممكناً أن يكون له لو لم يستعمله؛ (ب) أنَّ أيَّ شخصٍ يبدأ باستعماله ستتحسَّن أسنانه. ولكنَّ إشارتي إلى أنَّني أنا الذي استعمل مُبيِّض الدعاية بعينه (وقد ورثتُ أيضاً رداءة الأسنان من والديَّ كليهما) ليس لي مجموعةُ أسنان جيِّدة كالتي يملكها زنجيٌّ شابٌّ قويُّ الصحَّة لم يستعمل قطُّ أيَّ معجونِ أسنان، إشارتي تلك في حدِّ ذاتها لا تبرهن أنَّ الدعايات باطلة: فالأنسة ليلى المسيحيَّة المؤمنة قد يكون لديها لسان أسلط من لسان رضوان راضي غير المؤمن وذلك في ذاته لا يبيِّن لنا هل تفعل المسيحيَّة فعلها. فالسؤال هو: كيف سيكون لسان الأنسة ليلى لو لم تكن مسيحيَّة، وكيف سيكون لسان رضوان إذا صار مسيحيّاً بالحقّ. ذلك أنَّ الانسة ليلى ورضوان، من جرّاء أسبابٍ طبيعيَّة وتنشئة باكرة خاصَّة، لديهما مزاجان معيَّنان: وتُصرِّح المسيحيَّة بأنَّها تضع كِلا المزاجين تحت إدارة جديدة، إذا سمح لها صاحباهما بأن تفعل ذلك. فما يجوز لك أن تسأله بحقّ هو هذا: هل تُحسِّن تلك الإدارةُ الحالةَ المعنيَّة إذا سُمح لها باستلام الزمام؟ يعلم الجميع أنَّ الإدارة قد قامت

في حالة رضوان راضي بعملٍ «أفضل» مما قامت في حالة الآنسة ليلى. إنّما ليس هذا بيتَ القصيد. فلكي تحكم على إدارة مصنع ما، يجب عليك أن تأخذ في الحسبان لا الإنتاج وحده بلِ المُنشآت أيضاً. فبالنظر إلى مُنشآت المصنع «أ»، قد يكون من العجب أن يُنتج أيَّ شيء على الإطلاق. وبالنظر إلى التجهيزات الممتازة في المصنع «ب»، قد يكون إنتاجُه، ولو عالياً، أدنى بكثيرٍ مما كان ينبغي أن يكون. ولا رَيب أنَّ المُدير الصالح في المصنع «أ» سيُركِّب مَكَنات جديدة بأسرعِ ما يمكن، ولكنَّ ذلك يستغرق وقتاً. وفي أثناء ذلك، لا يبرهن الإنتاجُ المتدنّي أنَّ صاحبه فاشل.

(٣) والآن، لنبعدْ قليلاً إلى العمق. إنَّ المدير سيُركِّب مكِناتٍ جديدة: فقبل أن يُنهيَ المسيحُ عمله في الآنسة ليلى، ستكون «فاضلة» حقّاً. ولكن لو تركْنا الأمر عند هذا الحدّ، لَبدا كأنَّ هدف المسيح الوحيد هو أن يدفع الآنسة ليلى صُعداً إلى المستوى نفسه الذي طالما كان رضوان عليه دائماً. وفي الواقع أنّنا ما برحنا نتحدَّث كما لو كان رضوان على أحسن ما يُرام، وكما لو كانت المسيحيَّة شيئاً يحتاج إليه الأردياء فيما يستطيع الطيِّبون أن يستغنوا عنه، وكما لو كانت دماثة الخُلق هي كلَّ ما يطلبه الله. ولكنّ هذه غلطة من شأنها أن تكون فاتكة. فالحقُّ أنَّ رضوان راضي، في نظر الله، يحتاج إلى الخلاص كاحتياج الآنسة ليلى إليه تماماً. وبمعنىً ما (سأشرح بعد قليل بأيِّ معنى) لا تكاد دماثة الخُلق تتعلَّق بهذه المسألة.

لا يمكنك أن تتوقَّع من الله أن ينظر إلى طَبع رضوان الهادئ ومزاجه الوَدود كما ننظر إليهما نحن تماماً. فهما ناتجان من أسباب طبيعيَّة يخلقها الله نفسُه. ولكونهما مزاجيَّين فقط، فإنَّهما يتلاشيان إذا أصيب رضوان بعُسْر هضم. ففي الواقع أنَّ الدماثة هي عطيَّة الله لرضوان، لا عطيَّة رضوان لله. وبالطريقة عينها، سمح الله لأسباب طبيعيَّة، تعملُ في عالَم أفسدته قرونٌ من الخطيَّة، بأن تُنتج لدى الآنسة ليلى ضيق الخُلق وتوتُّر الأعصابِ اللذَين إليهما يُعزى معظم رداءتها. وهو يَنوي، في حينه، أن يُقوِّم حال ذلك الجانب. غير أنَّ ذلك، في نظر الله، ليس الجانب الحاسم في القضيَّة. فإنّه لا يُثير أيّة صعوبات، وليس هو ما يهتمُّ به الله بشدَّة. ذلك أنَّ ما يترقَّبه ويتوقَّعه ويعمل لأجله هو أمرٌ ليس سهلاً حتَّى عليه، لأنّه بسبب طبيعة الحال حتَّى هو لا يُمكِن أن يُنتِجه بمجرَّد فعلٍ من أفعال قدرته. إنَّه يترقَّبه ويتوقَّعه لدى الآنسة ليلى ورضوان راضي كليهما. وهو أمرٌ يمكن أن يُعطياه إيّاه بملء

حرِّيَّتهما، أو يرفضا أن يعطياه إيّاه بملء حرِّيَّتهما: أيلتفتان راجعَين إليه، وبذلك يتمِّمان القصد الوحيد الذي لأجله قد خُلقا، أم لا يفعلان ذلك؟ إنَّ حريَّة الإرادة تتذبذب في داخلهما كإبرة البوصلة. ولكنَّ إبرتهما تستطيع أن تختار. يمكنها أن تدلَّ إلى جهة شمالها الحقيقيَّة؛ ولكنْ لا داعيَ لأنْ تفعل ذلك. فهل تترجَّح الإبرة دائريّاً، ثمَّ تستقرُّ وتُشير إلى الله؟

إنَّ الله قادر على مساعدة الإبرة للقيام بذلك، غير أنَّه لا يقدر ان يرغمها. إنَّه لا يقدر، إن صحَّ التعبير، أن يمدَّ يده ويُركِّز الإبرة على الوضع الصحيح، لأنَّه إذ ذاك تتعطَّل حريَّة الإرادة تماماً. فهل تُشير إلى الشمال؟ على هذا السؤال يتوقَّف كلُّ شيء. هل يُقدِّم الآنسة ليلى ورضوان طبيعتيهمَا إلى الله؟ أمَّا مسألة كون الطبيعتين اللتين يُقدِّمانهما، أو يتمسَّكان بهما، حسنتين أو سيِّئتين في تلك اللحظة، فأمرٌ ثانويُّ الأهميَّة. وفي وسع الله أن يُعنى بهذه المسألة.

لا تُسِئ فهم ما أقول. فلا ريب أنَّ الله يعدُّ الطَّبع الرديء أمراً سيئاً يُرثى له. ولا ريب أنَّه يعدُّ الطَّبع اللطيف أمراً صالحاً، صالحاً كالخُبز أو ضوء الشمس أو الماء. غير أنَّ هذه هي الأمور الصالحة التي يسخو هو بها ونتلقَّاها نحن. فهو خلق أعصاب رضوان المتينة وهضمه السويَّ، وما وراءهما من أسبابٍ أو عِلَل كثيرة. ولا يُكلِّف الله شيئاً، حسب علمنا، أن يخلق أشياءَ حسنة: ولكنَّ تطويع الإرادات العاصية كلَّفه أن يُصلَب. ولأنَّها إرادات، ففي وسعها، لدى الطيِّبين والخُبَثاء على السواء، أن ترفض طلبه. ثُمَّ إنَّ الطيبة لدى رُضوان، لأنَّها كانت مجرَّد جزء من طبيعته، ستتبدَّد تماماً في النهاية. فالطبيعة نفسها سوف تمضي وتزول كليّاً. والأسباب الطبيعيَّة تتضافر معاً لدى رضوان لتُنتج نموذجاً سيكولوجيّاً حسناً، تماماً كما تتآلف معاً عند الغروب لتُنتج نموذجَ ألوانٍ جميلاً. وعمَّا قريب (لأنَّه هكذا تعمل الطبيعة أصلاً) سوف تتفرَّق ثانيةً ويضمحلُّ النموذج في كلتا الحالين. وقد أُتيحت لرضوان الفرصة كي يُحوِّل (أو بالحريِّ كي يُسمَح لله بأن يُحوِّل) ذلك النموذج الوقتيَّ إلى بهاء روح أبديّ، غير أنَّه لم ينتهزها.

وهنا نقع على تناقُضٍ ظاهريّ. فما دام رضوان لا يرجع إلى الله، فهو يظنُّ أنَّ دماثته مِلكٌ له؛ وما دام يظنُّ ذلك فهي ليست مِلكَه. ولكنْ عندما يدرك أنَّ دماثته ليست من نتاجه بل هي عطيَّةٌ من عند الله، وعندما يُعيدها إلى الله، فعندئذٍ تماماً

تبدأ بأن تصير بالحقيقة مِلكاً له. وذلك لأن رضوان يبدأ الآن بأن يكون له نصيبٌ في خَلقه شخصيّاً من جديد. والأشياء الوحيدة التي يمكننا أن نصونها هي تلك الأشياء التي نقدِّمها لله بملء الحرِّيَّة. وما نحاول أن نُبقيَه لأنفسنا فمن المؤكَّد أنَّنا سنخسره هو بذاته.

وعليه، فلا ينبغي أن نُفاجأ إذا وجدنا بين المسيحيِّين بالحقِّ أشخاصاً ما زالوا خُبَثاء. حتَّى إنَّ هنالك سبباً (إذا فكَّرتَ في الأمر مليّاً) يحملنا على ترجيح رجوع الأشخاص الخُبثاء إلى المسيح بأعدادٍ تفوق رجوع الطيِّبين إليه. وقد كان ذلك هو ما اعترض عليه الناس بشأن المسيح في أثناء حياته على الأرض: أنَّه على ما بدا يجتذب إليه «أناساً بالغي الرداءة.» وعلى هذا ما زال الناس يعترضون، وسيظلُّون دائماً يعترضون. أفلا ترى السبب؟ لقد قال المسيح: «طوبى للمساكين (أيِ الفُقراء)» وأيضاً «ما أصعب دخول الأغنياء إلى ملكوت الله!» ولا شكَّ أنَّه عنى بالدرجة الأولى الفقراء مادّيّاً والأغنياء مادّيّاً. ولكنْ ألا يصحُّ كلامه أيضاً على نوعٍ آخر من الغنى والفقر؟ إنَّ واحداً من أخطار امتلاك كثيرٍ من المال هو أنَّك قد تكتفي إلى أبعد الحدود بأنواع السعادة التي يمكن أن يوفِّرها لك المال، وهكذا يفوتك أن تدرك احتياجك لله. فإذا بدا أنَّ كلَّ شيء يأتيك بمجرَّد توقيع الشيكات، يمكن أن تنسى أنَّك في كلِّ لحظة تعتمد على الله كلّيّاً. وواضحٌ تماماً أنَّ الهبات الطبيعيَّة يصحبها خطرٌ مُماثِل. فإن كانت لك أعصابٌ متينة وذكاء وصحَّة وشعبيَّة ونشأةٌ صالحة، يُرجَّح أن تكتفيَ إلى أبعد حدٍّ بخُلقك الذي أنت عليه. ولعلَّك تسأل: «لِماذا آتي بالله إلى المسألة؟» إذ إنَّ مستوىً معيَّناً من السلوك الحسن يتأتَّى لك بسهولة معقولة. فأنت لستَ واحداً من أولئك الخلائق التُّعساء الذين يقعون دائماً في أحابيل الجنس، أو الإدمان على الكحول، أو الهياج العصبيّ، أو حدَّة الطَّبع. والجميع يقولون إنَّك إنسان طيِّب، وأنت تُوافِقهم (بيني وبينك!). فمن المرجَّح جدّاً أن تحسب أنَّ هذه الطِّيبة كلَّها هي من صُنع يدَيك، ولعلَّك بسهولةٍ لا تشعر باحتياجك إلى أيِّ نوع من الصلاح أفضل. وغالباً ما يتعذَّر الإتيان بأولئك الأشخاص، الذين يملكون جميع هذه الأنواع الطبيعيَّة من الصلاح، إلى إدراك احتياجهم إلى المسيح أصلاً، حتَّى يأتِيَ يومٌ فيه يخذلهم صلاحهم الطبيعيُّ وتتزعزع أركان اكتفائهم الذاتيّ. بعبارةٍ أخرى: صعبٌ على مَن كانوا «أغنياء» بهذا

المعنى أن يدخلوا ملكوت الله.

إنّما الحال تختلف كثيراً بالنسبة الى الأشخاص الخُبثاء: الصغار، الأدنياء، الجبناء، المُعوجّين، قليلي الحياء، المعتزِلين، أو ذوي الأهواء الجامحة، الشهوانيّين، غير المتّزنين. فإذا قام هؤلاء بأيّة محاولة لإتيان الصلاح أصلاً، يعلمون على وجه السرعة بأنّهم يحتاجون إلى معونة. فإمّا أن يتلقّوا المعونة من المسيح، وإمّا لا ينفعهم أيُّ شيء. إمّا يحملون الصليب ويتبعون المسيح، وإمّا يستولي عليهم اليأس المطبق. هؤلاء همُ الخراف الضالّة؛ وهو قد جاء خصوصاً كي يجدهم ويردّهم. هؤلاء هم «المساكين»، أو الفقراء (بمعنىً حقيقيٍّ ورهيبٍ جدّاً): وهو قد طوّبهم، أو باركهم. إنّهم «التشكيلة الرهيبة» التي يعاشرها المسيح المُحِبّ، وما زال الفرّيسيّون بالطبع يقولون، كما قالوا منذ البداية: «إن كان في المسيحيّة شيءٌ ما، فهؤلاء الأشخاص لا يمكن أن يكونوا مسيحيّين حقّاً.»

ولكلّ واحدٍ منّا ها هُنا إمّا تحذير وإمّا تشجيع. فإذا كنت إنساناً طيّباً، إذا وافتك الفضيلة بسهولة، فحذارِ! إنّ مَن أُعطي الكثير يُطلَب منه كثير. فإنْ توهّمتَ أنّ ما كان بالحقيقة هبات الله لك من خلال الطبيعة هو فضائلُ أو حسناتٌ شخصيّة فيك، وإن كنتَ مكتفياً بمجرّد كونك لطيفاً وشريفاً، فأنت ما زلت متمرّداً عاصياً: وجميع هذه الهبات لن تؤول إلاّ إلى جعل سقوطك أرهب، وفسادك أدهى، وقدوتك السيّئة أكثر هولاً. لقد كان إبليس في ما مضى ملاكاً رئيساً، وكانت هباته الطبيعيّة أسمى بكثيرٍ من هباتك كسُموّ هباتك على هبات الشمبانزي!

ولكنْ إذا كنتَ مخلوقاً بئِساً، سمّمَتك تربيةٌ سيّئة في بيتٍ من البيوت حافلٍ بالمُحاسدات المبتذلة والمخاصمات التافهة، مُبتلىً على رُغمك بشذوذٍ جنسيٍّ مقيت، تقضُّ مضجعك يوماً بعد يوم عقدةُ نقص تجعلك خشناً مع أفضل أصدقائك وتسخط عليهم، فلا تيأسْ! إنّ الله عليمٌ بحالك تماماً. وأنت واحد من المساكين (الفُقراء) الذين طوّبهم أو باركهم. وهو يعلم أيَّ مَكَنة رديئة تحاول أن تُشغّلها. فواظِبْ على ما تحاوله، وابذلْ ما في وسعك. إنّه ذاتَ يوم (ربّما في العالَم الآتي، ولكنْ ربّما أقرَب من ذلك بكثير) سوف يرمي بتلك المَكنة في كومة النُفايات ويُعطيك مَكَنة جديدة. وعندئذٍ سوف تُذهِلنا جميعاً، إذ لن تكون أنت نفسَك بأدنى حدّ، ما دمتَ قد تعلّمتَ تشغيل المَكنة في مدرسة قاسية. (بعض الآخِرين

سيكونون أوّلين؛ وبعض الأوّلين سيكونون آخِرين!)

إنَّ «الطيبة» أو الدماثة (أي الشخصيَّة السليمة الكاملة) هي أمرٌ ممتاز. وعلينا أن نسعى بكلِّ وسيلة في طاقتنا، طبيَّة وتربويَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة، لإنتاج عالَم ينشأ فيه أكبر عددٍ ممكن من الناس «الطيِّبين»، مثلما ينبغي أن نحاول إنتاج عالَم فيه يتوافر للجميع ما يأكلونه. ولكنْ يجب ألاَّ نفترض أنَّه حتَّى لو نجحنا في جعْلِ كلِّ امرئ طيِّباً نكون قد خلَّصنا نفوس الجميع. فإنَّ عالَماً من الناس الطيِّبين، الراضين بطيبتهم الذاتيَّة، غير الناظرين إلى أبعدَ من ذلك، المبتعدين عن الله بعيداً، سيكون في أمسِّ الحاجة إلى الخلاص مثله مثل عالَم تعس، بل إنَّ خلاصه قد يكون أصعب بكثير.

ذلك أن مجرَّد التحسين ليس فداءً، مع أنَّ الفداء دائماً يُحسِّن الناس في الزمان والمكان الحاليَّين، وسوف يحسِّنهم في النهاية إلى درجةٍ لا يمكننا تصوُّرها بعد. فقد صار الله إنساناً ليحوِّل الخلائق أبناءً: ليس فقط كي يُنتج أناساً من النوع القديم أفضل، بل ليُنتج إنساناً من نوعٍ جديد. ولا يُشبه ذلك تعليم حصانٍ أن يثب أفضل ثمَّ أفضل، بل يُشبه تحويل الحصان إلى كائن مُجنَّح. وبالطبع، ما إن يصير له جناحان، حتَّى يُحلِّق حتماً فوق حواجزَ ما كان ممكناً قطُّ أن يقفز فوقها، وبذلك يتغلَّب على الحصان الطبيعيِّ في رياضته الخاصَّة. ولكنْ قد تمرُّ فترة زمنيَّة، فيما الجناحان ما يزالان في أوّل عهدهما بالنموّ، لا يستطيع فيها الحصان أن يفعل ذلك: وفي تلك المرحلة قد يبدو منظر الحصان غريباً جدّاً لوجود ذينك النتوءَين على كتفَيه، ولا سيَّما لأنَّ أحداً لن يقدر أن يُنبئ عند النظر إليهما بأنَّهما سيكونان جناحين.

ولكنْ ربَّما نكون فعلاً قد استفضنا كثيراً في هذه النقطة. فإذا كان ما تريده حجَّة ضدَّ المسيحيَّة (وأنا أذكر جيِّداً كيف التمستُ بشوقٍ حججاً من هذا النوع لما بدأتُ أخشى أن تكون المسيحيَّة صحيحة) يمكنك بسهولة أن تعثر على مسيحيٍّ غرٍّ وغير مُرضٍ فتقول: «هوذا إنسانكم الجديد الذي تتباهَون به! أعطوني واحداً من النوع القديم.» ولكنَّك إن كنت قد بدأتَ ترى المسيحيَّة معقولة على أُسسٍ أُخرى، فستعرف في قلبك أنَّ قولك هذا لا يعدو كونه هروباً من المسألة. فماذا يمكنك أن تعرف على الإطلاق عن نفوس الآخرين، عن تجاربهم وفُرَصهم وصراعاتهم؟ ثمَّة

في الكون كلّه نفس واحدة تعرفها حقّاً، ألا وهي النفس الوحيدة التي مصيرها بيدك. وإذا كان الله موجوداً فأنت، بمعنىً ما، وحدك في حضرته. وليس في وسعك أن تدفعه بعيداً عنك بتحزُّراتك عن جارك المُجاوِر أو بذكرياتك عمّا قرأتَه في الكتب. فأيّة قيمةٍ لتلك الثرثرة والإشاعات (أويمكنك حتّى تذكُّرها؟) عندما تضمحلُّ تلك الغمامة المُخدِّرة التي نسمّيها «الطبيعة» أو «العالم الحقيقيّ»، وتغدو الحضرة التي ما برحتَ واقفاً فيها كلَّ حين ملموسةً ومباشرة وواقعاً لا سبيل إلى اجتنابه؟

١١

الإنسان الجديد

شبَّهتُ في الفصل السابق عمل المسيح في خلق أُناسٍ جُدد بعمليَّة تحويل حصانٍ إلى كائن مُجنَّح. وقد استخدمتُ هذا الإيضاح الذي فيه شيءٌ من التطرُّف بُغية التشديد على كون الأمر ليس مجرَّد تحسين بل تغييراً جذريّاً. فأقربُ مُوازٍ له في عالم الطبيعة نجده في التحويلات الرائعة التي يمكننا إحداثها في الحشرات بتسليط أشعَّة معيَّنة عليها. ويعتقد بعضُهم أنَّ التطوُّر حصل بهذه الطريقة. فتحوُّلات الكائنات التي يتعلَّق كلُّه بها ربَّما نتجت من جرّاء أشعَّة ترامت عليها من الفضاء الخارجيّ. (وطبعاً، ما إن تنوجد التحوُّلات، حتَّى يسري فيها عمل ما يسمُّونه «الانتقاء الطبيعيّ»، أي أنَّ التحوُّلات النافعة تدوم وتزول الأُخرى.)

ولربَّما كان في وسع الإنسان العصريّ أن يفهم الفكرة المسيحيَّة فهماً أفضل إذا نظر إليها في إطار التطوُّر المفترض. والجميع الآن يعرفون عن التطوُّر (مع أنَّ بعض المثقَّفين طبعاً لا يؤمنون به)، إذ يُقال للجميع إن الإنسان تطوَّر من أنواع حياةٍ أدنى. وعليه، فغالباً ما يتساءل قوم: «ما هي الخطوة التالية؟ متى سيظهر الكائن الأرقى من الإنسان؟» ويحاول كتّاب واسعو المخيِّلة أحياناً أن يتصوَّروا هذه الخطوة التالية («السوبرمان» أو الإنسان المتفوِّق كما يسمُّونه)؛ غير أنَّهم عادةً لا ينجحون إلاَّ في تصوُّر كائنٍ أبغض إلى حدٍّ بعيد من الإنسان كما نعرفه، ثمَّ يحاولون التعويض عن ذلك بأن يُضيفوا إليه مزيداً من الأرجُل أو الأذرع. ولكنْ ماذا لو أنَّ الخطوة التالية ستكون شيئاً أكثر اختلافاً بعدُ عن المراحل الأولى ممَّا حلموا به يوماً؟ أوليس من الأرجح أن يحصل ذلك؟ فقبل آلاف القرون، تطوَّرت مخلوقاتٌ ضخمة مُدرَّعة على نحوٍ ثقيل للغاية. ولو كان امرؤ آنذاك يراقب مجرى التطوُّر لربَّما توقَّع على

الأرجح أن يستمّر قُدماً إلى تدريع أثقل فأثقل. ولكنْ لو توقَّع ذلك، لثبت أنَّه على خطأ. فقد كان المستقبل يُخفي أمراً ما كان أيُّ شيءٍ آنذاك ليدلَّ المُراقِب عليه. إذ كان عتيداً أن يُطلِع له «حيواناتٍ» صغيرة عارية غير مدرَّعة ذات أدمغة أفضل، وبهذه الأدمغة كانوا عتيدين أن يسيطروا على الكوكب بكامله. ولم يكونوا فقط عتيدين أن يحوزوا قدرةً تفوق تلك التي كانت لأولئك المسوخ الذين ظهروا قبل التاريخ، بل كانوا مُزمِعين أن يحوزوا قدرةً من نوعٍ جديد. فلم تكن الخطوة التالية عتيدةً أن تكون مختلفة فحسب، بل مختلفة بنوعٍ جديد من الاختلاف. إذ لم يكن مجرى التطوُّر مزمعاً أن يظلَّ يتدفَّق في الاتّجاه الذي رآه المُراقِب جارياً فيه، بل كان في الواقع عتيداً أن ينعطف انعطافاً حادّاً.

والآن، يبدو لي أنَّ مُعظم التحزُّرات الشائعة بشأن الخطوة التالية تقع في مثل هذه الغلطة بعينها. إذ يرى قومٌ (أو على الأقلّ يحسبون أنَّهم يرون) بشراً تتطوَّر لديهم أدمغةٌ عظيمة ويكتسبون سيطرةً على الطبيعة أعظم. ولأنَّهم يحسبون أنَّ المجرى يتدفَّق في ذلك الاتّجاه، يتصوَّرون أنَّه سيظلُّ يتدفَّق فيه تماماً. ولكنْ لا يسعُني إلاَّ أن أُفكِّر بأنَّ الخطوة التالية ستكون جديدةً بالحقيقة؛ إنَّها ستنطلق في اتّجاهٍ ما كان يمكنك أن تحلم به. ولا تكاد تستحقُّ أن تُدعى خطوةً جديدة إلاَّ إذا فعلَت ذلك. فينبغي لي أن أتوقَّع لا مجرَّد اختلاف، بل اختلافاً جديد النوع. وينبغي لي أن أتوقَّع لا مجرَّد تغيير، بل أُسلوباً جديداً لإحداث التغيير. أو بتعبير طريف: ينبغي أن أتوقَّع ألاَّ تكون مرحلة التطوُّر التالية مرحلة تطوُّر أبداً؛ ينبغي أنْ أتوقَّع أنَّ التطوُّر نفسه من حيث كونُه أُسلوباً لإحداث التغيير سيُبطَل. وأخيراً، لا ينبغي أن أُفاجأ إذا كانت قلَّة قليلة من الناس، عند حدوث التغيير، لاحظت أنَّه كان يحدث.

والآن، إذا راقك التحدُّث بمصطلحاتٍ من هذا القبيل، فالرأيُ المسيحيُّ هو على وجه الدقَّة أنَّ الخطوة التالية قد ظهرت فعلاً. وهي بالحقيقة جديدة. فهي ليست تغييراً من إنسانٍ ذكيّ إلى إنسانٍ أذكى، بل هي تغييرٌ يجري كليّاً في اتجاه مختلفٍ تماماً: تغييرٌ من كون الإنسان خليقةً من خلائق الله إلى كونه ابناً من أبناء الله. وقد وقعت «الحادثة الأولى» في فلسطين منذ ألفَي سنة. وبمعنىً ما، ليس التغيير «تطوُّراً» على الإطلاق، لأنَّه ليس شيئاً ناجماً عن تتالي الأحداث الطبيعيّ، بل هو

شيءٌ دخل الطبيعة من الخارج. ولكنَّ هذا هو ما كان ينبغي أن أتوقَّعه. وقد توصَّل بعضُهم إلى الفكرة القائلة «بالتطوُّر» من دراسة الماضي. فإذا كانت مستحدثاتٌ فعليَّة طيَّ المستقبل، فإنَّ هذه الفكرة بالطبع، وهي مؤسَّسةٌ على الماضي، لن تشمل تلك المُستحدثات حقّاً. وبالحقيقة أنَّ هذه الخطوة الجديدة تختلف عن جميع سابقاتها، ليس فقط في إتيانها من الخارج، بل أيضاً من بضعة أوجُه أُخرى.

(١) إنَّها لم تحصُل بالتناسُل الطبيعيّ. وهل من داعٍ لأنْ يُفاجئنا هذا؟ فقد كان زمانٌ، قبل ظهور الجنس، فيه كان التكاثُر يحصل بأساليب مختلفة. وعليه، كان ممكناً أن نتوقَّع أنَّه سيأتي زمن يتلاشى فيه الجنس، وإلاَّ (الأمرُ الحاصل فعلاً) فزمنٌ فيه يكفُّ الجنس، رغم استمرار وجوده، عن أن يكون سبيلَ النموّ الرئيسيّ.

(٢) في المراحل الأبكر، كان للكائنات العضويَّة الحيَّة إمَّا لا خيار البتَّة وإمَّا خيار ضئيل جدّاً بشأن الخضوع للخطوة التالية. وقد كان الارتقاء، بصورة رئيسة، شيئاً حدث لها، لا شيئاً فعلَته هي. غير أنَّ الخطوة الجديدة، خطوة الانتقال من كون الناس خلائق إلى كونهم أبناءً، هي طوعيَّة، أو على الأقلّ طوعيَّة بمعنىً معيَّن. فهي ليست طوعيَّة بمعنى أنَّنا، من ذواتنا، كان يمكننا أن نختار القيام بها، أو كان يمكننا حتَّى تصوُّرُها تصوُّراً؛ بل هي طوعيَّة بمعنى أنَّه عندما تُقدَّم لنا يمكننا أن نرفضها. ففي وسعنا، إن شئنا، أن ننكمش ونتراجع؛ وفي وسعنا أن نغرز أقدامنا في الأرض وندع البشريَّة الجديدة تمضي في سبيلها من دوننا.

(٣) لقد أشرتُ إلى تجسُّد المسيح بوصفه «الحادثة الأولى» في بروز الإنسان الجديد. ولكنَّه بالطبع أمرٌ أكثر من ذلك بكثير. فليس المسيح إنساناً جديداً فحسب، أي عيِّنة من النوع، بل هو الإنسانُ الجديد بالذات. إنَّه أصل جميع الناس الجُدد ومركزهم وحياتهم. لقد جاء إلى العالم المخلوق، بمحض إرادته، آتياً بالحياة الجديدة، «الزُويِي». (أعني أنَّها جديدة بالنسبة إلينا طبعاً، فمن حيث طبيعتها هي موجودة أزلاً.) وهو ينقلها لا بالوراثة، بل بما دعوتُه «العدوى الصالحة». فكلُّ مَن يحصل عليها ينالها من طريق الاحتكاك الشخصيّ بالمسيح. إذ إنَّ الناس الآخرين يصيرون «جدداً» بكونهم «فيه».

(٤) تتمُّ هذه الخطوة بسرعة تختلف عن سابقاتها. فمقارنةً بنموّ الإنسان على هذا الكوكب، يبدو أنَّ انتشار المسيحيَّة على الجنس البشريّ يحصل بمثل ومضة

برق: لأنَّ ألفَي سنة لا تكاد تُساوي شيئاً في تاريخ الكون. (لا تنسَ أبداً أنَّنا ما نزال «المسيحيِّين الأوَّلين». فالانقسامات المَقيتة والمُهلِكة بيننا، كما نرجو، ليست سوى مرض من أمراض الطفولة، إذ إنَّنا ما نزال في مرحلة ظهور الأسنان. ولا ريبَ أنَّ العالَم الخارجيَّ يحسب عكس هذا تماماً: فهو يحسب أنَّنا نموت من الشيخوخة. ولكنَّه ما أكثر ما حسب ذلك من قبل. فقد حسب مراراً وتكراراً أنَّ المسيحيَّة مائتة ... مائتة بفعل الاضطهادات من الخارج وضُروب الفساد من الداخل، بفعل قيام كثيرٍ من الحركات الكبرى المناهضة لها، بما فيها نشوء العلوم الطبيعيَّة والحركات الأُخرى المضادَّة. ولكنَّ فأل العالم خاب كلَّ مرَّة. وقد حصلت أوَّل خيبة بشأن الصَّلب. فإنَّ الإنسان بُعِث حيّاً من جديد. وبمعنىً ما، ما زال الانبعاث جارياً منذئذٍ، وأنا أُدرك تماماً إلى أيِّ مدىً لا بدَّ أن يبدو ذلك ظلماً في نظر المُناهِضين! فإنَّ هؤلاء يدأبون في قتل ما قدِ انطلق، وفي كلِّ مرَّة، بينما هُم يُمهِّدون التُّربة فوق قبره، يسمعون فجأةً أنَّه ما يزال على قيد الحياة، بل أيضاً قد برز إلى الوجود في مكانٍ جديد. فلا عجب إن كانوا يكرهوننا.)

(٥) إنَّما الآمال أسمى فعلاً. فبالتعثُّر في الخطوات الأبكر، فقدَ المخلوق، في أسوإ الأحوال، سنِي حياته القليلة على هذه الأرض: وما أكثر ما لم يفقد حتَّى هذه! ولكنَّنا بالتعثُّر في هذه الخطوة نخسر جائزةً هي (بالمعنى الأضيق للكلمة) لانهائيَّة. ذلك أنَّ اللحظة الحاسمة قد حلَّتِ الآن. فقرناً بعد قرن، اقتاد الله الطبيعة إلى نقطة إنتاج خلائق في وسعهم (إذا شاؤوا) أن يؤخذوا رأساً إلى خارج الطبيعة، بصيرورتهم «آلهة». أفيسمحون لأنفسهم بأن يؤخذوا؟ وهذا شبيهٌ، من ناحية، بأزمة الولادة. فإلى أن نقوم ونتبع المسيح، نظلُّ أجزاءً من الطبيعة، إذ ما نزال في رحم أُمِّنا العظيمة. ولقد كان حَمْلها طويلاً وأليماً ومحفوفاً بالترقُّب والقلق، إلاَّ أنَّه قد بلغ ذُروته. فها قد حلَّتِ اللحظة الحاسمة، وكلُّ شيء جاهز، وطبيبُ التوليد قد جاء. فهل تتمُّ الولادة بخير؟ غير أنَّها بالطبع تختلف عن الولادة العاديَّة في جانب مهمٍّ جدّاً. ففي الولادة العاديَّة لا يكون للطفل خيارٌ كثير: أمَّا هنا فلديه. وإنِّي لأتساءل ماذا يفعل الطفل العاديُّ لو كان له الخيار. فقد يؤثِر البقاء في ظلمة الرَّحم ودفئها وأمانها. ومن شأن ذلك أن يكون موضع خطإه الأخطر: لأنَّه إذا بقي هناك يموت.

فبناءً على هذه النظرة، حدث الأمر فعلاً؛ إذ إنَّ الخطوة الجديدة قد تمَّت وتتمّ.

فالناس الجُدد فعلاً منتشرون هنا وهناك على وجه الأرض كلِّها. والمرء يقابلهم بين حينٍ وآخر. حتّى أصواتُهم ووجوههم مختلفةٌ عن أصواتنا ووجوهنا: فهي أقوى وأهدأ وأسعد وأبهى. وهم يبتدئون حيث نتوقف نحنُ. وأعتقد أنَّ تمييزهم ممكن؛ إنما ينبغي لك أن تعرف عمَّا تبحث. فإنَّهم لن يكونوا تماماً على صورة «المتديِّنين» التي كوَّنتَها من قراءاتك العامَّة. ذلك أنَّهم لا يلفتون الانتباه إلى أنفسهم. وأنت تميل إلى الظنِّ بأنَّك لطيفٌ معهم، في حين يكونون هم بالحقيقة لطفاء معك. وهم يحبُّونك أكثر ممَّا يحبّك سائرُ الناس، غير أنَّهم يحتاجون إليك أقلّ. (علينا أن نتغلَّب على الرغبة في أن نكون مطلوبين: فهذه هي التجربة الأصعبُ مقاومتُها بين جميع التجارب لدى بعض مُتكلِّفي الصلاح، ولا سيَّما من النساء.) وسيبدو دائماً أنَّ لديهم مُتَّسعاً من الوقت، حتَّى لَتعجبُ من أين يأتيهم. وعندما تُميِّز واحداً منهم، فسيكون تمييز التالي أسهل عليك بكثير. وأغلبُ الظنِّ عندي (إنَّما كيف لي أن أتيقَّن؟) أنَّهم يُميِّزون بعضُهم بعضاً في الحال وبلا التباس، عبر كلِّ حاجز من لونٍ أو جنس أو فئة أو عُمر، بل عبر قوانين الإيمان أيضاً. على هذا المنوال، تكون صيرورة المرء قدِّيساً أشبه بالانضمام إلى جمعيَّة سرِّيَّة. وبتعبيرٍ يقتصر على الحدِّ الأدنى، لا بدَّ أن ينطوي ذلك على متعة عظيمة.

ولكن لا ينبغي أن تتصوَّر أنَّ الناس الجُدد، بمعنى الكلمة المألوف، متشابهون كلُّهم. ولربَّما حملك مقدار كبير ممَّا دأبتُ في قوله في صفحات الباب الأخير هذا على الظنِّ بأنَّ الواقع لا بدَّ أن يكون على تلك الحال. فأن نصير أُناساً جُدداً يعني أن نفقد ما ندعوه الآن «ذواتنا». إذ ينبغي لنا أن نخرج إلى خارج أنفسنا كي ندخل المسيح. ينبغي أن تصير إرادته إرادتَنا، وأن نفكِّر أفكاره: «أن يكون لنا فكر المسيح»، كما يقول الكتاب المقدَّس. وما دام المسيح واحداً، وينبغي هكذا أن يكون «فينا» جميعاً، أفلا نكون متشابهين تماماً؟ يقيناً أنَّ الأمر يبدو على هذه الصورة، ولكنَّه ليس كذلك في الواقع.

من الصعب هنا أنّ أُقدّم إيضاحاً وافياً: لأنّه بالطبع لا يرتبط شيئان آخران أحدهما بالآخر تماماً كما يرتبط الخالق بواحدٍ من خلائقه. غير أنَّني سأُجرِّب إيضاحَين غير كاملين للغاية لكنَّهما قد يلقيان ضوءاً على الحقّ. تصوَّر مجموعةً من الناس عاشوا دائماً في الظلام. ثمَّ تأتي وتحاول أن تصف لهم حقيقة النور. فقد

تقول لهم إنَّه إذا أقبلوا إلى النور فإنَّ ذلك النور عينه سيسقط عليهم جميعاً، وإنَّهم جميعاً سيعكسونه، وبذلك يصيرون مرئيِّين كما نقول. أفليس من الممكن تماماً أن يتصوَّروا أنَّهم ما داموا كلُّهم يتلقَّون النور ذاته وكلُّهم يستجيبون له بالطريقة نفسها (أي يعكسونه) فسيكونون متشابهين كلّهم؟ في حين أنَّنا، أنا وأنت، نعلم أنَّ النور بالحقيقة سوف يُبرِز، أو يُظهِر، إلى أيِّ مدىً هم مُتباينون. أو أيضاً هبْ شخصاً لا يعرف عن الملح شيئاً. فإنَّك تُعطيه مقداراً ضئيلاً من الملح حتَّى يذوقه، فيحسُّ طَعماً قويّاً حادّاً معيَّناً. ثمَّ تقول له إنَّ الناس في بلدك يستخدمون الملح في جميع مآكلهم. أفلا يمكن أن يُجيب: «في هذه الحالة أعتقد أنَّ جميع مأكولاتكم لها الطَّعم نفسُه تماماً: لأنَّ طَعم هذه المادَّة التي أعطيتني إيَّاها للتوِّ قويٌّ جداً بحيث يقتل طَعم أيِّ شيءٍ آخر»؟ غير أنَّ ما أعلمه وتعلمه هو أنَّ تأثير الملح الحقيقيَّ عكسُ ذلك تماماً. فأبعدَ بكثير عن قتل الملح لطَعم البيض أو المحشوِّ أو الملفوف، نعلم أنَّه بالفعل يُبرز طعم هذه المأكولات. ذلك أنَّ هذه المآكل لا تُبدي طعمها الحقيقيَّ إلاَّ متى أضفتَ إليها الملح. (كما سبق أن نبَّهتُك طبعاً، ليس هذا إيضاحاً وافياً جدّاً، لأنَّك في نهاية المطاف قد تقتل الطُّعوم الأُخرى بإضافة كثيرٍ من الملح، في حين لا يمكنك أن تقتل طَعم الشخصيَّة البشريَّة بإضافة مقدارٍ زائد من المسيح... غير أنِّي بذلتُ قصارى جهدي!)

إنَّ حالنا مع المسيح تُشبِه شيئاً من هذا القبيل. فكلَّما أزحنا من الطريق ما ندعوه الآن «ذواتنا» وسمحنا للمسيح بأن يتولَّى أمرنا، نصير «أنفسنا» حقّاً على نحوٍ أوفى. وثمَّة مقدارٌ كبير جدّاً من المسيح سيكون ملايين الملايين من «المسحاء الصِّغار» أقلَّ جدّاً من أن يعبِّروا عنه أكمل تعبير وبعضُهم مختلفون عن بعض. وهو قد صنعهم أجمعين. فهو اخترع، كما يخترع الروائيُّ أشخاص روايته، جميع الناس المختلفين الذين قُصِد لنا، أنتم وأنا، أن نكونهم. وبهذا المعنى، فإنَّ ذواتنا الحقيقيَّة كلَّها تنتظرنا فيه. فلا خير في سعيي إلى «أن أكون ذاتي» بمعزلٍ عنه. وكلَّما قاومتُه وحاولت أن أعيش حياتي الخاصَّة، سيطرَت عليَّ وراثتي ونشأتي وبيئتي ورغباتي الطبيعيَّة. وبالحقيقة أنَّ ما أدعوه «نفسي» بكلِّ فخر يصير مجرَّد مُلتقى سلاسل من الأحداث التي لم أُطلِقها قطُّ والتي لا يمكنني وقفُها. وما أدعوه «رغباتي» يصير مجرَّد الميول التي يلقيها عليَّ كياني العُضويُّ الطبيعيّ، أو تضخُّها في داخلي

أفكار الناس الآخرين، أو تُوسوِس لي بها الشياطين أيضاً. فإنَّ أكل البيض وشرب الكحول وقضاء ليلة هانئة ستكون الأُصول الحقيقيَّة لِما أُطري نفسي بحسبانه تصميمي الشخصيَّ جدّاً والمدروس بحكمة على إقامة وصال جنسيّ مع الشابَّة الجالسة مقابلي في عربة القطار. وسيكون الترويج الدعائي هو الأصل الحقيقيَّ لِما أعدُّه أفكاري السياسيَّة الشخصيَّة. فأنا، في حالتي الطبيعيَّة، لستُ تقريباً ذلك الشخص الذي أودُّ أن أحسب نفسي إيّاه: فمعظم ما أدعوه «أنا» يمكن تعليله بكلّ سهولة. وعندما ألتفتُ راجعاً إلى المسيح، عندما أُسلِّم نفسي لشخصيَّته، عندئذٍ أبدأ أحوز الشخصيَّة الحقيقيَّة الخاصَّة بي.

قلتُ في البداية إنَّ في الله شخصيَّاتٍ، أو أقانيم. وسأتقدَّم قليلاً الآن، فأقول إنَّه لا توجد أيَّة شخصيَّات حقيقيَّة في أيِّ مكان آخر. فما لم تُسلِّم ذاتك لله، لا تكن لك ذاتٌ حقيقيَّة. إنَّ التماثُل يتواجد أكثر الكلّ بين الناس الذين يتَّصفون أكثر من سواهم بأنَّهم «طبيعيُّون» وليس بين أولئك الذين يخضعون للمسيح. فكم كان جميع الطغاة والغُزاة العظام متماثلين على نحوٍ رتيب، وكم كان جميع القدِّيسين متمايزين على نحوٍ مجيد!

إنَّما ينبغي أن يحصل تخلٍّ حقيقيٌّ عن الذات. فيجب أن تُطوِّحها بعيداً «على العميانيّ»، إن جاز التعبير. وسيُعطيك المسيح بالحقيقة شخصيَّة حقيقيَّة، إنَّما لا ينبغي أن تذهب إليه طلباً لهذا الأمر بعينه. فما دامت شخصيَّتك الخاصَّة هي ما يَعنيك ويُقلِقك، فإنَّك لن تذهب إليه أبداً. وأوَّل خطوة بالذات هي أن تحاول نسيان أمر ذاتك كلِّيّاً. فإنَّ ذاتك الحقيقيّة، أي الجديدة (التي هي للمسيح ولك أيضاً، وهي لك تماماً لأنَّها للمسيح)، لن تأتيك ما دمتَ تطلبها. إنَّها ستأتيك فيما تطلبُ المسيح نفسه. أيبدو هذا غريباً؟ إنَّ المبدأ عينه يصحُّ، كما تعلم، بالنسبة إلى كثير من الشؤون اليوميَّة. حتَّى إنَّك، في الحياة الاجتماعيَّة، لن تُخلِّف لدى سواك من الناس أيَّ انطباعٍ حسن قبل أن تكفَّ عن التفكير في أيِّ نوعٍ من الانطباع أنت مُحدِثه. وفي الآدابِ والفنون أيضاً، لَن يكون أصيلاً البتَّة أيُّ شخصٍ تَعنيه الأصالة وتُقلِقه: في حينَ أنَّك إذا حاولتَ قول الحقِّ فحسب (بغير أن يهمَّك بتاتاً كم مرَّة سبق أن قيل) فلا بدَّ أن تصير أصيلاً، دون أن تلاحظ ذلك أبداً، تسعَ مرَّاتٍ من كُلِّ عَشر. فهذا المبدأ يتخلَّل الحياة كلَّها من القمَّة إلى الحضيض: تخلَّ عن ذاتك،

فتجدَ ذاتك الحقيقيَّة؛ اخسرْ حياتك، فتُنقِذها. اخضعْ للموت، موتِ مطامحك ورغباتك كلَّ يوم وموتِ جسدك بكامله في النهاية، اخضعْ له بكلِّ عِرق وعصب في كيانك، فتجدَ حياةً أبديَّة. لا تتمسَّك بأيِّ شيء. فلا شيء ممَّا لم تتخلَّ عنه سيكون لك حقّاً. ولا شيءَ فيك ممَّا لم يمُت سيُقام من الموت. ابحثْ عن ذاتك، فلن تجد في نهاية المطاف إلاَّ البغض والوحشة واليأس والسخط والخراب والفساد. ولكنِ ابحثْ عن المسيح، فتجدَه حتماً، وتجدَ معه كلَّ شيءٍ آخر علاوةً عليه.

المسيحية المجرّدة

«المسيحية المجُرَّدة» كتاب كلاسيكي من القرن العشرين، كتبه سي أس لويس، يعرض فيه ملخَّصاً لما آمن به المسيحيون عبر تاريخ المسيحية. يستخدم لويس في هذا الكتاب الفلسفة وتوضيحاتٍ عميقة ومنطقاً بارعاً ينقل بها أفكاره. يبتدئ لويس من نقطة الدفاع عن وجود الله ليكمِل في عرض أعماق الإيمان المسيحية في سلسلةٍ من المقالات التي غيَّرت حياة وأفكار عددٍ لا حصر له من القراء في نصف القرن الماضي. وتأتي هذه الترجمة إلى العربية لينتفع بها قراؤها الذين بين ظهرانيهم بدأ الإيمان المسيحي قبل ألفي سنة.

C. S. Lewis.

ISBN 90-5950-041-5

9 789059 500419